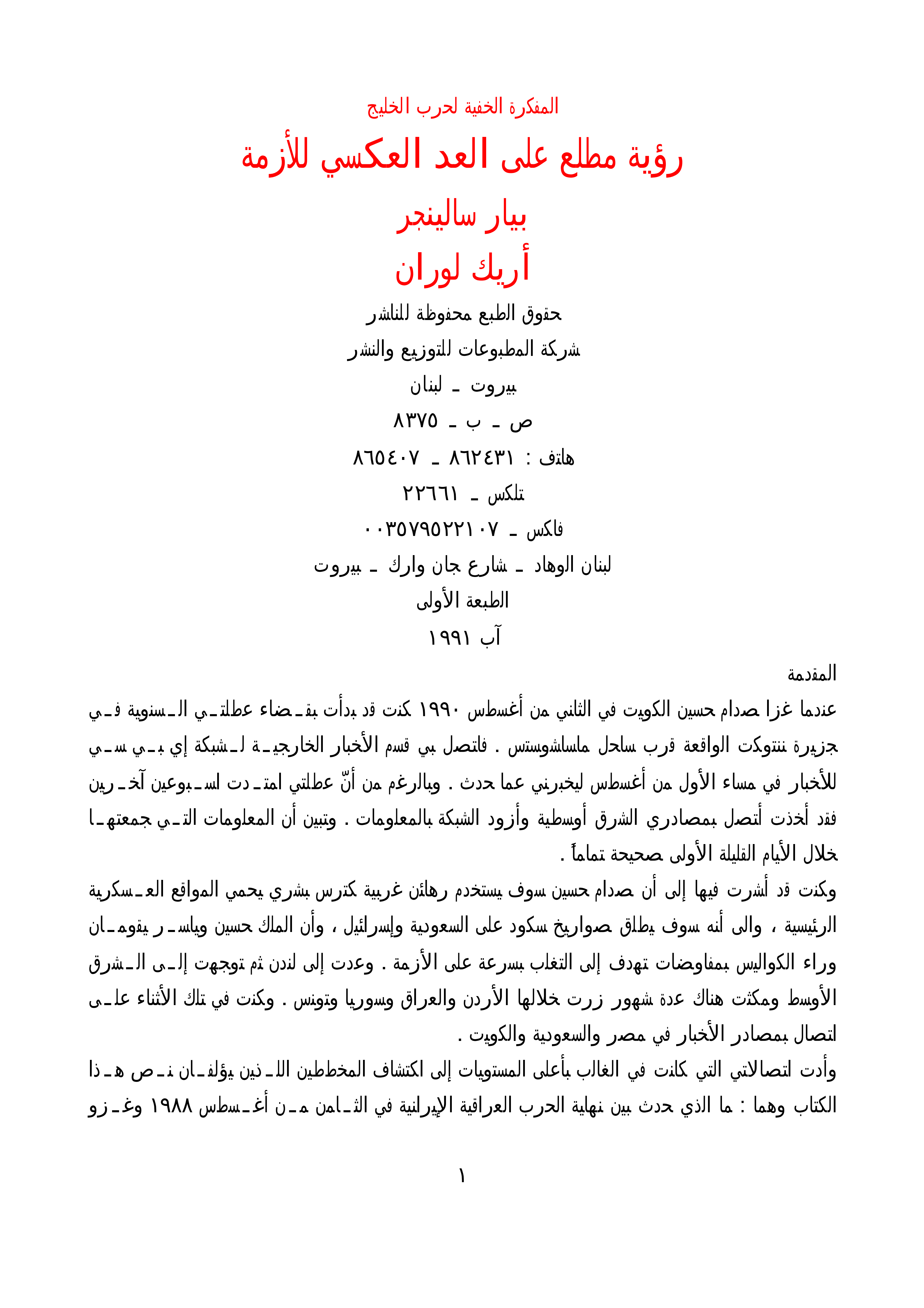


رؤية مطلع على العد العكسي للأزمة

بيار سالينجر

أريك لوران

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت ـ لبنان

ص ـ ب ـ ٨٣٧٥

هاتف : ٨٦٢٤٣١ ـ ٨٦٥٤٠٧

تلكس ـ ٢٢٦٦١

فاكس ـ ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

لبنان الوهاد ـ شارع جان وارك ـ بيروت

الطبعة الأولى

آب ١٩٩١

المقدمة

عندما غزا صدام حسين الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ كنت قد بدأت بقضاء عطلتي السنوية في جزيرة ننتوكت الواقعة قرب ساحل ماساشوستس . فاتصل بي قسم الأخبار الخارجية لشبكة إي بي سي للأخبار في مساء الأول من أغسطس ليخبرني عما حدث . وبالرغم من أنّ عطلتي امتدت اسبوعين آخرين فقد أخذت أتصل بمصادري الشرق أوسطية وأزود الشبكة بالمعلومات . وتبين أن المعلومات التي جمعتها خلال الأيام القليلة الأولى صحيحة تماماً .

وكنت قد أشرت فيها إلى أن صدام حسين سوف يستخدم رهائن غربية كترس بشري يحمي المواقع العسكرية الرئيسية ، والى أنه سوف يطلق صواريخ سكود على السعودية وإسرائيل ، وأن الملك حسين وياسر يقومان وراء الكواليس بمفاوضات تهدف إلى التغلب بسرعة على الأزمة . وعدت إلى لندن ثم توجهت إلى الشرق الأوسط ومكثت هناك عدة شهور زرت خلالها الأردن والعراق وسوريا وتونس . وكنت في تلك الأثناء على اتصال بمصادر الأخبار في مصر والسعودية والكويت .

وأدت اتصالاتي التي كانت في الغالب بأعلى المستويات إلى اكتشاف المخططين اللذين يؤلفان نص هذا الكتاب وهما : ما الذي حدث بين نهاية الحرب العراقية الإيرانية في الثامن من أغسطس ١٩٨٨ وغزو

الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ والأحداث التي دفعت صدام حسين إلى القيام بـالغزو، وكيـف سـعى العالم العربي جاهداً إلى حل المشكلة بسرعة وخصوصاً بواسطة الملـك حـسين . ولكـن الجهـود العربيـة اصطدمت بضغط حكومة الولايات المتحدة الأميركية على الدول العربية لكي تندد بالغزو.
موضوع هذا الكتاب ليس الحرب . إنه يبين لنا أنه كان في الإمكان تجنب الحرب . فلدي نظرنا فـي الأزمـة صار من الواضح أن قلة من الأقطار التي انضمت إلى التحالف المناهض للعـراق كانـت راضـية عـن دكتاتورية صدام ووحشيته ، وعليه فإنها لم تكن في الحقيقة تحبذ حلاً سلمياً يسمح ببقائه في الحكـم واحتفاظـه بأسلحته . لكن هذا الكتاب يبين لنا أيضاً أن الغرب والاتحاد السوفييتي اللذين اجتمعا علـى مناهـضة العـراق هما المسؤولان عن تسليحه . ومن الواضح أيضاً أن الولايات المتحدة كانت منذ بداية عام ١٩٩٠ توجـه إلـى العراق رسائل مختلفة تقنعه بأن قيامه بعمل عسكري ضد الكويت لن يدفع الولايات المتحدة إلى الانتقام منـه . وكان كل من صدام حسين والأميركيين لا يفهم أحدهما الآخر وعقليته . ولم يدرك صدام حسين معنى تحـسن العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي سيقف إلى جانبه . وظل مدة طويلـة لا يـصدق تهديـدات الرئيس بأن التحالف الذي يتزعمه الأميركيون لن يوافق على بقائه فـي الكويـت . وكانـت النتيجـة انـدلاع الحرب .

الفصل الأول

((سوف أنتقم))

شهد الثامن من أغسطس ١٩٨٨ نهاية الحرب العراقية الإيرانية ، لكن لم يخطر ببال أحـد عندئـذ بـأن هـذا التاريخ سوف يشكل بداية أزمة الخليج في عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ .
وكان قيام طهران أولاً باقتراح وقف لاطلاق النار كافياً لاعتبار العراق المنتصر في ذلك النزاع الـذي امتـد ثماني سنوات وحصد أرواح ما يقرب من مليون من البشر . والواقع أن العراق خرج من الحرب قوياً ولكـن الحرب استنزفت موارده . وكان لا يزال أقوى دولة في المنطقة : ٥٥ فرقة مقابل عشر فـوق عـام ١٩٨٠؛ مليون جندي مدرب تدريباً جيداً ؛ ٥٠٠ طائرة و٥٥٠٠ دبابة . لكن الكارثة المالية لـم تكـن تقـل ضـخامة . فعندما بدأت الحرب كانت لديه مدخرات قدرها ثلاثون بليوناً من الدولارات . وعندما انتهت كانت ديونـه قـد بلغت مئة بليون دولار . ولهذا السبب لم يترك صدام حسين مناسبة واحدة إلا واغتنمها ليقـوم بـابلاغ جميـع زواره الأجانب الذين كان يستقبلهم في قصره الفخم وسط بغداد أنه كان خلال الأعـوام الثمانيـة الماضـية " الدرع الواقي للأخوة العرب من التهديد الفارسي " وأنه يتوقع أن تقوم " أكثر الأقطار العربيـة ثـراء وهـي السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت بالعون والمساعدة في تسديد كامل ديوننا " .
في التاسع من آب عام ١٩٨٨ ، غداة وقف إطلاق النار بين العراق وإيران أخـذت الكويـت قـراراً بزيـادة انتاجها النفطي ، مخالفة بذلك الاتفاقات المعقودة في اطار منظمة الأوبيك . وقد تم التركيز الكويتي في تحقيـق

هذه الزيادة الانتاجية على آبار الرملية الواقعة في المنطقة الحدودية المتنازع عليها مع العراق والتـي كانـت موضوعاً في السابق لمناقشات دبلوماسية صاخبة .
واعتبر صدام حسين مبادرة الكويت إلى زيادة انتاجها من النفط استفزازاً وخيانة ومن شـأنه أن يزيـد أزمـة زيادة الانتاج وانخفاض الأسعار حدة وأن يؤدي إلى انخفاض دخل العراق الذي يعتمد في ٩٠ % من مـوارده على النفط بمقدار ٧ بلايين دولار أو ما يساوي فوائد ديونه . وكان هذا بمثابة خنقه ببطء .
من ناحية أخرى لا يمكن تصور بلدين هما على طرفي نقيض كالعراق والكويـت . ففـي العـراق تتركـز السلطات في شخص حاكم مطلق التصرف يعيش هوس أحلام السلطة والقوة . وفي مواجهة العـراق ، البلـد المتقشف الذي يعد ١٨ مليوناً من البشر يعانون مختلف أشكال الحرمات ، تتربع إمارة الكويت علـى الثـروة والوفرة حيث يتقاسم ما يوازي الألف من أفراد أسرة آل الصباح الحاكمة المناصب المختلفـة إضـافة إلـى السلطة والأرباح وكأنهم أعضاء مجلس الإدارة في أي شركة من الشركات المزدهـرة . أمـا الاسـتثمارات الكويتية في الخارج فكانت تتجاوز ١٠٠ مليار دولار وتؤمن للإمارة حوالي ٦ مليارات من الدولارات سـنوياً ، أي أكثر من عائدات البترول ذاتها . وكان على رأس المستفيدين مـن هـذه العوائـد ٧٠٠ ، ٠٠٠ شـخص يحملون الجنسية الكويتية . أمام غير الكويتيين من فلسطينيين وإيرانيين وباكـستانيين وغيـرهم البـالغ عـددهم حول ١،٢٠٠ ، ٠٠٠ شخص والذين يديرون اقتصاد البلاد فلم يكن نصيبهم منها إلا فتات الموائد.
والمال في الغالب يجعل صاحبه متعجرفاً أعمى البصيرة . وهذا هو ما أصاب زعماء الكويت وجعل بالتـالي وقوع المأساة أمراً حتمياً . لقد عجزوا عن قراءة النذر بوقوعها فكانت الحرب المأساوية .
وقبيل ظهر ١٢ فبراير عام ١٩٩٠ يوم ذكرى مولد الرئيس أبراهام لنكولن وصل جون كيلـي إلـى بغـداد . وكان في أواخر الأربعينات من عمره متوسط الطول شعره أسمر وتتميز حركاته بالهـدوء والرزانـة .وهـو دبلوماسي محترف متخصص في الشؤون الأوروبية . ولم يحتل في الشرق الأوسط سوى منصب واحد وهـو سفير بلاده في لبنان وكانت هذه هي زيارته الأولى للعراق وبوصفه مساعد وزير الخارجية لـشؤون الـشرق الأوسط .
كان الطقس بارداً وسفيرة الولايات المتحدة في العراق إبريل غلاسبي تنتظره عند سلم الطائرة بـصحبة اثنـين من المسؤولين العراقيين . وكانت غلاسبي ذات الملامح البارزة والوجه الصارم قـد انخرطـت فـي الـسلك الدبلوماسي بعد تخرجها من جامعة جون هوبكنز وتتكلم العربية بطلاقـة . واحتلـت عـدداً مـن المناصـب وخصوصاً في تونس ودمشق قبل أن تتولى إدارة الشؤون الأردنية والسورية واللبنانية في وزارة الخارجيـة . وكانت عازبة وتعيش في بغداد مع أمها وكلبها ، ولم تكن حتى مجيء كيلي قد ظفرت بمقابلـة خاصـة مـع صدام حسين .
كانت تقارير الإدارة الأميركية عن الزعيم العراقي تدور حول ثلاثة محاور رئيسية : أولا قدرته ورغبته فـي أن يصبح الزعيم الحقيقي للعالم العربي وثانياً إعجابه الشديد بجمال عبد الناصر وسحر زعامته وحبـه فـي أن

يكون مثله وثالثاً تقاربه مع الغرب . وكانت هذه النقطة الثالثة برأي كيلي ومستشاريه الأكثر أهميـة . فعنـدما هاجمت القوات العراقية إيران عام ١٩٨٠ كان النظام البعثي يعتبر من أقوى حلفاء موسـكو فـي المنطقـة . وبعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ رئس العراق جبهة الرفض التي استهدفت عزل القاهرة ومعاقبتها على تقاربها مع الدولة اليهودية . وفي ذلك الوقت كان العراق ملجأ لأكثر الجماعـات الفلـسطينية الإرهابيـة عنفا وفي مقدمتها أبو نضال ورجاله .

على أن العراق خرج من حرب السنوات الثمانية مع إيران أقرب إلى الغرب من أي وقت مـضى . إذ كـان اقتصاده أكثر ارتباطا بالأقطار الغربية منه بالاتحاد السوفييتي ، وفي ترسانة أسلحته من الغـرب وخـصوصاً من فرنسا لا تقل حجما عن الأسلحة السوفييتية . ودفع هذا كله الأميركيين إلى المجازفة بأموالهم في العـراق بوصفه قوة ضخمة تعمل على الاستقرار في المنطقة .

استقبل صدام حسين جون كيلي بعد ظهر الثاني عشر من فبراير ١٩٩٠ . وكانت المقابلة هي الأولى مع أحـد الرسميين الأميركيين منذ زمن بعيد . وبادر المبعوث الأميركي مضيفه ، خلال تبادل التحيات ، بقوله : " انـتم قوة اعتدال في المنطقة وتتمنى الولايات المتحدة إقامة أوثق العلاقات مع العراق " .

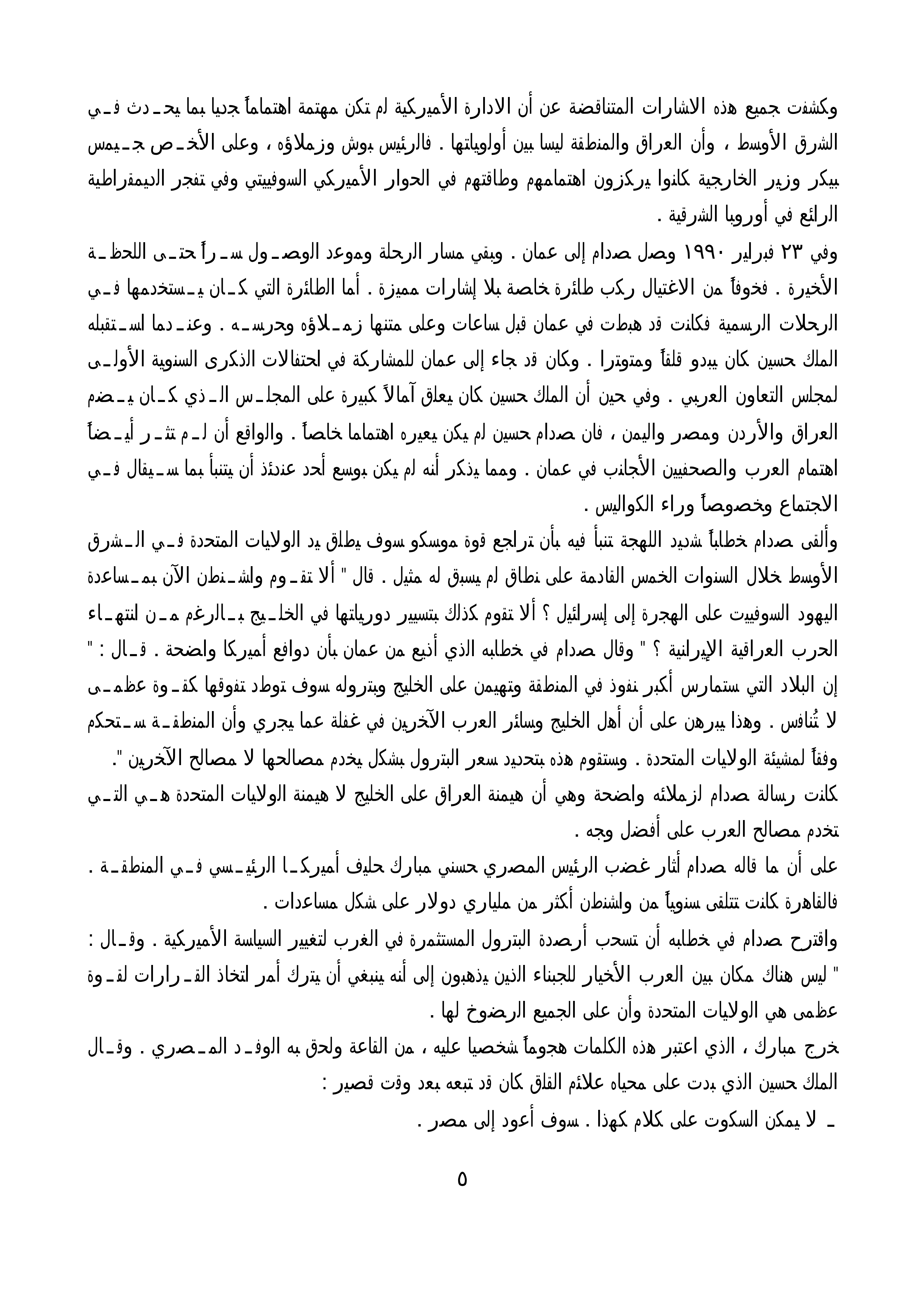
لقد سرّ صدام حسين بهذا الاطراء وغمره شعور بالفخر، كما قال لدى سماعه ذلك ، وقام بعد سـاعات مـن المقابلة بنقل ما دار فيها إلى عدد من زعماء الدول العربية وكان أول من اتصل به هاتفياً هو الملك الأردنـي حسين .

وبهذا أبلغ كيلي الرسالة الأولى من سلسلة طويلة من الرسائل المبهمة والمتناقضة التي سوف تكون لها نتـائج خطيرة .

وفي ١٥ فبراير وبعد المقابلة بثلاثة أيام بثت اذاعة " صوت أميركا " برنامجاً قالت إنه يعكـس وجهـة نظـر الحكومة الأميركية وأهابت فيه بالرأي العام العالمي أن يتحرك ضد الدكتاتوريين الذين يحكمون فـي مختلـف اقطار العالم . وذكرت العراق وأدانت صدام حسين بوصفه أسوأ دكتاتور في العالم . فغضب الرئيس العراقي غضباً شديداً . ولم ينفع معه الاعتذار الذي قدمته واشنطن عبر سفارتها في بغداد . ورفض قبول القـول بـأن إذاعة " صوت أميركا " قد تعبر عن رأي يخالف الرأي الرسمي ، وإذ جاء هذا الحادث بعد أطراء كيلي عليـه مباشرة فقد اتخذه صدام دليلاً على أن الأميركيين يقومون بلعبة مزدوجة .

ومما رسّخ قناعته هذه ، قيام وزارة الخارجية الأميركية ، يوم ٢١ فبراير بنشر تقرير عـن حقـوق الإنـسان خصّت العراق بعدد من صفحاته تجاوز ١٢ صفحة وصفت فيها الحكومة العراقية بأنها أسوأ منتهـك لحقـوق الإنسان ، وأشارت إلى ممارسة هذه الحكومة المتكررة للتعذيب والاعدامات السريعة دون محاكمة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد لأن لجنة الشؤون الخارجية في الكونجرس الأميركي أرادت ، بعد صـدور هـذا التقرير ، تبني قرار يدين " العراق لخرقه الفاضح لحقوق الإنسان " مما دفـع بـإدراة الـرئيس بـوش إلـى الاحتجاج على هذه الخطوة والحؤول دون تبنيها من قبل مجلس النواب .


وكشفت جميع هذه الاشارات المتناقضة عن أن الادارة الأميركية لم تكن مهتمة اهتماماً جديا بما يحـدث فـي الشرق الأوسط ، وأن العراق والمنطقة ليسا بين أولوياتها . فالرئيس بوش وزملاؤه ، وعلى الأخـص جـيمس بيكر وزير الخارجية كانوا يركزون اهتمامهم وطاقتهم في الحوار الأميركي السوفييتي وفي تفجر الديمقراطية الرائع في أوروبا الشرقية .

وفي ٢٣ فبراير ١٩٩٠ وصل صدام إلى عمان . وبقي مسار الرحلة وموعد الوصـول سـراً حتـى اللحظـة الأخيرة . فخوفاً من الاغتيال ركب طائرة خاصة بلا إشارات مميزة . أما الطائرة التي كـان يـستخدمها فـي الرحلات الرسمية فكانت قد هبطت في عمان قبل ساعات وعلى متنها زمـلاؤه وحرسـه . وعنـدما اسـتقبله الملك حسين كان يبدو قلقاً ومتوترا . وكان قد جاء إلى عمان للمشاركة في احتفالات الذكرى السنوية الأولـى لمجلس التعاون العربي . وفي حين أن الملك حسين كان يعلق آمالاً كبيرة على المجلـس الـذي كـان يـضم العراق والأردن ومصر واليمن ، فان صدام حسين لم يكن يعيره اهتماما خاصاً . والواقع أن لـم تثـر أيـضاً اهتمام العرب والصحفيين الأجانب في عمان . ومما يذكر أنه لم يكن بوسع أحد عندئذ أن يتنبأ بما سـيقال فـي الاجتماع وخصوصاً وراء الكواليس .

وألقى صدام خطاباً شديد اللهجة تنبأ فيه بأن تراجع قوة موسكو سوف يطلق يد الولايات المتحدة فـي الـشرق الأوسط خلال السنوات الخمس القادمة على نطاق لم يسبق له مثيل . قال " ألا تقـوم واشـنطن الآن بمـساعدة اليهود السوفييت على الهجرة إلى إسرائيل ؟ ألا تقوم كذلك بتسيير دورياتها في الخلـيج بـالرغم مـن انتهـاء الحرب العراقية الإيرانية ؟ " وقال صدام في خطابه الذي أذيع من عمان بأن دوافع أميركا واضحة . قـال : " إن البلاد التي ستمارس أكبر نفوذ في المنطقة وتهيمن على الخليج وبتروله سوف توطد تفوقها كقـوة عظمـى لا تُنافس . وهذا يبرهن على أن أهل الخليج وسائر العرب الآخرين في غفلة عما يجري وأن المنطقـة سـتحكم وفقاً لمشيئة الولايات المتحدة . وستقوم هذه بتحديد سعر البترول بشكل يخدم مصالحها لا مصالح الآخرين ".

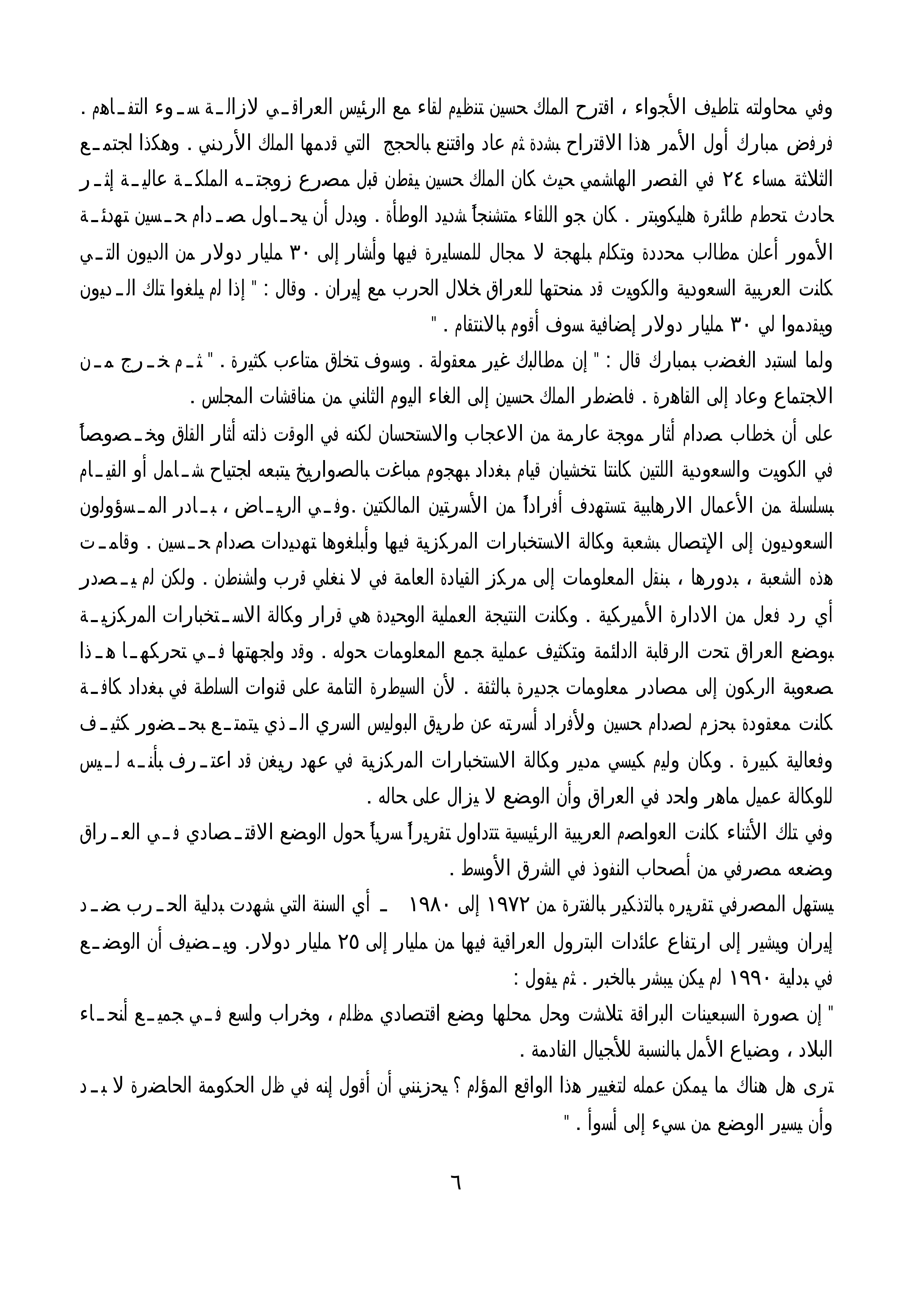
كانت رسالة صدام لزملائه واضحة وهي أن هيمنة العراق على الخليج لا هيمنة الولايات المتحدة هـي التـي تخدم مصالح العرب على أفضل وجه .

على أن ما قاله صدام أثار غضب الرئيس المصري حسني مبارك حليف أميركـا الرئيـسي فـي المنطقـة . فالقاهرة كانت تتلقى سنوياً من واشنطن أكثر من مليارى دولار على شكل مساعدات .

واقترح صدام في خطابه أن تسحب أرصدة البترول المستثمرة في الغرب لتغيير السياسة الأميركية . وقـال : " ليس هناك مكان بين العرب الأخيار للجبناء الذين يذهبون إلى أنه ينبغي أن يترك أمر اتخاذ القـرارات لقـوة عظمى هي الولايات المتحدة وأن على الجميع الرضوخ لها .

خرج مبارك ، الذي اعتبر هذه الكلمات هجوماً شخصيا عليه ، من القاعة ولحق به الوفـد المـصري . وقـال الملك حسين الذي بدت على محياه علائم القلق كان قد تبعه بعد وقت قصير :

ـ لا يمكن السكوت على كلام كهذا . سوف أعود إلى مصر .



وفي محاولته تلطيف الأجواء ، اقترح الملك حسين تنظيم لقاء مع الرئيس العراقي لازالة سوء التفاهم . فرفض مبارك أول الأمر هذا الاقتراح بشدة ثم عاد واقتنع بالحجج التي قدمها الملك الأردني . وهكذا اجتمع الثلاثة مساء ٢٤ في القصر الهاشمي حيث كان الملك حسين يقطن قبل مصرع زوجته الملكة عالية إثر حادث تحطم طائرة هليكوبتر . كان جو اللقاء متشنجاً شديد الوطأة . وبدل أن يحاول صدام حسين تهدئة الأمور أعلن مطالب محددة وتكلم بلهجة لا مجال للمسايرة فيها وأشار إلى ٣٠ مليار دولار من الديون التي كانت العربية السعودية والكويت قد منحتها للعراق خلال الحرب مع إيران . وقال : " إذا لم يلغوا تلك الديون ويقدموا لي ٣٠ مليار دولار إضافية سوف أقوم بالانتقام . "

ولما استبد الغضب بمبارك قال : " إن مطالبك غير معقولة . وسوف تخلق متاعب كثيرة . " ثم خرج من الاجتماع وعاد إلى القاهرة . فاضطر الملك حسين إلى الغاء اليوم الثاني من مناقشات المجلس .

على أن خطاب صدام أثار موجة عارمة من الاعجاب والاستحسان لكنه في الوقت ذاته أثار القلق وخصوصاً في الكويت والسعودية اللتين كانتا تخشيان قيام بغداد بهجوم مباغت بالصواريخ يتبعه اجتياح شامل أو القيام بسلسلة من الأعمال الارهابية تستهدف أفراداً من الأسرتين المالكتين .وفي الرياض ، بادر المسؤولون السعوديون إلى الإتصال بشعبة وكالة الاستخبارات المركزية فيها وأبلغوها تهديدات صدام حسين . وقامت هذه الشعبة ، بدورها ، بنقل المعلومات إلى مركز القيادة العامة في لا نغلي قرب واشنطن . ولكن لم يصدر أي رد فعل من الادارة الأميركية . وكانت النتيجة العملية الوحيدة هي قرار وكالة الاستخبارات المركزية بوضع العراق تحت الرقابة الدائمة وتكثيف عملية جمع المعلومات حوله . وقد واجهتها في تحركها هذا صعوبة الركون إلى مصادر معلومات جديرة بالثقة . لأن السيطرة التامة على قنوات السلطة في بغداد كافة كانت معقودة بحزم لصدام حسين ولأفراد أسرته عن طريق البوليس السري الذي يتمتع بحضور كثيف وفعالية كبيرة . وكان وليم كيسي مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عهد ريغن قد اعترف بأنه ليس للوكالة عميل ماهر واحد في العراق وأن الوضع لا يزال على حاله .

وفي تلك الأثناء كانت العواصم العربية الرئيسية تتداول تقريراً سرياً حول الوضع الاقتصادي في العراق وضعه مصرفي من أصحاب النفوذ في الشرق الأوسط .

يستهل المصرفي تقريره بالتذكير بالفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٠ - أي السنة التي شهدت بداية الحرب ضد إيران ويشير إلى ارتفاع عائدات البترول العراقية فيها من مليار إلى ٢٥ مليار دولار. ويضيف أن الوضع في بداية ١٩٩٠ لم يكن يبشر بالخير . ثم يقول :

" إن صورة السبعينات البراقة تلاشت وحل محلها وضع اقتصادي مظلم ، وخراب واسع في جميع أنحاء البلاد ، وضياع الأمل بالنسبة للأجيال القادمة .

ترى هل هناك ما يمكن عمله لتغيير هذا الواقع المؤلم ؟ يحزنني أن أقول إنه في ظل الحكومة الحاضرة لا بد وأن يسير الوضع من سيء إلى أسوأ . "

ثم يشير صاحب التقرير إلى أن تراكم الديون وعجز بغداد حتى عن دفع فوائدها " سوف يحمل الحكومة علـى انتهاج سياسة متهورة خطرة فتقبل على الاستدانه بفائدة تبلغ ٣٠ % في السنة . ويكشف التقرير عـن حقيقـة تثير الدهشة وهي أن العراق كان في عام ١٩٨٩ أكبر مستفيد في العالم من " برنـامج المجتمـع الأميركـي لتقديم التسهيلات المالية " الذي يستهدف بيع المنتجات الزراعية الأميركية في الخارج .

ولعل أكثر فقرات التقرير أهمية هي الفقرة الأخيرة التي تنبأت بكثير من وضوح الرؤية بوقوع ما وقع بالفعـل . فقالت " إن صدام حسين يدرك الآن تماماً حقيقة وضعه المالي " . فما هي الخيارات المتاحة له فـي العـراق ذاته ؟ إنها محدودة جداً . لكن الكويت موجودة دائماً على بعد أمتار من حشود قواتـه المرابطـة علـى شـط العرب . والعراق بحاجة إلى منفذ إلى مياه الخليج المفتوحة .

وكانت هناك دلائل على المصاعب التي تواجهها بغداد في كثرة من مشروعاتها الطموحة والمتعثرة مثل بنـاء شبكة من الطرق تحت أرض بغداد ومن أكثر من ٨٠٠ ، ١ ميل من السكك الحديديـة وبنـاء سـدين مـائيين الكترونيين .

* * *

وهناك مراقب آخر للخلافات المتفاقمة داخل " الأسرة العربية " التي كان صدام كثيراً مـا يـشير اليهـا فـي خطاباته وأحاديثه الخاصة وهو الملك حسين ، فخلال حكمه الذي امتد ٣٧ عاما ولفت الأنظـار بـضعفه مـن ناحية وبقدرته على البقاء من الناحية الأخرى كان اكثر إحساساً من أي شخص غيره بالمؤشرات التـي تنـذر بالأزمات الوشيكة . كان يدرك أن تعرض المنطقة لهزة سياسية أخرى قد تعرض وجود بلاده ذاتـه للخطـر . فالأردن الذي يضم ثلاثة ملايين من السكان - ٦٠ % منهم من الفلسطينيين - ويفتقر إلـى المـوارد يمكـن إزالته عن الخريطة بسهولة . وقال الملك حسين لأحد زائريه بصوت رزين لا أثر فيه للانفعال :

" إنني أشعر بتزايد التوتر على نحو شبيه بما حدث قبيل حرب عـام ١٩٦٧ . ولـم أشـعر خـلال الـسنوات الأربعين الماضية بأن المنطقة بلغت مفترق الطرق الذي تشهده الآن " .

وكان الملك حسين يتحدث ووراءه صورة لصدام حسين .

كان الرئيس العراقي حليفا وفي الوقت ذاته مصدر قلق للملك حـسين ، إذ كـان شـريكاً لا يمكـن لـلأردن الضعيف أن يسيّره وزعيماً قد يزعزع توازن القوى الهش في المنطقة بطموحاته المعلنة.

وبعد فشل لقاء عمان في ٢٤ فبراير اقترح الملك على الرئيس العراقي أن يقـوم بنفـسه بجولـة تـشمل دول الخليج في محاولة منه للسعي إلى اتفاق بين الكويت والعربية السعودية والعراق . وبالفعل قام في ٢٦ فبرايـر برحلة استغرقت ثلاثة أيام وشملت مختلف عواصم المنطقة وأجرى خلالها محادثـات مكثفـة مـع الزعمـاء الخليجيين ، ثم عاد إلى عمان في الأول من آذار منهوك القوى . وفي صباح الثالث من آذار اتصل به صـدام حسين وقال . " الطائرة في طريقها إليك أنا في انتظارك ببغداد " .

اجتمع الرجلان أربع ساعات قدم خلالها الملك حسين تقريراً مفصلاً عـن جولتـه ، وسـرعان مـا تبـين ان المفاوضات وصلت إلى الطريق المسدود ، لأن الملك الهاشمي لم يتلق أي اشارة إيجابية من زعمـاء الخلـيج فيما يتعلق بأهداف صدام حسين الثلاثة : تسوية الخلافات الحدودية مع الكويت وبـالأخص حقـول الرمليـة الغنية التي تقع في المنطقة المتنازع عليها . الموافقة على تأجيره جزيرتي وربة وبوبيان اللتـين تؤمنـان لـه منفذاً على الخليج ، وتسوية مشكلة الديون المتراكمة على العراق خلال الحرب مع إيران .

وأبلغ الملك حسين الرئيس العراقي أن أمير دولة الكويت يرفض المفاوضات المباشرة حتى يعتـرف العـراق رسمياً بسيادة واستقلال الكويت . ومن الجدير ذكره هنا ان حكومة بغداد كانـت قـد اعترفـت عـام ١٩٦٣ باستقلال الكويت إلا أن مجلس الثورة لم يلبث أن الغى هذا القرار .

لم يظهر الغضب على وجه صدام حسين الذي كان جالساً على كنبة واسعة ومريحـة ، يـشعل بـين الحـين والآخر سيجارة ، ويتابع باهتمام شديد ما يقوله الملك الهاشمي كما لو كان يتوقع تلك النتيجة السلبية .

وعند نهاية الاجتماع عبر صدام عن جزيل شكره لزائره على الجهد الذي بذله ، وأبلغه أنه يأمل " مع الوقـت أن تسود الحكمة والارادة الطيبة بالنسبة لهذا المسألة " ولم يكن من الأمور العادية صدور مثل هـذه الكلمـات الرصينة التي تغلب عليها روح التوفيق عن رجل عود زملاءه على الخوف من نوبات غضبه (وكان حـسني مبارك الذي لم يُخف نفوره من صدام قد وصفه أمام عدد من الزعماء العرب بأنه " مضطرب الشخصية ").

ولم تكد تمضي ثلاثة أيام على عودة الملك حسين حتى دعا صدام جميع أعضاء القيادة العليـا إلـى اجتمـاع سري وأمرهم بأن يضعوا الخطط لحشد القوات على الحدود مع الكويت .

وسرعان ما اشتد التوتر . وفقد الكويتيون بعد النظر الذي كانوا يتحلون به . فبالرغم من أن الفـرق العراقيـة لم تكن قد تحركت بعد باتجاه الحدود فإن مسؤولاً كويتيا كبيراً أسر للأردنيين خـلال مـروره بعمـان بـأن " صدام حسين لا يريد الجزيرتين وحدهما بل الكويت برمتها " .

الفصل الثاني

تاريخ يسوده العنف

ظلت لندن طوال قرن من الزمن تعتبر الخليج أرضا بريطانية تتيح لها السيطرة علـى الطريـق إلـى الهنـد والشرق الأقصى . وتضافر عزم بريطانيا الواضح على أن لا يكون لغيرها نفوذ فـي المنطقـة مـع دهـاء دبلوماسييها على زرع بذور النزاع الحالي .

وحتى الحرب العالمية الأولى كان العراق والكويت يشكلان جزءاً من الامبراطورية العثمانيـة . والواقـع أن الكويت بمساحتها الصغيرة البالغة حوالي ١٠ ، ٠٠٠ ميل مربع كانت تابعة لولايـة البـصرة . وفـي عـام ١٩١٣ وبينما كان يشتد قرع طبول الحرب في أوروبا وقع الانجليز والأتراك اتفاقية تمـنح الكويـت الحكـم الذاتي . وفي خضم الحرب التي قاتل فيها الأتراك إلى جانب الألمان اعترفت لندن بامارة الكويت وبحـدودها واستقلالها عن الامبراطورية العثمانية .

على أن تجزئة هذه الامبراطورية الذي أوجد لبريطانيا حليفاً استراتيجيا لم تعرض العراقيين الذين انكروا حرمانهم من منفذ إلى الخليج وفقد منطقة لم يسبق أن كانت تتمتع بوجود مستقل .

ثم إنه كان هناك سبب آخر لغضب العراق الذي وقع عام ١٩١٨ تحت الانتداب البريطاني . ففي عام ١٩٢٥ أجبرت حكومة بغداد على توقيع اتفاق مع كونسورتيوم ضخم للشركات باسم شركة البترول العراقية (Ipc) .

وأكدت الاتفاقية على أن الشركة ستظل بأيدي البريطانيين وعلى أن يكون مديرها من رعايا بريطانيا وأن يظل الامتياز نافذاً إلى عام ٢٠٠٠ وهكذا أطلقت يد الشركة في استغلال أكبر حقل للنفط في التاريخ والحصول على أرباح خيالية .

والواقع أن الكيان العراقي كان كياناً مصطنعاً كالكويت وكحدود الدول في المنطقة . ففي أعقاب اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت الغنائم من الدولة العثمانية بين بريطانيا وفرنسا جرى إنشاء العراق من ثلاث ولايات تركية وهي بغداد والبصرة والموصل . وقد لخص أحدهم هذا الوضع تلخيصا رائعا بقوله : " لقد كان العراق من صنع تشرتشل الذي خطرت له فكرة جنونية وهي الجمع بين حقلي نفط متباعدين وهما كركوك والموصل وذلك بدمج ثلاث فئات من الناس وهي الأكراد والسنة والشيعة . "

وربما كانت هذه الولادة الصعبة غير المتوازنة هي التي جعلت من تاريخ العراق الحديث سلسلة متواصلة من أعمال العنف . وفي عام ١٩٥٨ أطاحت الثورة بالحكم الملكي الموالي للغرب وقتلت الجماهير الغاضبة الملك فيصل ورجمت رئيس وزرائه نوري السعيد وقضت عليه . وبعد ذلك بسنتين نجا عبد الكريم قاسم زعيم الثورة بصعوبة من محاولة لاغتياله . وكان بين الذين حاولوا اغتياله شاب في الثانية والعشرين من عمره وهو صدام حسين الذي استطاع الهرب إلى سوريا بالرغم من إصابته بجروح .

وفي عام ١٩٦٢ رفعت الجماهير الغاضبة رأس قاسم على منخس وطافت به الشوارع . وفي عام ١٩٦٨ استولى حزب البعث على السلطة . وكان هذا انتصاراً لصدام الذي اعتبر رجل النظام القوي . وبالرغم من أنه احتل منصب نائب رئيس مجلس الثورة فإنه كان أقوى رجل في البلاد .

وكان ولا يزال يسيطر على مختلف دوائر الأمن ثلاثة من اخوته غير الاشقاء وهم برزان وسبوي ووثبان . أما صهره حسين كمال المجيد فكان المسؤول المباشر عن المذابح التي تعرض لها الأكراد وعن استخدام الأسلحة الكيماوية ضد السكان المدنيين . وهو مفتاح كل مشتريات الدولة من السلاح ويتقاضى عمولة على كل صفقة . ويقال إن مكاسبه من شراء ١٢٠ من صواريخ سكود عام ١٩٨٧ بلغت ستين مليون دولار .

كان يجمع بين هذه المجموعة الصغيرة المتربعة على سدة الحكم لا دمها فقط بل ودم الآخرين . فعُدي الابن البكر لصدام ظل يضرب حارسا من حراس أبيه أمام ضيوفه حتى قضى عليه . فغضب صدام وهدد بقتله . فطلبت زوجته ساجدة من أخيها عدنان خير ا وزير الدفاع التوسط لدى صدام . وبالرغم من أن هذا عفا عن ابنه فلم يغفر إطلاقا لوزير الدفاع مع أنه صهره وقريبه . فأمر بقتله . لكن قيل إنه قتل بحادث تحطم طوافة .

إن العنف هو سلاح صدام حسين الرئيسي . وعندما بلغ قمة السلطة احتفل بالمناسبة بإعدام ٢١ مـن أعـضاء وزارته وبينهم واحد من أقرب أصدقائه إليه وقال عنه " كان أقربهم إليّ لكنه ابتعد عني " .

* * *

وبعد سنة دعا عددا من وزرائه وزملائه إلى سجن بغداد المركزي لكي يشكلوا فريق إعدام . وكـان ضـحايا هم من السجناء السياسيين . وكانت هذه طريقته في جعل من تحدثهم انفسهم بمعارضته يرون ما سيحل بهـم . ووصف هذا المشهد بعبارة شديدة السخرية بقول : " إن اولئك الأشد إخلاصاً هم الذين نكتشف أنهم مـذنبون " .

لم يكن صدام في الأصل جندياً . لكنه يكن للجيش إعجاباً شديداً مشوبا بالحذر فهو يريـد لـه أن يكـون قويـاً ولكن مطيعاً في الوقت ذاته . ويحب أن يظهر في زي قائد الجيش لكن الـضباط الكبـار يـشعرونه بـالنقص ويعتبرونه مدعياً . وهذا هو السبب في الاكثار من تطهير الجيش على نطاق واسع . وخلال الحـرب العراقيـة الإيرانية أشيع أنه جرى إعدام كثرة من كبار قادة الجيش . وقال بصراحة : " لم يعدم سـوى قائـدي فـرقتين وقائد وحدة ميكانيكية . وهذا أمر عادي في الحروب .

ومع هذا انبرى له أحد الضباط في اجتماع للقيادة العليا وأخذ ينتقد خطته الهجوميـة . فاسـتمع صـدام إلـى انتقاداته ثم سحب مسدسه الذي يحمله دائما في حزامه وأطلق النار على رأسه .

وفي عام ١٩٨٨ ، بعد وقف المعارك بقليل ، زج بالمئات من الضباط في السجون وتمّ إعدام العديد منهم فيمـا بعد . وفي عداد الذين اختفوا إلى الأبد بطل من أبطال الحرب هو الفريق ماهر عبد الرشيد والد زوجـة أحـد ابنائه .

من ناحية أخرى ، صدر تقرير عن حقوق الإنسان عام ١٩٩٠ يؤكد واضعوه أن " العراق أصـبح فـي ظـل حزب البعث أمة من المخبرين " . وهذا التعريف مؤلم وصحيح في الوقـت نفـسه لأن ٢٥ % مـن سـكان العراق يعملون لحساب أجهزة الأمن المختلفة . وقد تم تنظيم معظمهم وتدريبهم بواسـطة خبـراء البـوليس السري الألماني الشرقي LA STASI .

وفي حياته الخاصة ، يطلب صدام حسين على الدوام ، وبشكل دوري ، ان يعرضوا عليـه فيلمـه الـسينمائي المفضل " العراب " . كما يرتاح إلى مقارنة نفسه بملك بابل نبوخذ نصر الذي حكمها بـين ٦٠٥ و٥٦٢ قبـل الميلاد . وسبب ذلك هو ايمان سلفه هذا بالحكم بالقوة واحتلاله للقـدس وتهديمـه الهيكـل وأسـره الـشعب اليهودي.

قال نابليون إنه يبني خطط معاركه على أحلام جنوده النائمين . أما صدام حسين فيبـدو أنـه يـضع خططـه وأحلامه بفضل ترحيب الديمقراطيات الغربية وتواطئها . ففي ١٩٨٤ انفق العـراق ١٤ مليـار دولار علـى شراء الأسلحة أي ما يوازي نصف انتاجه الوطني . وبين ١٩٨٢ و ١٩٨٥ ، استورد العراق مـا يعـادل ٨ ، ٤٢ مليار دولار من الأسلحة . ولم تنخفض مشترياته بفعل وقف إطلاق النار مع إيران . وكانت بغداد خـلال

السنوات القليلة الماضية أكبر مستورد للعتاد الحربي في العالم واحتكرت لنفـسها مـا يقـارب ١٠ % مـن الأسلحة التي بيعت على وجه الأرض .

بعد أن تحالف صدام حسين مع موسكو وعقد معها معاهدة " صداقة وتعاون " فـي عـام ١٩٧٢ أخـذ يقـيم علاقات مع الأقطار الغربية لأنها هي وحدها القادرة على تزويده بما يحتاجه . فعنـدما اعتـزم فـي أواسـط السبعينات إنشاء صناعة نووية زوده الفرنسيون بالمفاعل المطلوب ضاربين عرض الحائط بمخـاطر الانتـشار النووي . ولم يخف صدام رغبته في حيازة أسلحة ذرية . (وقد أصيبت أحلامـه بنكـسة فـي ١٩٨١ عنـدما أغارت الطائرات الإسرائيلية على المفاعل النووي العراقي أوزيراك) .

وكانت لديه ترسانة ضخمة من الأسلحة الكيماوية التي استخدمها ضد القوات الإيرانية والقـرويين الأكـراد . وهنا أيضا لعبت المساعدات الغربية دورا أساسيا . وقد أعد الخبراء قائمة بأسـماء ثلاثمئـة شـركة أسـهمت بدرجات متفاوتة في تسلح العراق وخصوصا في صنع الأسلحة الكيماوية . وكانت أكثر الشركات نـشاطا فـي هذا الباب ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وبلجيكـا . بـالرغم مـن أن الولايات المتحدة كانت دائما تنفي أنها تزود العراق بالأسلحة فإن كثرة من الشركات الأميركية الخاصة باعـت مواد حربية لبغداد عبر شركات أخرى لعبت دور الوسيط .

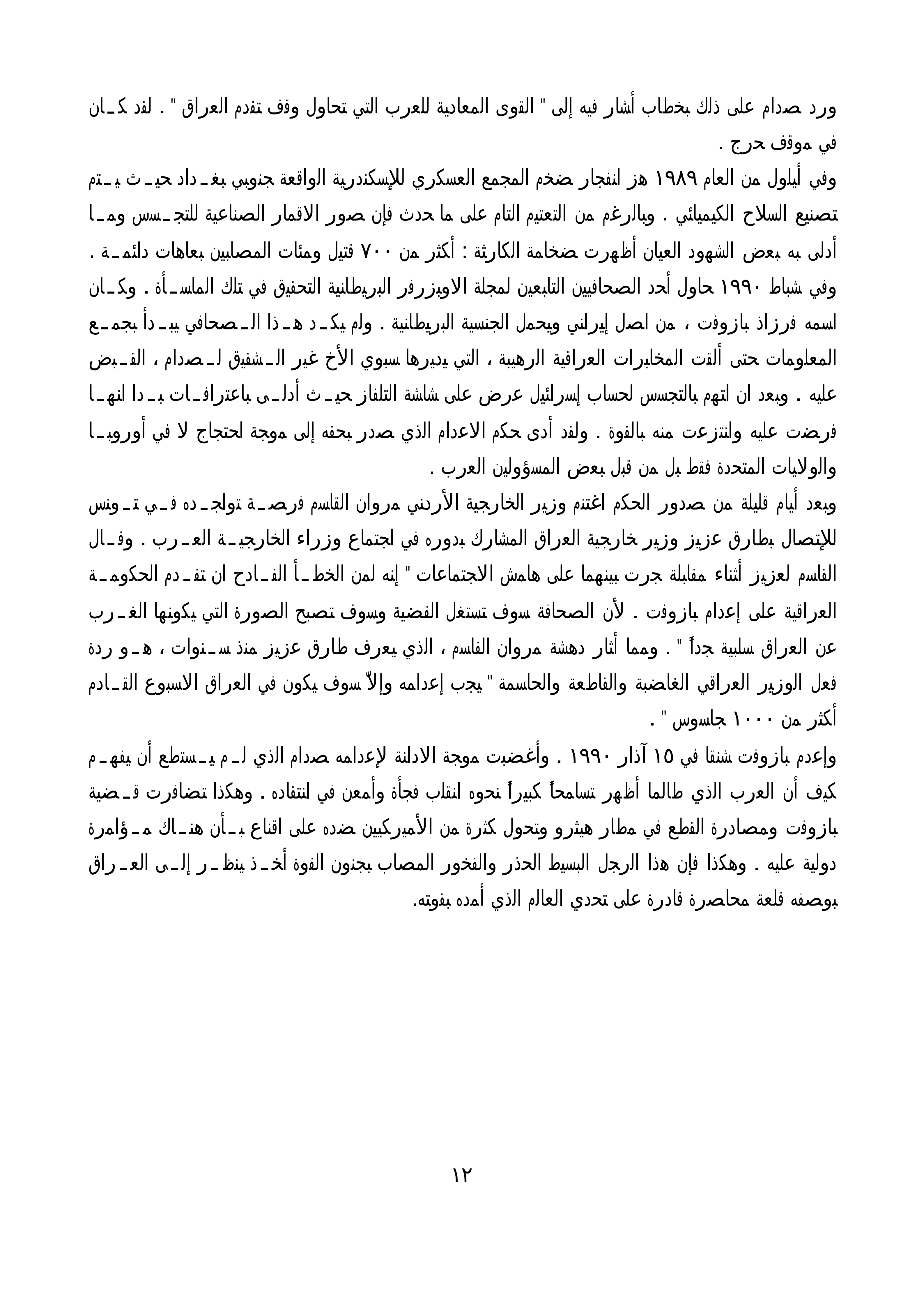
إن العملية التي كشف النقاب عنها في مطار هيثرو اللندني يوم ٢٨ آذار ١٩٩٠ اظهرات لتساع هـذه التجـارة . فقد وضعت الجمارك البريطانية عندئذ يدها على قطع كهربائية لأغـراض عـسكرية تـدخل فـي تركيـب الصاعق الخاص بالقنبلة النووية .وقد تطلبت هذه المصادرة ١٨ شهراً مـن التحقيقـات المـشتركة للأجهـزة الامنية البريطانية والجمارك الأميركية . وقد تم صنع تلك القطع في شـركة أميركيـة تقـع ضـمن ولايـة كاليفورنيا وبالتحديد في سان دييغو .

بدأت العملية عندما اتصل وسطاء يعملون لحساب العراق بهذه الشركة فسارع مدراؤها إلـى إبـلاغ أجهـزة الجمارك الأميركية التي دست أحد رجالها بين المفاوضين .

وسارت الإجراءات بشكل طبيعي جداً حتى تم نقل القطع المطلوبة إلى لندن بواسـطة طـائرة شـحن تابعـة لشركة TWA حيث بقيت لمدة أسبوعين في عنبر التخزين التابع لمنطقة مطار هيثـرو الحـرة . وعنـد نقـل البضائع إلى طائرة عراقية تدخلت الجمارك وأوقفت عملية النقل وألقت القبض على خمسة عاملين في شـركة الطيران بينهما عراقيان ولبناني وبريطانيان .

وفي سان دييغو ، فقد أدت متابعة خيوط الشبكة إلى القبض على عدد من البريطـانيين العـاملين فـي فـروع شركات بريطانية في أميركا .

وشكلت القطع المصادرة مفاجأة للسلطات . فمنذ سنة أو سنتين والتقارير تتالى عن اعتزام بغداد صنع أسـلحة نووية . فأكدت القطع المصادرة أسوأ مخاوف الخبراء وتساءلوا عما إذا كان العراق قد اقتـرب أكثـر ممـا توقعوه من صنع القنبلة .



ورد صدام على ذلك بخطاب أشار فيه إلى " القوى المعادية للعرب التي تحاول وقف تقدم العراق " . لقد كان في موقف حرج .

وفي أيلول من العام ١٩٨٩ هز انفجار ضخم المجمع العسكري للإسكندرية الواقعة جنوبي بغداد حيث يتم تصنيع السلاح الكيميائي . وبالرغم من التعتيم التام على ما حدث فإن صور الاقمار الصناعية للتجسس وما أدلى به بعض الشهود العيان أظهرت ضخامة الكارثة : أكثر من ٧٠٠ قتيل ومئات المصابين بعاهات دائمة . وفي شباط ١٩٩٠ حاول أحد الصحافيين التابعين لمجلة الاوبزرفر البريطانية التحقيق في تلك المأساة . وكان اسمه فرزاذ بازوفت ، من اصل إيراني ويحمل الجنسية البريطانية . ولم يكد هذا الصحافي يبدأ بجمع المعلومات حتى ألقت المخابرات العراقية الرهيبة ، التي يديرها سبوي الأخ غير الشقيق لصدام ، القبض عليه . وبعد ان اتهم بالتجسس لحساب إسرائيل عرض على شاشة التلفاز حيث أدلى باعترافات بدا انها فرضت عليه وانتزعت منه بالقوة . ولقد أدى حكم الاعدام الذي صدر بحقه إلى موجة احتجاج لا في أوروبا والولايات المتحدة فقط بل من قبل بعض المسؤولين العرب .

وبعد أيام قليلة من صدور الحكم اغتنم وزير الخارجية الأردني مروان القاسم فرصة تواجده في تونس للإتصال بطارق عزيز وزير خارجية العراق المشارك بدوره في اجتماع وزراء الخارجية العرب . وقال القاسم لعزيز أثناء مقابلة جرت بينهما على هامش الاجتماعات " إنه لمن الخطأ الفادح ان تقدم الحكومة العراقية على إعدام بازوفت . لأن الصحافة سوف تستغل القضية وسوف تصبح الصورة التي يكونها الغرب عن العراق سلبية جداً " . ومما أثار دهشة مروان القاسم ، الذي يعرف طارق عزيز منذ سنوات ، هو ردة فعل الوزير العراقي الغاضبة والقاطعة والحاسمة " يجب إعدامه وإلاّ سوف يكون في العراق الاسبوع القادم أكثر من ١٠٠٠ جاسوس " .

وإعدم بازوفت شنقا في ١٥ آذار ١٩٩٠ . وأغضبت موجة الادانة لإعدامه صدام الذي لم يستطع أن يفهم كيف أن العرب الذي طالما أظهر تسامحاً كبيراً نحوه انقلب فجأة وأمعن في انتقاده . وهكذا تضافرت قضية بازوفت ومصادرة القطع في مطار هيثرو وتحول كثرة من الأميركيين ضده على اقناع بأن هناك مؤامرة دولية عليه . وهكذا فإن هذا الرجل البسيط الحذر والفخور المصاب بجنون القوة أخذ ينظر إلى العراق بوصفه قلعة محاصرة قادرة على تحدي العالم الذي أمده بقوته.

الفصل الثالث

انكم تشنون حربا اقتصادية

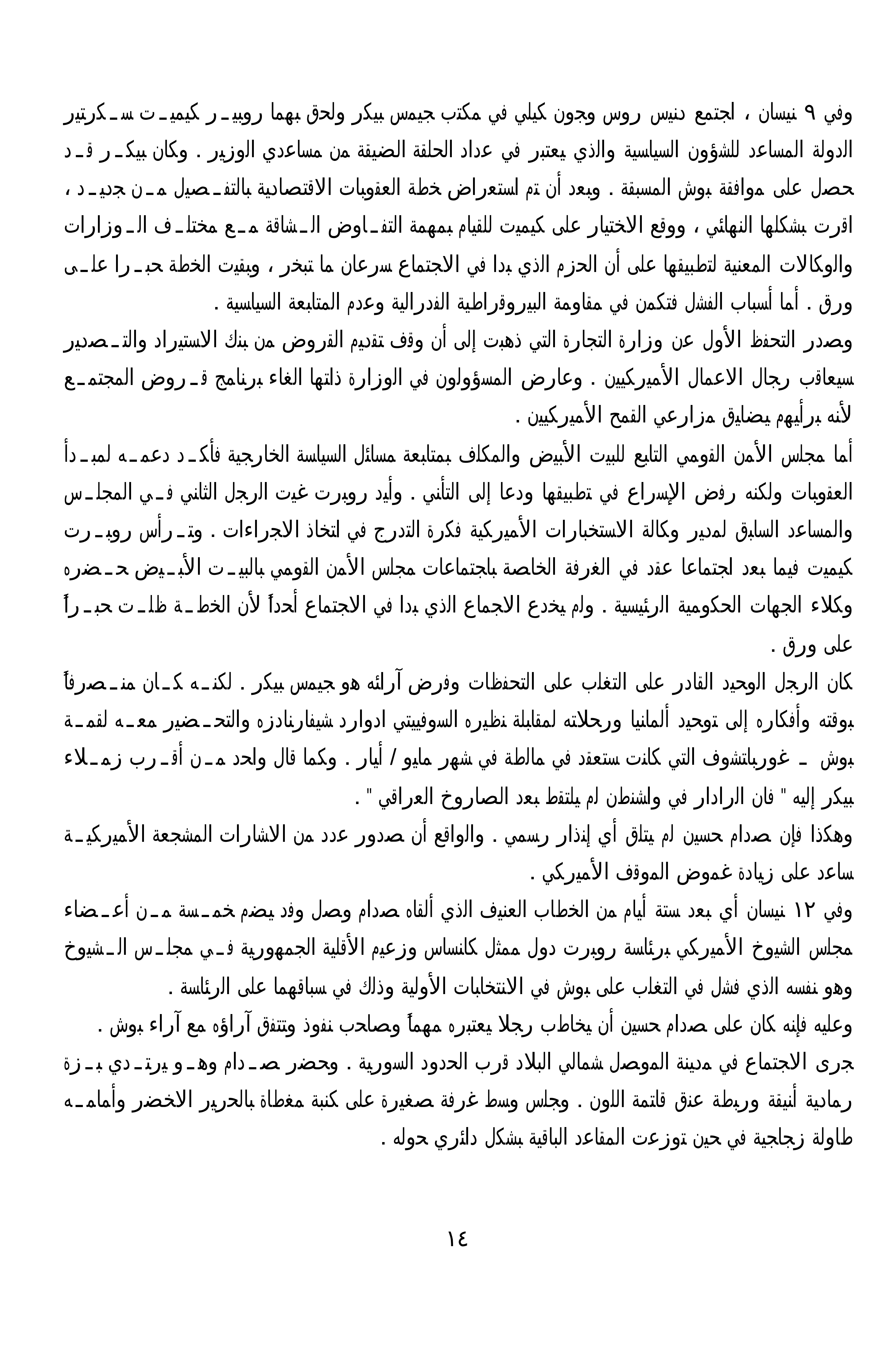
في ٢ نيسان ، القى صدام حسين أمام قيادات جيشه خطاباً تم نقله ، بكامله ، على موجات الإذاعـة العاملـة . وقد كان حاسر الرأس ، يرتدي زياً كاكيا تزينه شارات رتبة الجنرالية . واستغرق خطابه أكثـر مـن سـاعة ، إلا أن بعض الجمل التي وردت فيه أذهلت العالم باسره . فبعد أن شرح ما توصل إليـه العلمـاء والبـاحثون العراقيون في مجال انتاج الأسلحة الكيمائية اضاف : " وا ، إذا حاولت إسرائيل القيام بشيء ضـد العـراق سوف نعمل على جعل النار تلتهم نصفها ... إن الذين يهددوننا بالقنبلـة النوويـة سـوف يبـادون بالأسـلحة الكيماوية . "

ووصلت هذه الكلمات إلى مكتب جون كيلي في اليوم نفسه . فقام سكرتير الدولة المـساعد لـشؤون الـشرق الأوسط بقراءتها أكثر من مرة . وفي كل مرة كان يتملكه شعور بالذهول لقساوة لهجة الخطاب وعنفها . فمـا كان من هذا الرجل الذي أغدق الثناء على الرئيس العراقي قبل شهرين إلا أن انتقل في الحـال إلـى مكتـب دنيس روس الواقع في أحد الطوابق العليا من بناء وزارة الخارجية . وكان روس يحتل منصب مـدير مكتـب التخطيط السياسي ومن أقرب المساعدين لوزير الخارجية جيمس بايكر .

رأى كيلي وجوب القيام برد فوري ومباشر يؤكد رفض الولايات المتحدة السماح بتهديدات من هـذا النـوع . وكان جون كيلي يتقلب بين الصلابة واللين أشبه بالدكتور جيكل والمستر هايد بالنسبة للعراق .

وسرعان ما توصل روس وكيلي إلى خطة للعقوبات وذهبا إلى مكتب جيمس بيكر في الـدور الـسابع . ولـم ينتظرا في الغرفة الخارجية ذات الجدران المكسوة بالواح خشبية داكنة سوى بضع دقائق ، دخلا بعـدها علـى جيمس بيكر وقالا له : " ينبغي علينا أن نرسل إشارة لا غموض فيها وخصوصا فيما يتعلق باتخاذ عـدد مـن الاجراءات في الميدان الاقتصادي . " فما كان من بيكر الذي أزعجته لهجة صدام العدوانية إلا أن وافق علـى اقتراحهما الذي استهدف ثلاثة أمور بوجه خاص وهي رفض مـنح العـراق قروضـا مـن بنـك التـصدير والاستيراد ، والغاء " برنامج قروض المجتمع " وأخيرا اتخاذ إجراء لمنع النظام العراقي من استيراد " مـواد يمكن استخدامها للأغراض العسكرية " .

وبينما كان الخبراء يعملون على اعداد الصيغة النهائية للخطة قام بوش بالتعبير عن رأيه في تهديـدات صـدام حسين وهو على متن طائرة البوينغ الرئاسية التابعة للقوات الجوية وذلك في طريقه إلى اتلانتـا وانـديانابوليس . على أن الكلمات التي استخدمها كانت مبهمة تعكس ارتباكه وعدم اعتباره العراق بـين أولوياتـه . قـال : " أعتقد أن تصريحات (صدام) سيئة جداً . وسوف أطاب في الحال وبإلحاح من العراق التخلي عـن اسـتخدام الأسلحة الكيمياوية لأنها لا تساعد الشرق الأوسط وأمن العراق واقول أكثر من ذلك إنـه يـؤدي إلـى نتـائج معاكسة ، واقترح صرف النظر عن كل ما قيل في استخدام الأسلحة الكيمائية أو البيولوجية " .



وفي ٩ نيسان ، اجتمع دنيس روس وجون كيلي في مكتب جيمس بيكر ولحق بهما روبير كيميت سكرتير الدولة المساعد للشؤون السياسية والذي يعتبر في عداد الحلقة الضيقة من مساعدي الوزير . وكان بيكر قد حصل على موافقة بوش المسبقة . وبعد أن تم استعراض خطة العقوبات الاقتصادية بالتفصيل من جديد ، اقرت بشكلها النهائي ، ووقع الاختيار على كيميت للقيام بمهمة التفاوض الشاقة مع مختلف الوزارات والوكالات المعنية لتطبيقها على أن الحزم الذي بدا في الاجتماع سرعان ما تبخر ، وبقيت الخطة حبرا على ورق . أما أسباب الفشل فتكمن في مقاومة البيروقراطية الفدرالية وعدم المتابعة السياسية .

وصدر التحفظ الأول عن وزارة التجارة التي ذهبت إلى أن وقف تقديم القروض من بنك الاستيراد والتصدير سيعاقب رجال الاعمال الأميركيين . وعارض المسؤولون في الوزارة ذاتها الغاء برنامج قروض المجتمع لأنه برأيهم يضايق مزارعي القمح الأميركيين .

أما مجلس الأمن القومي التابع للبيت الأبيض والمكلف بمتابعة مسائل السياسة الخارجية فأكد دعمه لمبدأ العقوبات ولكنه رفض الإسراع في تطبيقها ودعا إلى التأني . وأيد روبرت غيت الرجل الثاني في المجلس والمساعد السابق لمدير وكالة الاستخبارات الأميركية فكرة التدرج في اتخاذ الاجراءات . وترأس روبرت كيميت فيما بعد اجتماعا عقد في الغرفة الخاصة باجتماعات مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض حضره وكلاء الجهات الحكومية الرئيسية . ولم يخدع الاجماع الذي بدا في الاجتماع أحداً لأن الخطة ظلت حبراً على ورق .

كان الرجل الوحيد القادر على التغلب على التحفظات وفرض آرائه هو جيمس بيكر . لكنه كان منصرفاً بوقته وأفكاره إلى توحيد ألمانيا ورحلاته لمقابلة نظيره السوفييتي ادوارد شيفارنادزه والتحضير معه لقمة بوش - غورباتشوف التي كانت ستعقد في مالطة في شهر مايو / أيار . وكما قال واحد من أقرب زملاء بيكر إليه " فان الرادار في واشنطن لم يلتقط بعد الصاروخ العراقي " .

وهكذا فإن صدام حسين لم يتلق أي إنذار رسمي . والواقع أن صدور عدد من الاشارات المشجعة الأميركية ساعد على زيادة غموض الموقف الأميركي .

وفي ١٢ نيسان أي بعد ستة أيام من الخطاب العنيف الذي ألقاه صدام وصل وفد يضم خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي برئاسة روبرت دول ممثل كانساس وزعيم الأقلية الجمهورية في مجلس الشيوخ وهو نفسه الذي فشل في التغلب على بوش في الانتخابات الأولية وذلك في سباقهما على الرئاسة .

وعليه فإنه كان على صدام حسين أن يخاطب رجلا يعتبره مهماً وصاحب نفوذ وتتفق آراؤه مع آراء بوش .

جرى الاجتماع في مدينة الموصل شمالي البلاد قرب الحدود السورية . وحضر صدام وهو يرتدي بزة رمادية أنيقة وربطة عنق قاتمة اللون . وجلس وسط غرفة صغيرة على كنبة مغطاة بالحرير الاخضر وأمامه طاولة زجاجية في حين توزعت المقاعد الباقية بشكل دائري حوله .

بدأ مترجم بقراءة رسالة جلبها الشيوخ وتقول : " إننا جئنا لأننا نؤمن بدور العـراق الأساسـي فـي الـشرق الأوسط ، فإن سعيكم إلى الأسلحة الكيماوية والبيولوجية لا بد وان يعرض بلادكم لمخاطر جمـة بـدل تـأمين الحماية له . إن مبادرات كهذه تهدد أيضا بلادنا أخرى وتثير اضطرابات خطيرة في الشرق الأوسـط . ثـم إن تصريحاتكم الأخيرة التي تهدد باستخدام السلاح الكيماوي ضد إسرائيل ، أحدثت دويا فـي العـالم أجمـع . . ومن الاجدي بالنسبة لكم وللسلام في الشرق الأوسط ان تعيدوا النظر فـي مثـل هـذه المـشاريع الخطـرة والتصريحات والمواقف التي تستفز الآخرين ."

استمع صدام إلى الرسالة بدون أي انفعال ظاهر . وعند الانتهاء من قراءتها هز رأسه والتفت إلى دول الـذي كان يجلس على يمينه وقال بهدوء : " إنني أدرك أن هناك حملـة واسـعة علينـا تـشنها الولايـات المتحـدة وأوروبا. "

كان دول رجلا صلبا في الستين من عمره . قال : " إن بوش ليس مصدر هذه الحملة . وقد قال لنـا البارحـة إنه ضدها . " وأعاد دول إلى الذاكرة موقف الولايات المتحدة الذي أدان إسرائيل عام ١٩٨٠ على أثر الهجـوم الجوي الذي شنته على المفاعل النووي العراقي . هنا قاطعه صدام حسين وقال : " لقـد أدنتموهـا ، ولكننـي اطلعت على تقارير عديدة تفيد ان الولايات المتحدة كانت على معرفة مسبقة بالهجوم " .

وتدخل السيناتور الجمهوري لولاية وايومنغ ، آلان سمبسون وقال : " ان مشكلتكم ليـست مـع الحكومـة أو الشعب الأميركي وإنما مع صحافتنا المتعجرفة التي يصعب إرضاؤها " .

وانتقل دول في حديثه إلى البرنامج المعادي للعراق الذي بثته إذاعة صوت أميركا في فبراير ، وقدم اعتـذاره وبلغ صدام ان المسؤول عن البرنامج قد طرد من وظيفته . وختم حديثه بقوله : " اسمح لي أن أذكر أنـه منـذ ١٢ ساعة فقط أبلغني الرئيس بوش أن حكومته تأمل في تحسين العلاقات مع العراق وأنـه سـوف يعـارض فرض عقوبات على العراق . وإذا لزم فإنه الأمر سوف يستخدم الفيتو ضد أي قرار مثل هذا ما لم يحـدث أي عمل استفزازي " .

وهنا تدخلت السفيرة ابريل غلاسبي التي لزمت الصمت طوال الوقت وختمـت الاجتمـاع بقولهـا : " إننـي كسفيرة أستطيع أن أؤكد يا سيدي الرئيس أن هذه في الحقيقة هي سياسة الولايات المتحدة".

على أنه كانت هناك دوافع انتخابية وراء لهجة المصالحة التي سادت الاجتماع . فأعضاء الوفد كـانوا يمثلـون ولايات أميركية زراعية . فروبرت دول يمثل ولاية كنساس التي تصدّر كميات كبيرة من القمح إلى العـراق . وعلى هذا الاساس تصدرت المصالح التجارية لائحة الاسباب الداعية للاعتدال الأميركي . فالولايات المتحـدة الأميركية تبيع بغداد بما يقارب المليار دولار سنويا من القمح والدواجن والذرة . ومنـذ ١٩٨٣ تـم تمويـل غالبية المشتريات بواسطة قروض بلغت ٥ مليارات دولار بضمانة الحكومة الأميركية .

ولخص ممثل كانساس الوضع بجملة واحدة فقال: " نحن نلبي حاجة العراق من الغذاء بأسعار مدعومة " .

ولم يكن لدى أحد رغبة في إفساد تبادل للمنافع من هذا النوع . وعندما استقبل بوش ، في البيت الأبيض ، الوفد العائد من العراق أصغى بعناية شديدة إلى آراء روبرت دول التي يسودها الاعتدال والتفاؤل وسمع منه كلاما عن صدام حسين يصفه بالقائد الذي يمكن للولايات المتحدة أن تؤثر عليه .

وحضر الاجتماع رئيس مجلس الأمن القومي الجنرال برنت سكوكروفت . وكان هذا العسكري الدقيق الملامح والطويل القامة قد تدرج في كواليس السلطة العليا منذ سنوات طويلة . فكانت بداية عمله في البيت الأبيض في عهد نيكسون كمساعد لهنري كيسنجر . وإذ كان هذا العسكري المحترف يميل دائما إلى وزن الأمور والمحافظة على اتزانه فإنه أيد موقف دول الداعي إلى اعتبار العراق وزعيمه دعامتين أساسيتين لاستقرار الشرق الأوسط .

وكمؤشر على هذا الاعتدال انتهز بوش فرص انتهاء شهر رمضان ووجه (في ٢٥ نيسان) رسالة ودية لصدام حسين عبر فيها عن أمله " في أن تسهم الروابط بين الولايات المتحدة والعراق في السلام والاستقرار في الشرق الأوسط " .

وبعد وقت قصير أدلى جون كيلي بشهادة أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ استخدم فيها اسلوباً مختلفا تماما عن الأسلوب العنيف الذي استخدمه في ٢ نيسان للرد على تهديدات صدام حسين . قال :

" لا تزال الادارة الأميركية تعارض فرض العقوبات التي توقع على المصدرين الأميركيين وتزيد العجز في الميزان التجاري سوءاً . ثم إنني لا أرى كيف يمكن للعقوبات أن تقوي امكان ممارسة نفوذ مهدئ على أعمال العراق " .

إن هذه الكلمات التي صدرت عن المسؤول عن الشرق الأوسط عكست الموقف الرسمي لوزارة الخارجية الذي يمكن تلخيصه بالعبارة التالية وهي أنه ليس مطروحا في الوقت الراهن اتخاذ إجراءات اكثر صلابة ضد العراق . وكان جيمس بيكر نفسه قد تحول إلى هذا الاتجاه . فبينما كان في موسكو التقى بالرئيس المصري الذي كان يقوم بزيارة رسمية ، وناقش معه تهديدات العراق . فأشار الرئيس المصري إلى أن التهدئة أفضل وسيلة لنزع فتيل حركات الزعيم العراقي الاستفزازية .

وفي بداية أيار وصلت إلى واشنطن اشارتان تنذران بالخطر . لكن لم يكن أحد من المسؤولين بوزارة الخارجية لأخذهما بعين الاعتبار .

وجاءت الأولى مفاجأة للبيت الأبيض . وكانت عبارة عن رسالة تلقاها من وكالة المخابرات المركزية تقول فيها إن بحوزتها معلومات عن " هجوم عراقي محتمل على الكويت " وكان البيت الأبيض قد تلقى إشارة إلى احتمال وقوع الهجوم ولكن على إسرائيل . وبالرغم مما أثارته معلومات الوكالة من تشاؤم شديد ، فقد بقي الموقف الرسمي كما هو .

وفي هذه الأثناء وصل وفد من الخبراء العسكريين والسياسيين الإسرائيليين إلى واشنطن . وكان في جعبته تحليل قاتم للوضع يقول بأن طبيعة النظام العراقي المعتدلة والإصلاحية الظاهرة ليست سوى ستار من

الدخان . ويضيف بأن صدام حسين دأب منذ شهر فبراير على اتخاذ مواقف متـصلبة : إذ طالـب بانـسحاب السفن الأميركية ، وحث العرب مرة أخرى على استخدام النفط كسلاح سياسي ؛ ولم يكتف بالتهديد بمهاجمـة إسرائيل حليفة الولايات المتحدة ، بل تحدث عن احتمال استخدام الأسلحة الكيماوية . وختموا تحلـيلهم بقـولهم إن إنهماكه في بناء آلته العسكرية على نطاق واسع دليل آخر على غرائزه العدوانية .

ومن الواضح أنه كانت لدى الوفد الإسرائيلي معلومات نقلوها في ١٥ نيسان للسفير الأميركي فـي إسـرائيل وليم أ . براون وذلك على مائدة غداء في عيد الفصح . وكان بين الحضور شيمون بيريز زعيم حزب العمـل والجنرال ايهود باراك نائب رئيس أركان القوات الإسرائيلية . وبينما كانوا يتحدثون عن تهديد صـدام حـسين بشن هجمات على إسرائيل بالأسلحة الكيماوية إذا هاجمت إسرائيل العراق قال باراك :

" إن صدام حسين يحاول خدام العالم . فخطته ليست الهجوم على إسرائيل .

عليكم أن تحولوا أنظاركم إلى ما هو جنوب العراق . فالحقيقة هي أن أنظاره مشدودة إليه " .

وواضح أن باراك كان يشير إلى الكويت والإمارات .

لم ينجح الإسرائيليون في جعل الآخرين يشاطرونهم قلقهم . فبعض الذين استمعوا إليهم فـسروا التـصريحات العراقية بأنها تعبير عن الخوف من غارة إسرائيلية جديدة على مصانع الأسلحة الكيماويـة . وشـدد الـبعض الآخر على رغبة صدام في تكريس زعامته للعالم العربي .

لقد غشي واشنطن عمى غريب . فقد اعتبر صدام حسين ضيق الأفق في نظرته إلى العالم . فلم يكـن يعـرف لغة أخرى غير العربية ، ولم يكن قد قام إلا بزيارة واحدة إلى الغرب . وكان ذلك فـي عـام ١٩٧٥ عنـدما ذهب إلى فرنسا لمفاوضة جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسي على شراء مفاعل نووي . ولم يكـن يعـرف شيئاً عن الولايات المتحدة . وحدث مرة خلال حديثه مع زائر غربي أنه فوجيء عندما علم مـن هـذا الزائـر ان الانتقاد البسيط للرئيس الأميركي لا يعد انتهاكاً خطيرا للقانون كما هو الحال في العراق حيث قـد يعاقـب بالإعدام .

لم يكن في واشنطن من يدرك أن ضيق أفق صدام حسين فيما يتعلق بنظرته إلى العالم هو الذي يجعله خطـراً . فقد كان يتصرف مع العالم كما يتصرف في العراق ذاته متجاهلاً القواعد والقيود التـي تحكـم العلاقـات الدولية .

وسبق أن كان لصدام مراقب رائع في واشنطن هو السفير نزار حمدون الذي امضى سنوات طويلـة هنـاك . وكان حمدون دبلوماسياً محترما له صلات بكثرة من كبار المسؤولين الأميركيين . فبعد بداية الأزمـة بـشهر وصفته جريدة " وول ستريت جورنال " بأنه " افضل سفير لجنبي عرفته الولايات المتحدة . إلا أنـه اسـتدعى إلى بغداد في عام ١٩٨٧ ليصبح نائباً لوزير الخارجية . ولم يكن لخلفه صلاته وحيويته .

ولا بد أنه اتضح لصدام حسين من تبادل الآراء مع المسؤولين مثل روبـرت دول ومـن مواقـف واشـنطن المتناقضة أن الزعامة الأميركية غير حازمة وتميل إلى تسوية الأمور ، الأمر الذي كانت له نتائج خطيرة .

وفي ٢١ أيار حصلت حادثة عملت على ازدياد شدة التوتر . ذلك أن أحد الإسرائيليين قتل سبعة من الفلسطينيين العزل . وبالرغم من أن الحكومة الإسرائيلية بادرت إلى إدانتها فإن القلاقل عمت الأراضي المحتلة . فالانتفاضة التي كانت تتربص بالإسرائيليين انفجرت بعنف لا مثيل له . ولم يكن من الممكن أن تقع هذه المأساة في وقت أسوأ من الوقت الذي وقعت فيه . فقد وقعت قبل اسبوع فقط من انعقاد مؤتمر القمة العربية في بغداد لشجب تدفق اليهود السوفييت على إسرائيل بأعداد كبيرة . وفي اعقاب المجزرة استخدمت الولايات المتحدة الفيتو ضد اقتراح قدمته منظمة التحرير الفلسطينية لهيئة الأمم المتحدة لإرسال مراقبين دوليين إلى الأراضي المحتلة . وأدى هذا إلى انفجار الغضب على أميركا في العالم العربي . وشهد الأردن مظاهرات دموية .

وفي ٢٤ أيار بدا الملك حسين في حفل استقبال أُقيم في حدائق قصره الرائعة في غاية القلق بالرغم من انه طاف على المدعوين وشاركهم الحديث ورحب بكل فرد منهم . وكان يتصرف بإباء ولباقة وكأن ما يجري في المنطقة لا يستطيع النيل من حكمه . لكن هذا لم يخدع أحداً فخلال الحفل ذاته كشف هو نفسه عن مدى تأثره بالأحداث قال : " اعتزم أن أطالب في مؤتمر القمة القادم ببغداد بمساعدة مالية ليس لي فقط ، بل ولمنظمة التحرير . " وكان صدام قد قال له : " اترك الأمر لي . سوف أجبرهم على الدفع " .

* * *

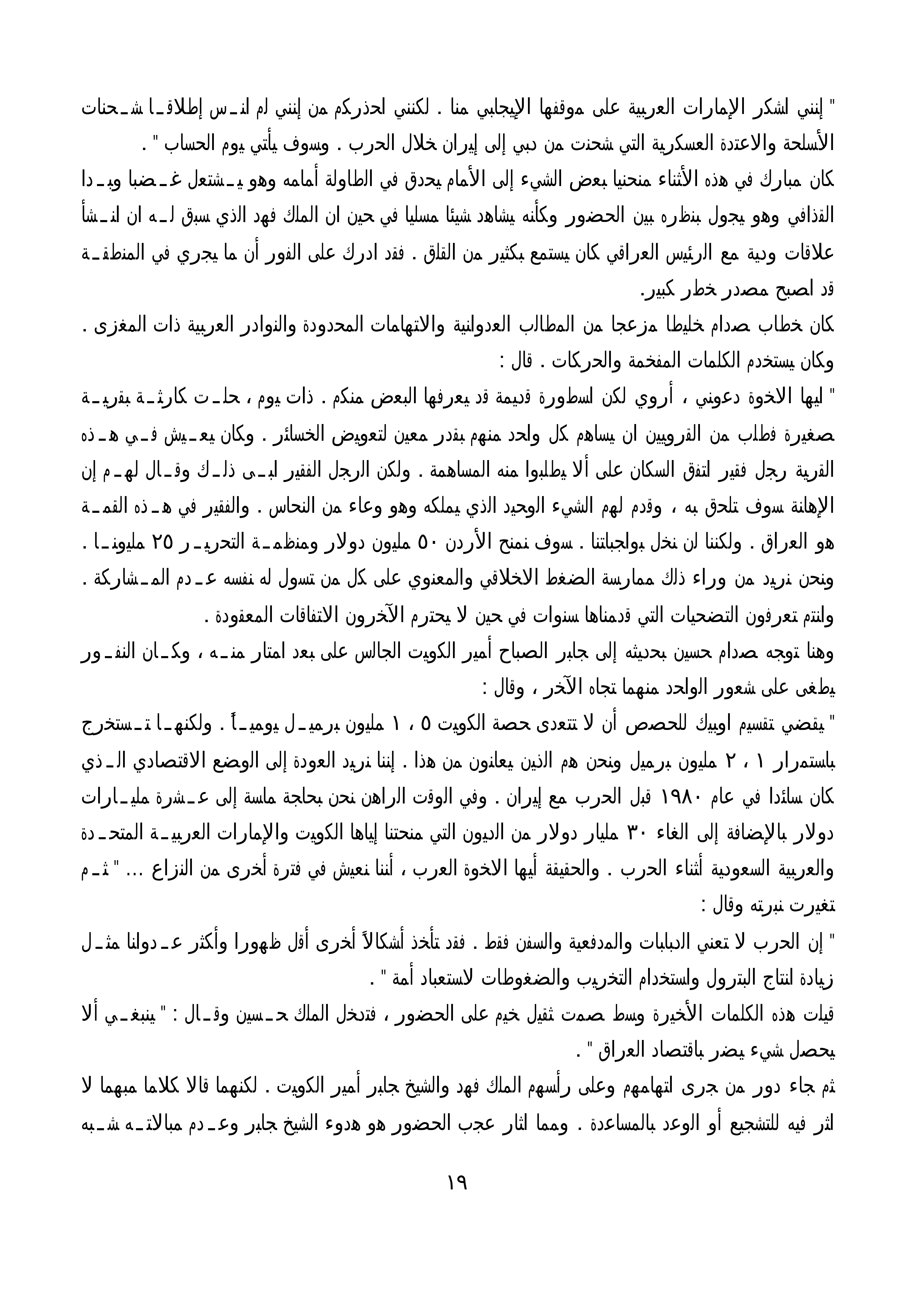
وفي صباح ٢٨ أيار التقى الملوك والرؤساء العرب الممثلون لاحدى وعشرين دولة وهم لا يعرفون ما خبّئ لهم . فما كانوا يعرفونه هو أنهم يجتمعون لشجب تدفق اليهود السوفييت وتأييد تهديد صدام حسين . فمنذ عهد جمال عبد الناصر لم يُظهر زعيم عربي بأنه قادر على نشر الرعب في الدولة اليهودية .

على أن الاجتماع أخذ منحى مقلقا عند نهاية جلسة الافتتاح عندما فاجأ صدام حسين الحضور باقتراح عقد جلسة مغلقة . وحاول الملك فهد معارضة الاقتراح لكنه لم ينجح فاضطر إلى القبول . وطالب صدام أن يقتصر الاجتماع المغلق على الرؤساء والملوك وحدهم دون أعضاء وفودهم لأنه - كما قال صدام - لا داعي لسماعهم ما سيقال .

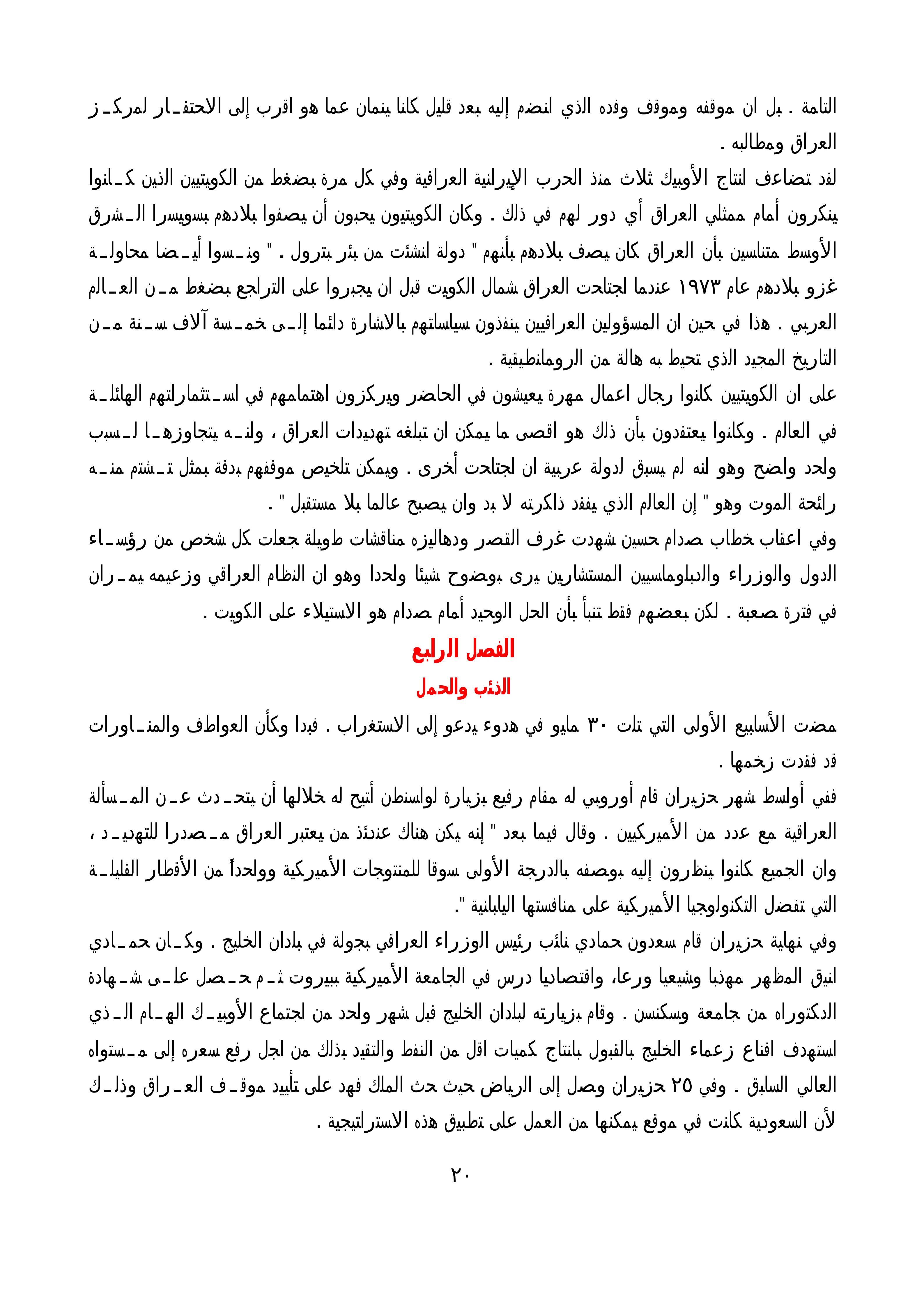
وتحدث صدام بكلمات بليغة موزونة لكي يثبت حجته . وبالرغم من أن موضوع القمة كان هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل فقد أصبح من الواضح أن الموضوع الذي أخذ يتحدث عنه هو دول الخليج . قال :

" إنهم يستخرجون كميات هائلة من البترول مما يساعد على الابقاء على أسعارها المنخفضة . وكلما انخفض سعر البرميل دولاراً واحداً ، يخسر العراق بليون دولار في السنة . فأنتم في الواقع تشنون حربا اقتصادية على بلادي " .

وسيطر الذهول على الحاضرين . وكان أول من تصدى للدفاع الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات الذي كان يرتدي عباءة بيضاء موشاة بأسلاك الذهب ، لكنه لم يكن خطيبا موفقا . فأجابه صدام بقوله:



" إنني اشكر الإمارات العربية على موقفها الإيجابي منا . لكنني احذركم من إنني لم انـس إطلاقـا شـحنات الأسلحة والاعتدة العسكرية التي شحنت من دبي إلى إيران خلال الحرب . وسوف يأتي يوم الحساب " .
كان مبارك في هذه الأثناء منحنيا بعض الشيء إلى الأمام يحدق في الطاولة أمامه وهو يـشتعل غـضبا وبـدا القذافي وهو يجول بنظره بين الحضور وكأنه يشاهد شيئا مسليا في حين ان الملك فهد الذي سبق لـه ان انـشأ علاقات ودية مع الرئيس العراقي كان يستمع بكثير من القلق . فقد ادرك على الفور أن ما يجري في المنطقـة قد اصبح مصدر خطر كبير.
كان خطاب صدام خليطا مزعجا من المطالب العدوانية والاتهامات المحدودة والنوادر العربية ذات المغزى . وكان يستخدم الكلمات المفخمة والحركات . قال :
" ايها الاخوة دعوني ، أروي لكن اسطورة قديمة قد يعرفها البعض منكم . ذات يوم ، حلـت كارثـة بقريـة صغيرة فطلب من القرويين ان يساهم كل واحد منهم بقدر معين لتعويض الخسائر . وكان يعـيش فـي هـذه القرية رجل فقير اتفق السكان على ألا يطلبوا منه المساهمة . ولكن الرجل الفقير ابـى ذلـك وقـال لهـم إن الإهانة سوف تلحق به ، وقدم لهم الشيء الوحيد الذي يملكه وهو وعاء من النحاس . والفقير في هـذه القمـة هو العراق . ولكننا لن نخل بواجباتنا . سوف نمنح الأردن ٥٠ مليون دولار ومنظمـة التحريـر ٢٥ مليونـا . ونحن نريد من وراء ذلك ممارسة الضغط الاخلاقي والمعنوي على كل من تسول له نفسه عـدم المـشاركة . وانتم تعرفون التضحيات التي قدمناها سنوات في حين لا يحترم الآخرون الاتفاقات المعقودة .
وهنا توجه صدام حسين بحديثه إلى جابر الصباح أمير الكويت الجالس على بعد امتار منـه ، وكـان النفـور يطغى على شعور الواحد منهما تجاه الآخر ، وقال :
" يقضي تقسيم اوبيك للحصص أن لا تتعدى حصة الكويت ٥ ، ١ مليون برميـل يوميـاً . ولكنهـا تـستخرج باستمرار ١ ، ٢ مليون برميل ونحن هم الذين يعانون من هذا . إننا نريد العودة إلى الوضع الاقتصادي الـذي كان سائدا في عام ١٩٨٠ قبل الحرب مع إيران . وفي الوقت الراهن نحن بحاجة ماسة إلى عـشرة مليـارات دولار بالإضافة إلى الغاء ٣٠ مليار دولار من الديون التي منحتنا إياها الكويت والإمارات العربيـة المتحـدة والعربية السعودية أثناء الحرب . والحقيقة أيها الاخوة العرب ، أننا نعيش في فترة أخرى من النزاع ... " ثـم تغيرت نبرته وقال :
" إن الحرب لا تعني الدبابات والمدفعية والسفن فقط . فقد تأخذ أشكالاً أخرى أقل ظهورا وأكثر عـدوانا مثـل زيادة انتاج البترول واستخدام التخريب والضغوطات لاستعباد أمة " .
قيلت هذه الكلمات الأخيرة وسط صمت ثقيل خيم على الحضور ، فتدخل الملك حـسين وقـال : " ينبغـي ألا يحصل شيء يضر باقتصاد العراق " .
ثم جاء دور من جرى اتهامهم وعلى رأسهم الملك فهد والشيخ جابر أمير الكويت . لكنهما قالا كلاما مبهما لا اثر فيه للتشجيع أو الوعد بالمساعدة . ومما اثار عجب الحضور هو هدوء الشيخ جابر وعـدم مبالاتـه شـبه



التامة . بل ان موقفه وموقف وفده الذي انضم إليه بعد قليل كانا ينمان عما هو اقرب إلى الاحتقار لمركز العراق ومطالبه .

لقد تضاعف انتاج الأوبيك ثلاث منذ الحرب الإيرانية العراقية وفي كل مرة بضغط من الكويتيين الذين كانوا ينكرون أمام ممثلي العراق أي دور لهم في ذلك . وكان الكويتيون يحبون أن يصفوا بلادهم بسويسرا الشرق الأوسط متناسين بأن العراق كان يصف بلادهم بأنهم " دولة انشئت من بئر بترول . " ونسوا أيضا محاولة غزو بلادهم عام ١٩٧٣ عندما اجتاحت العراق شمال الكويت قبل ان يجبروا على التراجع بضغط من العالم العربي . هذا في حين ان المسؤولين العراقيين ينفذون سياساتهم بالاشارة دائما إلى خمسة آلاف سنة من التاريخ المجيد الذي تحيط به هالة من الرومانطيقية .

على ان الكويتيين كانوا رجال اعمال مهرة يعيشون في الحاضر ويركزون اهتمامهم في استثماراتهم الهائلة في العالم . وكانوا يعتقدون بأن ذلك هو اقصى ما يمكن ان تبلغه تهديدات العراق ، وانه يتجاوزها لسبب واحد واضح وهو انه لم يسبق لدولة عربية ان اجتاحت أخرى . ويمكن تلخيص موقفهم بدقة بمثل تشتم منه رائحة الموت وهو " إن العالم الذي يفقد ذاكرته لا بد وان يصبح عالما بلا مستقبل " .

وفي اعقاب خطاب صدام حسين شهدت غرف القصر ودهاليزه مناقشات طويلة جعلت كل شخص من رؤساء الدول والوزراء والدبلوماسيين المستشارين يرى بوضوح شيئا واحدا وهو ان النظام العراقي وزعيمه يمران في فترة صعبة . لكن بعضهم فقط تنبأ بأن الحل الوحيد أمام صدام هو الاستيلاء على الكويت .

الفصل الرابع

الذئب والحمل

مضت الأسابيع الأولى التي تلت ٣٠ مايو في هدوء يدعو إلى الاستغراب . فبدا وكأن العواطف والمناورات قد فقدت زخمها .

ففي أواسط شهر حزيران قام أوروبي له مقام رفيع بزيارة لواسنطن أتيح له خلالها أن يتحدث عن المسألة العراقية مع عدد من الأميركيين . وقال فيما بعد " إنه يكن هناك عندئذ من يعتبر العراق مصدرا للتهديد ، وان الجميع كانوا ينظرون إليه بوصفه بالدرجة الأولى سوقا للمنتوجات الأميركية وواحداً من الأقطار القليلة التي تفضل التكنولوجيا الأميركية على منافستها اليابانية ".

وفي نهاية حزيران قام سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء العراقي بجولة في بلدان الخليج . وكان حمادي انيق المظهر مهذبا وشيعيا ورعا، واقتصاديا درس في الجامعة الأميركية ببيروت ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة وسكنسن . وقام بزيارته لبلدان الخليج قبل شهر واحد من اجتماع الأوبيك الهام الذي استهدف اقناع زعماء الخليج بالقبول بانتاج كميات اقل من النفط والتقيد بذلك من اجل رفع سعره إلى مستواه العالي السابق . وفي ٢٥ حزيران وصل إلى الرياض حيث حث الملك فهد على تأييد موقف العراق وذلك لأن السعودية كانت في موقع يمكنها من العمل على تطبيق هذه الاستراتيجية .

وكان ابن سعود ، مؤسس المملكة العربية السعودية قد اعترف في عام ١٩٣٠ أنه " فقير إلى حد لا يملك معـه حجرا يركن رأسه إليه . وبعد ذلك بسنتين كان المورد الوحيد للمملكة التي أسسها بتوحيد القبائل البدويـة هـي رسوم الحج . وكانت هذه تنخفض في بعض السنوات بشكل يجر الدولة إلى حافة الافلاس . ودفعتـه الحاجـة الملحة إلى مناشدة شركات النفط الكبرى وأكثرها بريطانية لاستغلال نفط بلاده وقال لرجل أعمال بريطـاني : " سوف أمنحهم كل الامتيازات التي يريدونها مقابل مليون دولار . " وبالرغم من أن هذا المبلـغ كـان قلـيلا لدرجة لا تصدق فإن مناشدته لم تجتذب أحداً . فقد كان البترول متوافراً بكميات كبيرة وخصوصا من شـركة النفط العراقية ، مما دفع شركات النفط الكبرى إلى الاتفاق على شيء واحد وهو أنه لا بـد مـن إبقـاء نفـط السعودية في الأرض إذا أريد تجنب زيادة الفائض من النفط . وعليه فإنه لم يكن في شـبه الجزيـرة العربيـة شيء سياسي أو اقتصادي يثير الاهتمام .

وفي غضون خمسين سنة دار الزمن دورته وأصبحت السعودية قطباً بتروليا يستطيع بموارده الـضخمة انتـاج من ثمانية إلى عشرة ملايين برميل في اليوم . ولم يعد من الممكن اتخاذ أي قرار بـشأن الـسياسة البتروليـة بدون السعودية . على أن الملك فهد ليس بالشخص الذي يتخذ قرارات سـريعة أو جذريـة . فمملكتـه مليئـة بأصحاب الثروات الخاصة التي تبلغ ١٥٠ بليون دولار كسبوها بسهولة وسـرعة تنعكـسان فـي الـسياسات السعودية الإقليمية التي يشوبها الحذر وأحيانا التردد .

والملك فهد كغالبية افراد الأسرة الملكية يعتبر الكويتيين شعبا متغطرسا ينتهز كل فرصة للادعاء بأنـه أقـدر على التكيف من جيرانه السعوديين وأكثر تأثرا بالحياة الحديثة . وفي حين أن الـسعوديين كـانوا منـذ انـشاء بلادهم يعتبرونها مسجدا كبيرا ويتجهون بأنظارهم إلى مكة فإن الكويتيين ركزوا أنظارهم في الغرب . وعليـه فإن علائم القلق في الكويت لم تكن تزعج الملك فهد ، لكنه كان يعلم أن تهديدات صدام حسين قد تـسقط فـي النهاية جميع الملكيات في المنطقة .

استقبل الملك فهد المبعوث العراقي سعدون حمادي في قصره واجتمع به مدة طويلة واسـتمع إلـى مطالبـه بانتباه . وانفرجت شفتا الملك البدين ذي اللحية القصيرة والعينين المتعبتين (كعيون غالبية أفراد أسـرته الـذين يعانون من مرض وراثي) عن ابتسامة لطيفة وحبذ فكرة دعوة الأوبيك إلى اجتمـاع خـاص لإرسـاء نظـام ثابت بين الأقطار المنتجة للنفط . ولكنه أضاف على الفور وباللهجـة الوديـة الهادئـة ذاتهـا أنـه لا حاجـة للاستعجال . ويمكن لوزراء الدول النفطية بحث المسألة عندما يجتمعون في جنيف في الشهر التـالي . وحتـى ذلك الحين من الأفضل ترك الأمور على حالها .

وكان الملك بطيئا في كلامه وعمله إلى حد أن الوقت لديه قد يطول إلى ما لانهايـة . أمـا العراقيـون فكـان الشيء الذي ينقصهم هو الوقت ، وعليه فكان من الصعب عليهم قبول رد الملك.

وذكّر سعدون حمادي الملك والشيخ زايد بالبلايين العشرة التي طلبها صدام حسين . لكنهما تهربا من الـدخول في صلب الموضوع . وعندما توقف في الكويت طلب الشيء ذاته من الأمير جابر فأجابه هذا بقوله : " لكـن هذان غير معقول . فليس لدينا ذلك المبلغ من المال .

وكان حمّادي خلال النقاش يحمل صفحتين مطبوعتين على الآلة الكاتبة فيهما قائمة مفصلة بـالأموال الكويتيـة المستثمرة في العالم والبالغة ١٠٠ بليون دولار . وعندما اطلع الأمير على ما فيهـا اقتـرح أن يـدفع مبلـغ خمسمائة مليون دولار ثلاث سنوات كصدقة على العراق ، وقال : " دعونا نتحدث أولا عن الحدود . وعنـدما نوقع الاتفاق نتحدث عن الأمور الأخرى " .

ولم يكد سعدون حمادي يصل إلى بغداد حتى بلغه أن وزير النفط في الكويت صرح بأن بلاده سوف تواصـل إنتاج كمية النفط الاضافية حتى أكتوبر . وأدى هذا التصريح ورفض السعودية الدعوة إلى عقد لجتماع خـاص للأوبيك إلى اقناع صدام حسين بأن هناك كما قال لأحد زملائه " محاولة لتركيع العراق " .

وفي ١٦ تموز وصل طارق عزيز وزير الخارجية العراقية إلى تونس للمشاركة في اجتماع القمة الذي دعـت إليه جامعة الدول العربية . وطارق عزيز في الستين من عمره وله شاربان كثيفان ونظارتان سميكتان . وهـو من المسيحيين القلائل الذين احتلوا مراكز عالية في الجهاز الحاكم . (واسمه الحقيقي يوحنـا) . وهـو دمـث الطباع ويستطيع تبليغ الرسائل العدائية بلباقة وتهذيب . وإذ كان سفير صدام الذي ينقل أفكـاره إلـى مختلـف الجهات في العالم فقد مثل العراق أكثر المفاوضات دقة سواء في المحادثات مع الأقطار الأوروبيـة لإعـادة جدولة الديون أو في الضغط من أجل الحصول على قروض أخرى لشراء الأسلحة . وكان في هذا كله يعبـر عن أفكار صدام ورغباته بحماسة شديدة ومهارة ، وأحيانا بقسوة .

وكان الهدف من اجتماع القمة هو الحصول على تأييد الدول العربية لمنظمة التحرير . فبعد أن حمل عرفـات منظمة التحرير على اتخاذ موقف أكثر اعتدالاً من إسرائيل ويقضي بالاعتراف بها والدخول في حـوار مـع الولايات المتحدة الأميركية ، اخذ يشعر مرة أخرى بالعُزلة . وكانت الولايات المتحدة قد أوقفـت المحادثـات مع المنظمة رداً على هجوم قام به أبو العباس في ٣٠ مايو على الشاطئ الإسرائيلي . وأبو العباس هـذا هـو الذي سبق له أن قام بنشاطات مشابهة عندما دبر في عام ١٩٨٥ خطف السفينة الإيطاليـة " أكيـل لـورو " . ومع هذا فإنه ظل عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني . فأصرت الولايات المتحدة على أن يقـوم عرفـات بطرده وشجب هجومه ، ولكنه لم يفعل .

ومما أغضب عرفات عدم حضور دول عربية كثيرة الاجتماع المقرر في ذلك اليوم لكـن حـضور طـارق عزيز لم يكن مفاجئا . فرئيسه صدام كان قد لعب دوراً مهما في إقناع عرفات بتبني الاعتدال والـدخول فـي محادثات مع الولايات المتحدة. وهاجم عرفات في خطابه بعض الـدول التـي لـم تـشارك فـي الاجتمـاع وخصوصا السعودية ومصر . وختم خطابه بقوله :

" إن القضية خطيرة ولكن كثرة من الدول العربية لا تكترث لها . ترى ما الذي تفعلـه ؟ هـل تقـوم بتحديـد أسعار البطاطا " .

قال عرفات هذا وخرج من القاعة وانتهى الاجتماع . فذهب طارق عزيز إلى الأمين العـام لجامعـة الـدول العربية الشاذلي القليبي وقال له : " لقد أحضرت معي مذكرة مهمة ينبغي توزيعها على الأعـضاء . ولا بـد من الاجتماع في صباح الغد " فوافقه القليبي والتقى وهو خارج بمروان القاسم ممثـل الأردن فـأخبره عـن المذكرة وقال :

" نحن مقتنعون بأن بعض الدول تتآمر بالفعل علينا . ولكن اود أن أقول لك بأن بلادي لن تركـع وأن نـساءنا لن يجبرن على التحول إلى حومات وأن اولادنا لن ... يحرموا من الطعام " .

وصدم مروان القاسم ، وقال لعزيز : " حاذر أن تقع في الشرك الذي نصب لك " . ولـم يقـل عزيـز شـيئا وخرج .

وفي صباح ١٧ يوليو حضر طارق عزيز إلى مكتب أمانة الجامعة ومعه سفير العراق إلـى تـونس ، وقـدم المذكرة للقليبي الدبلوماسي التونسي المتزن الذي يبدو كمفكر خجول . وجاءت المذكرة صدمة له لأنها كانـت في حقيقتها اعلان حرب حقيقية على الكويت . فالشكوى فيها لم تقتصر على تجاوز الحد في انتاج الـنفط بـل تجاوزت ذلك إلى اتهام الكويت بإقامة نقاط عسكرية على الأراضي العراقية وسرقة ما يـساوي ٤ و ٢ بليـون دولار من النفط الذي تستخرجه من حقل الرميلة العراقي . واتهمت المذكرة الكويـت والإمـارات العربيـة صراحة بأنهما ضالعان في " مؤامرة صهيونية استعمارية على الأمة العربية " .

وقرر القليبي أن يحاول التريث في توزيع المذكرة . وقال لعزيز بأنه في حاجة إلى ٢٤ ساعة يجـري خلالهـا مشاورات مع الكويت والسعودية قبل أن يقوم بتوزيعها . وأضاف أنه يرغب في أن يتحدث إلى صدام . فقـال عزيز : " ليس باستطاعتك التحدث إليه الآن لأنه في طريقه إلى القاء خطـاب سـوف يـشتمل علـى بعـض التهديدات الموجودة في المذكرة . ولم يعلم بذلك إلا في وقت لاحق من ذلك اليوم . والواقع أن طارق عزيـز لم يكن هناك للمفاوضة ، بل لتنفيذ أوامر صارمة من صدام . فانتهى الاجتماع .

وبعد أن خرج عزيز قام على الفور بإرسال نسخة من المذكرة للسفارة الكويتية بتونس . وبعـد ذلـك بـساعة اتصل السفير الكويتي بالقليبي وسأله عما إذا كان سيوزع المذكرة . فاجابه القليبي بأنه ليس أمامه خيار آخـر. وطلب من السفير أن يبلغ ذلك إلى وزير الخارجية الكويتي الشيخ صباح وأنه يود أن يتحدث مع أمير الكويـت وولي العهد .

وعندما تسلم الشيخ صباح المذكرة أصابه – كما يقول شاهد عيان – ذهول شديد فـالعراقيون يتهمونـه بأنـه عميل يتقاضى أموالا من الأميركيين . فقرر أن يلغي جميع مواعيده .

* * *

منذ أواخر شهر مايو أخذ العاملون في أسواق هونغ كونغ وسنغافورة المالية يحسون بتحركات غيـر عاديـة . فمكتب الاستثمارات الكويتية بلندن وهو هيئة مقرها لندن وتدير استثمارات الكويت العالمية الضخمة كـان قـد أخذ يبيع بعض ممتلكاته الكبرى بلا سبب ظاهر . ولم تكد تمضي بضعه أيام على اجتماع تونس الـذي ابتـدأ في ١٩ يوليو بدأ المكتب عملية تصفية كاملة لاستثماراته الآسيوية وتحويلها إلى سيولة نقدية . وكـان رجـال الأعمال الكويتيون يتصرفون بسرعة وبكثير من الحكمة لكي لا تتسرب أخبار أعمـالهم فتحـدث مـا يـشبه الانهيار في الأسواق التي تحتل الأموال الكويتية فيها موقعا مهما .

* * *

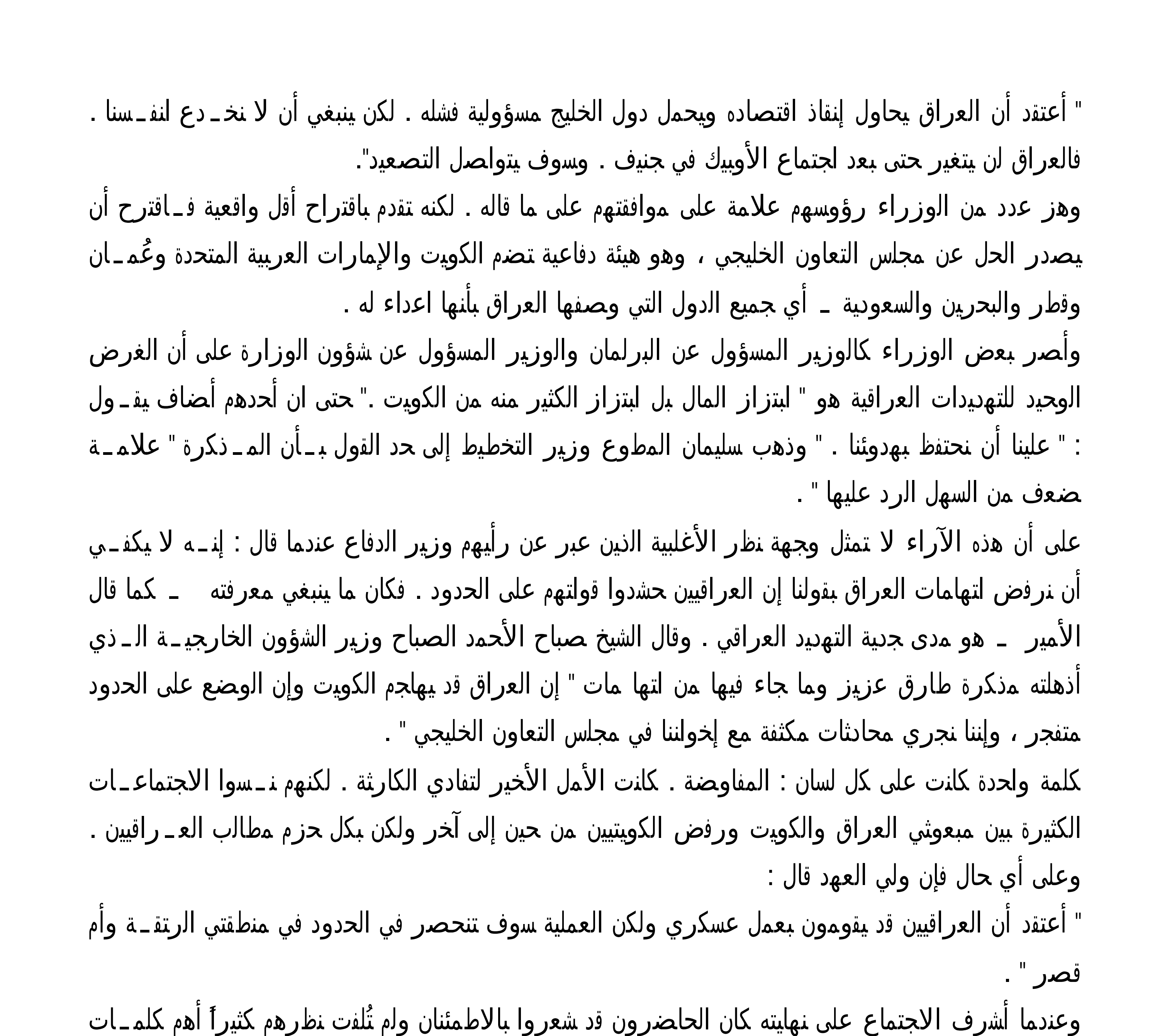
وفي ١٧ يوليو وبينما كان طارق عزيز مجتمعا مع الشاذلي القليبي كان يجري الاحتفال بالعيد السنوي للثـورة العراقية . واعتلى صدام حسين المنصة وحوله أعضاء مجلس قيادة الثورة بزيهم العسكري . وجـرت العـادة كلما ظهر الرئيس أمام الجمهور أن يضرب حصار شبه كامل على بغداد . لكن تدابير الأمن في ذلـك اليـوم كانت أشد من أي وقت مضى . قال صدام في خطابه الذي أذيع فيما بعد :

" يعود الفضل إلى اسلحتنا الجديدة في أن الامبرياليين لن يستطيعوا بعد الآن شـن هجـوم عـسكري علينـا . ولهذا اختاروا شن حرب عصابات اقتصادية بمساعدة عملائهم من زعماء دول الخليج . فسياستهم التي ترمـي إلى الابقاء على أسعار البترول المنخفضة خنجر مسموم مغروز في ظهر العراق " .

وفي ذلك اليوم نفسه بدأت طلائع القوات العسكرية العراقية بالتحرك باتجاه الحـدود الكويتيـة . وفـي وقـت متأخر من بعد ظهر ١٨ تموز اجتمعت الوزارة وبدا التوتر على وجوه الوزراء وهم يخرجون مـن سـيارات الليموزين والشمس تنحدر نحو المغيب . فالتهديد كان هناك ، ولا يبعد سوى بضعة أميال ، وتمثل في دبابـات ت ٦٢ التي كانت في طريقها إلى بلادهم . ولكن بالرغم من شعورهم بـالخطر كـان أكثـرهم يفـضل أن لا يصدق بأن وقت الانقاذ قد فات .

كان آخر من وصل هو الأمير جابر يرافقه ولي العهد ورئيس الوزراء الشيخ سعد العبد ا الصباح . وكـان الأمير قد عاد لتوه من السعودية حيث عرض الملك وساطته . فتداول في الأمر مـع رئـيس وزرائـه قبـل الاجتماع . ورأى كل منهما أن العراق قد يهاجم الكويت لكنهما اعتقدا أن العملية ستنحـصر فـي المنطقـة الحدودية المتنازع عليها . وعليه فإنه لم يخطر ببالهما أن الكويت مجرد فاصلة على وجه الزوال .

كان الغرض من اجتماع الوزارة الاتفاق على صيغة الرد على مذكرة طارق عزيز التي اتهم فيهـا الكويـت بسرقة ما قيمته ٢ ، ٤ بليون دولار من النفط العراقي . لكن الكلمات التي ألقيـت لـم تكـشف عـن القلـق والفوضى الكبيرين اللذين كان كل منهم يشعر بهما . كان أول المتكلمين هو الشيخ علي خليفة الصباح وزيـر النفط السابق ووزير المالية الحالي المغامر الذي يتصرف كرجال البنوك الغـربيين ويتمتـع بـالاحترام فـي الأوساط المالية الدولية . قال :



" أعتقد أن العراق يحاول إنقاذ اقتصاده ويحمل دول الخليج مسؤولية فشله . لكن ينبغي أن لا نخدع أنفسنا . فالعراق لن يتغير حتى بعد اجتماع الأوبيك في جنيف . وسوف يتواصل التصعيد".

وهز عدد من الوزراء رؤوسهم علامة على موافقتهم على ما قاله . لكنه تقدم باقتراح أقل واقعية فاقترح أن يصدر الحل عن مجلس التعاون الخليجي ، وهو هيئة دفاعية تضم الكويت والإمارات العربية المتحدة وعُمان وقطر والبحرين والسعودية - أي جميع الدول التي وصفها العراق بأنها اعداء له .

وأصر بعض الوزراء كالوزير المسؤول عن البرلمان والوزير المسؤول عن شؤون الوزارة على أن الغرض الوحيد للتهديدات العراقية هو " ابتزاز المال بل ابتزاز الكثير منه من الكويت ." حتى ان أحدهم أضاف يقول : " علينا أن نحتفظ بهدوئنا . " وذهب سليمان المطوع وزير التخطيط إلى حد القول بأن المذكرة " علامة ضعف من السهل الرد عليها " .

على أن هذه الآراء لا تمثل وجهة نظر الأغلبية الذين عبر عن رأيهم وزير الدفاع عندما قال : إنه لا يكفي أن نرفض اتهامات العراق بقولنا إن العراقيين حشدوا قواتهم على الحدود . فكان ما ينبغي معرفته - كما قال الأمير - هو مدى جدية التهديد العراقي . وقال الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير الشؤون الخارجية الذي أذهلته مذكرة طارق عزيز وما جاء فيها من اتها مات " إن العراق قد يهاجم الكويت وإن الوضع على الحدود متفجر ، وإننا نجري محادثات مكثفة مع إخواننا في مجلس التعاون الخليجي " .

كلمة واحدة كانت على كل لسان : المفاوضة . كانت الأمل الأخير لتفادي الكارثة . لكنهم نسوا الاجتماعات الكثيرة بين مبعوثي العراق والكويت ورفض الكويتيين من حين إلى آخر ولكن بكل حزم مطالب العراقيين . وعلى أي حال فإن ولي العهد قال :

" أعتقد أن العراقيين قد يقومون بعمل عسكري ولكن العملية سوف تنحصر في الحدود في منطقتي الرتقة وأم قصر " .

وعندما أشرف الاجتماع على نهايته كان الحاضرون قد شعروا بالاطمئنان ولم تُلفت نظرهم كثيراً أهم كلمات قيلت في الاجتماع وهي كلمات وزير الدفاع الذي قال :

" ليست المذكرة العراقية سوى البداية . فا وحده يعلم إلى أي حد سوف يذهبون . فمسألة أسعار النفط لا تخرج عن كونها حجة . فالواقع أن العراق هو الذئب ونحن الحمل " .

وعندما تحول المجتمعون إلى مناقشة الجوانب الاقتصادية اختلطت عليهم الأمور فهل كان عليهم أن يستجيبوا لطلب العراق عشرة بلايين دولار وإلغاء جميع الديون ؟

لم يتخذوا قرارا بشأن هذا الموضوع بالرغم من أن الوضع لم يكن يحتمل التأجيل . وعهد إلى الشيخ صباح الأحمد بالدعوة إلى اجتماع طارئ لمجلس التعاون الخليجي وذلك للدعوة إلى جامعة الدول العربية . لكن لم تتخذ أية إجراءات عسكرية .

وفيما كان الاجتماع منعقداً تلقى الشاذلي القليبي في تونس رسالة تبلغه أن الحكومـة الكويتيـة سترسـل إليـه طائرة سويسرية خاصة لتنقله إلى الكويت للاجتماع بزعمائها . وحال وصوله إلى الكويت دعي إلـى القـصر لمقابلة الأمير . وأبلغه الأمير أنه فوجئ تماما بمذكرة طارق عزيز التي كانت قد قدمت له بتونس قبل أيـام . ثم قال :

" ما هي المشكلة ؟ إن المذكرة قاسية ، ولا صحة لما ورد فيها . لقد قدمنا لصدام حسين الكثيـر مـن المـال والنفط خلال الحرب مع إيران " .

وفيما بعد قال أحد رجال الأمير للقليبي بأن الكويت قدمت إلى العراق خلالها ١٧ بليون دولار وكانت تـزوده ب ٠٠٠ ، ٣٠٠ برميل من النفط يوميا . وقيل له أيضا إن هذه المعلومات لم تنشر من قبل خوفا مـن غـضب إيران وخلق المشكلات . وعند نهاية الاجتماع قال الأمير للقليبي : " حاول أن تحـل المـشكلة . نحـن علـى استعداد لحل المشكلة بطريق الحوار " .

وقرر القليبي أن يقوم بزيارة بغداد . لكن بينما كان يهم بمغادرة الفندق علم أن الأمير سعود الفيـصل وزيـر الخارجية السعودية في طريقه إلى العاصمة العراقية . فقرر أن يبقى في الكويت ثقة منه بأن الأميـر سـعود الفيصل سوف يتوقف في الكويت ويخبره بما جرى في اجتماعاته مع صدام حسين .

لكن الذي لم يُطلع الكويتيون القليبي عليه هو شيء آخر كانوا يفكرون فيه . فمن المرجح أنهم كـانوا يعتقـدون بأن الورقة الأخيرة في أيديهم هي دعم الولايات المتحدة لهم . ذلك انهم اولا لم ينسوا أن الأميـركيين سـمحوا لهم خلال الحرب العراقية الإيرانية أن يرفعوا الأعلام الأميركية على ناقلاتهم . وأن ذلك كـان بمثابـة دليـل على وقوفها إلى جانبهم . وهناك وثيقة غريبة مؤرخة في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩ يدعي العراقيـون أنهـم عثـروا عليها في وزارة الخارجية الكويتية في أعقاب استيلائهم على الكويت . لكن بيتر ايرنست الناطق باسـم وكالـة الاستخبارات المركزية (السي آي إي) أصدر في ٣٠ تشرين أول ١٩٩٠ تصريحا وصف فيه الوثيقـة بأنهـا مزورة . لكنه اعترف في تصريحه بأن الشيخ الصباح نائب مدير أمن الدولة الكويتية قام فـي نـوفمبر ١٩٨٩ ـ كما تقول الوثيقة ـ بزيارة للقاضي وليم وبستر مدير الوكالة . على أن الحكومة العراقية واصـلت القـول بأن الوثيقة صحيحة . ومهما يكن من أمر صحتها فإنها وثيقة طريفة .

إن هذه الوثيقة عبارة عن مذكرة قيل إن فهد أحمد الفهد مدير أمن الدولة الكويتية أرسلها إلى وزيـر الداخليـة وتقول الفقرة الخامسة منها :

" إتفقنا مع الجانب الأميركي على أهمية الاستفادة من الأوضاع الاقتصادية المتدهورة في العـراق لممارسـة الضغط على الحكومة العراقية لرسم الحدود المشتركة . وقد أطلعتنا وكالة الاستخبارات المركزية على وجهة نظرها حول الوسائل المناسبة للضغط قائلة بأنه لا بد من إرساء التعاون بيننا علـى نطـاق واسـع بـشرط أن يجري تنسيق النشاط على المستويات العليا " .

ويشير مدير أمن الدولة أيضا أنه قام بزيارة لوانشطن استغرقت ستة أيام . (١٢ - ١٨ نوفمبر) وعقد خلالها عدة اجتماعات سرية للغاية مع كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين عبروا عن عدم رضاهم عن أداء الحرس الأميري المكلف بحماية الأمير . وكان الأمير قد تعرض لمحاولات لاغتياله . وتقول المذكرة بان الوكالة أيدت استعدادها لتدريب ١٢٣ شخصا تختارهم السلطات الكويتية لكي يقوموا بعد ذلك بحماية الأمير وولي العهد .

ترى هل تجاوز الكويتيون الحد لأنهم كانوا على يقين من أن واشنطن لن تتخلى عنهم ؟ كان زعماؤهم واثقين من الدعم الأميركي منذ زمن طويل وخصوصاً منذ عام ١٩٨٧ أي منذ أواسط فترة الحرب العراقية الإيرانية عندما رفعت الأعلام الأميركية على ناقلاتهم لحمايتها .

وفي ذلك الوقت تماماً أعلن البرلمان العراقي قراره الذي اتخذ بالإجماع برئاسة صدام حسين مدى الحياة .

* * *

في ٢٤ تموز وصلت أخبار إلى مقر وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إي) مفادها أن فرقتين عراقيتين غادرتا قواهما للتمركز على الحدود الكويتية .

وفي صباح ذلك اليوم وصل حسني مبارك إلى بغداد في مهمة وساطة . ولم يكن اختيار الجامعة العربية له الأفضل نظرا للشكوك المتبادلة بين صدام حسين وبينه . ومهما يكن من أمر فإن صدام حسين قال له :

" لن استخدم القوة ... لن استخدمها قبل استنفاد جميع الإمكانات عبر المفاوضات . لكن يا أخ مبارك لا تقل هذا للكويتيين لأنه لن يزيدهم إلا غروراً " .

وفي اعقاب هذا مباشرة غادر مبارك العراق إلى الكويت حيث أبلغ بعض ما سمعه إلى الأمير . قال له : " لا تقلق يا صاحب السمو فقد سمعت من صدام نفسه أنه لن يرسل قوات وأنه لا يعتزم مهاجمة الكويت ." وهكذا فإنه لم يضف إلى ذلك عبارة " قبل إستنفاد جميع الامكانات عبر المفاوضات " . ونقل مبارك العبارات المجتزأة ذاتها لواشنطن .

* * *

وفي ٢٥ تموز استدعى صدام ابريل غلاسبي السفيرة الأميركية . ولما كانت قد أبلغت بموعد المقابلة قبل ذلك بساعة فقط فإنه لم يكن لديها الوقت الكافي لإبلاغ وزارة الخارجية بواشنطن والتزود بتعليماتها . وأدخلت السفيرة على الرئيس العراقي في الساعة الواحدة بعد الظهر . وبدا عليها التوتر وهي تهم بإجراء مقابلتها الخاصة الأولى معه . وجاء الحديث الذي جرى بينهما مفاجئا وحتى مزعجا . واستطاعت شبكة " إي بي سي " الحصول على تسجيل للحديث الذي يعتبر وثيقة كبرى بالنظر إلى ما يشتمل عليه من دلالات بعضها غير عفوي ولكن تستحق أن نوردها *

* قام السيد عادل درويش بترجمة ما دار بينهما إلى العربية .

حضر المقابلة طارق عزيز . واستهلها صدام بالترحيب بغلاسبي ودعاها إلى الجلوس قائلا : " لقـد اسـتدعيتك لإجراء حوار سياسي شامل معك ، وفيه رسالة موجهة إلى بوش " . قال صدام :

" تعلمين انه لم يكن هناك علاقات بيننا وبين الولايات المتحدة إلى عام ١٩٨٤ . كما أنـك تعـرفين الظـروف والأسباب التي أدت إلى قطع العلاقات . على أن قرار استئناف العلاقات اتخذ عام ١٩٨٠ أي خلال الـشهرين اللذين سبقا حربنا مع إيران .

" وعندما بدأت الحرب ولتجنب أي سوء تفسير أجّلنا إقامة العلاقات على أمل أن تنتهي الحرب في الحال .

" فلما تبين أن الحرب ستطول ، وللتأكيد على أننا دولة غير منحازة ، كان من المهم أن نعيـد إقامـة علاقاتنـا بالولايات المتحدة . وكان هذا في عام ١٩٨٤ .

" ومن الطبيعي القول بأن الولايات المتحدة ليست كبريطانيا مـثلا . ذات العلاقـات التاريخيـة مـع الـشرق الأوسط ، بما فيه العراق . ثم إنه لم تكن هناك علاقات بين العراق والولايات المتحـدة بـين عـامي ١٩٦٧ و ١٩٨٤ . ويمكن للمرء أن يستنتج أنه من الصعب على الولايات المتحدة أن تتوصل إلى تفاهم تام مع العـراق حول كثرة من الأمور . على أنه عندما جرى استئناف العلاقات كنا نأمل في تفهم أفضل وفي تعـاون أفـضل لأننا أيضا لا نفهم خلفيات كثرة من القرارات الأميركية.

" وتعامل أحدنا مع الآخر خلال الحرب وعلى مستويات مختلفة أهمها مستوى وزيري الخارجية . وكنا نأمـل في تفاهم مشترك أفضل وفي فرصة أكبر للتعاون وذلك لفائدة شعبينا وباقي الأمم العربية . لكن هذه العلاقـات أصيبت بشروخ . ووقع الأسوأ منها في عام ١٩٨٦ وبعد سنتين فقط من إرساء تلك العلاقات خلال ما يعـرف " بإيران غيت " التي وقعت سنة احتلال إيران لشبه جزيرة الفاو .

" ومن الطبيعي القول بأن قدم العلاقات وتعقد المصالح المتبادلة قد يمتصان الأخطاء . لكـن عنـدما تكـون المصالح محدودة والعلاقات حديثة العهد فإن التفاهم يصبح سطحيا وقد تؤدي الأخطاء إلى نتائج سـلبية . وقـد يحدث أحيانا أن يكون تأثير الخطأ اكثر خطورة من الخطأ ذاته .

" وبالرغم من ذلك فإننا قبلنا اعتذار الرئيس الأميركي عبر موفده عن " إيران غيت " وأزلنا جميع الـشوائب . وينبغي علينا أن لا نستعيد الماضي إلا عندما لا تكون الأخطاء الماضية وليدة والصدفة.

" وتزايدت شكوكنا بعد تحرير الفاو . فقد أخذت وسائل الإعلام الأميركية تدس أنفهـا فـي سياسـة بلادنـا . ودفعتنا الشكوك إلى التساؤل عما إذ كانت نتيجة الحرب وتحريرنا لبلادنا قد أقلقا الولايات المتحدة .

" وكان من الواضح لنا أن تحريرنا لبلادنا لم يرُق لبعض الجهات في الولايات المتحدة . وليست أشـير بهـذا إلى الرئيس الأميركي نفسه بل إلى جهات معينة على صلة بدوائر الاسـتخبارات ووزارة الخارجيـة باسـتثناء وزير الخارجية . وبدأت بعض الجهات تعد دراسات بعنوان " من سيخاف صدام حـسين ؟ " وأخـذت تتـصل بدول الخليج وتثير مخاوفها من العراق وتقنعها بعدم تقديم المساعدات الاقتصادية له . ولـدينا شـواهد علـى نشاطها هذا .

" لقد خرج العراق من الحرب وعليه دين قدره ٤٠ مليار دولار . ولا يشمل هذا المبلـغ المـساعدات التـي قدمتها الدول العربية . ومما يذكر أن بينها دول لا تعتبر المساعدات دينا مع أنها تعلم كما تعلمون أنـتم أنـه لولا العراق لما كانت لديها تلك المبالغ ، ولما كان مصير المنطقة على النحو الذي نراه .

"وبدأنا نواجه سياسة تخفيض أسعار النفط . ثم رأينا الولايات المتحدة التي تتحدث دائمـا عـن الديمقراطيـة لا تعير وجهة نظر غيرها أي اهتمام . ثم بدأ الإعلام الرسمي الأميركي حملته على صدام حـسين . واعتقـدت الولايات المتحدة أن الوضع في العراق كالوضع في بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا . لقد أثارت هذه الحملـة قلقنا ولكننا لم نبادر إلى الرد لأننا كنا نأمل أن تتاح الفرصة لصانعي القرار في أميركا للوقوف على الحقـائق ومعرفة ما إذا كان للحملة الإعلامية أي تأثير شعب العراق . كنا نأمل في أن تبادر السلطات الأميركيـة إلـى اتخاذ القرار الصحيح بشأن علاقاتها مع العراق . فالعلاقات الجيدة تساعد على تجاوز الخلافات .

" لكن عندما تقضي السياسة المرسومة بتخفيض سعر النفط بدون سبب تجاري معقول ، فإن ذلك يعنـي شـن حرب أخرى على العراق . فالحرب العسكرية تقتل الناس بإسالة دمائهم ، والحرب الاقتصادية تدمر إنـسانيتهم بحرمانهم من فرصة التمتع بمستوى حياتي لائق . وإننا كما تعلمون نزفنا انهاراً من الدم فـي الحـرب التـي دامت ثماني سنوات لكننا لم نفقد إنسانيتنا . وللعراقيين الحق في العيش بكرامة ولا نسمح لأحد بأن ينـال مـن كرامتهم أو من حقهم في الاستمتاع بمستوى حياتي عال .

" لقد كانت الكويت والإمارات على رأس واضعي هذه السياسة التي استهدفت النيل من مكانة العراق وحرمان شعبها من المستويات الحياتية العالية . وأنتم تعلمون أن علاقاتنا مع الإمارات والكويت كانت قبل ذلك جيـدة . وفوق هذا كله وبينما كنا غارقين في الحرب أخذت الكويت تتسع على حساب أرضنا ".

* * *

وهنا أخذ صدام يشير بوضوح إلى الكويت بوصفها هدفه الرئيسي . قال :

" قد تقولون بأن هذا مجرد دعاية . لكنني الفت نظركم إلى الوثيقة التي تحدد خط الدوريات العـسكرية الـذي يشكل الحدود التي صدقت عليها جامعة الدول العربية عام ١٩٦١ . لقد نصت الوثيقـة علـى أنـه لا يجـوز اختراقها .

" اذهبي وشاهدي بنفسك ما يجري . سترين دوريات الحدود والمزارع والمنشآت النفطية الكويتية قائمـة فـي أقرب نقطة من الحدود وذلك لإثبات أن تلك الأراضي كويتية .

" ومنذ عام ١٩٦١ والحكومة الكويتية مستقرة ، في حين أن الحكومة العراقية تعرضـت لتعـديات كثيـرة . وحتى بعد عام ١٩٦٨ (الذي استولي فيه البعث على الحكم) وطيلة عش سنوات كنا غـارقين فـي مـشكلاتنا مثل مشكلة الأكراد في الشمال ومشكلة حرب أكتوبر وغيرهما .



" إننا نعتقد أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تفهم أن الشعب الذي يعيش في رخاء وأمن اقتصادي يمكنـه أن يتوصل إلى تفاهم معها حول المصالح المشتركة المشروعة لكن الشعب الجائع والمحروم اقتصاديا لا يـستطيع ذلك .

" إننا لا نقبل تهديدا من أحد لأننا لا نهدد أحداً . ونقول بوضوح بأننا نأمل في أن لا تكثـر الولايـات المتحـدة من الأوهام وأن تسعى إلى كسب الأصدقاء لا إلى زيادة أعدائها .

" لقد قرأت تصريحات أميركية عديدة عن أصدقائها في المنطقة . وبـالطبع مـن حـق الجميـع ان يختـاروا أصدقاءهم ولا اعتراض لدينا على ذلك . ولكنكم تعرفون جيداً انكم لستم الذين حميتم هؤلاء الاصدقاء خـلال الحرب مع إيران . وأستطيع التأكيد لكم أنه لو اكتسح الإيرانيون المنطقة لمـا كـان فـي اسـتطاعة القـوات الأميركية وقفهم إلا باستخدام الأسلحة النووية .

" ما اقوله لا يهدف إلى التقليل من شأنكم وانما انا آخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافيـة وطبيعـة المجتمـع الأميركي التي ترفض التضحية بأكثر من عشرة آلاف قتيل في المعركة الواحدة .

" تعلمون أن إيران قبلت بوقف اطلاق النار . ولكن لم يحصل ذلك بسبب قصف الولايـات المتحـدة لمنـشأة نفطية إيرانية واحدة ، وانما حصل بعد تحرير الفاو . أهكذا يكافأ العراق لأنـه سـاهم فـي تـامين اسـتقرار المنطقة وقام بحمايتها من مد لا مثيل له ؟

" ثم ماذا تعني أميركا عندما تقول الآن بأنها ستحمي أصدقاءها ؟ ليس لذلك معنى سوى التحامل على العـراق .

" أقول لكم بوضوح إننا سوف نحصل على كل حق من الحقوق الواردة في المذكرة . وقد لا يحدث هـذا الآن أو خلال شهر أو بعد سنة لكننا سنحصل عليها كلها . لسنا بالشعب الذي يتخلى عن حقوقه . فليس هنـاك حـق تاريخي أو حاجة تبرر قيام الإمارات والكويت بحرماننا من حقوقنا . وإذا كانت هاتان الدولتان في حاجـة إلـى ذلك فنحن أحوج منهما إليه .

" ينبغي أن يكون لدى الولايات المتحدة تفهم أفضل للوضع . وعليها أن تذكر اولئك الذين تريد أن تقيم معهـم علاقات وأن تقول من هم أعداؤها . وعليها أن لا تعتبر أحدا عدوا لا لسبب إلا لأنه يختلف معها فـي الـرأي حول النزاع العربي الإسرائيلي .

" إننا نفهم بوضوح قول أميركا بأنها تريد تأمين تدفق سهل للنفط . ونفهم أميركا عندما تقول بأنها تسعى إلـى صداقة دول المنطقة ، وترغب في تعزيز المصالح المشتركة . لكن ما لا نفهمه هو أن تقوم أميركـا بتـشجيع بعض الجهات على الحاق الضرر بمصالح العراق .

" إن الولايات المتحدة تريد أن تضمن تدفق النفط . هذا مفهوم . لكن ينبغي عليها أن لا تـستخدم أسـاليب ثـم تنكرها . إن ذلك من قبيل ليّ العضلات والضغط . فإذا استخدمتم الضغط فسوف نستخدم الضغط والقوة .

" إننا نعلم أنه باستطاعتكم إلحاق الضرر بنا حتى ولو لم نهددكم . لكن باستطاعتنا أيضا أن نلحق الضرر بكـم ففي وسع كل شخص أن يسبب ضررا يتناسب مع قوته وحجمه . ليس باسـتطاعتنا أن نزحـف علـى بلادكـم لكن باستطاعة الأفراد من العرب الوصول إليكم .

* * *

وهنا ضرب صدام حسين بالمجاملات الدبلوماسية عرض الحائط وأخذ يهدد الولايات المتحـدة بموجـة مـن الهجمات الارهابية . ولكي يجعل الأمور أكثر وضوحا قال :

" في استطاعتكم المجيء إلى العراق ومعكم الصواريخ والطائرات لكن لا تدفعونا إلى الحـد الـذي لا نعـود عنده نهتم بما يحدث . وعندما نشعر بأنكم تريدون جرح كرامتنا وحرمان العراق من فرصة تحقيـق مـستوى حياتي أفضل فإننا لن نأبه لشيء وسيكون خيارنا الموت . ولن نخاف عندئذ إذا أطلقتم مئة قذيفـة مقابـل كـل قذيفة من قذائفنا . فالحياة بلا كرامة لا قيمة لها .

* * *

وكان هذا تهديداً للرئيس بوش بأن صدام حسين مستعد لمحاربة أميركا بالرغم من أنه كان يعلم أنه يـرجح أن يخسر المعركة . وأضاف يقول :

" ليس من المعقول أن يًطلب من الشعب العراقي نزف أنهار من الدم خلال الاعوام الثمانية الماضية ثم يُقـال له : عليك الآن أن تقبل بعدوان الكويت والإمارات العربية والولايات المتحدة وإسرائيل . نحن لا نضع جميـع هذه البلدان في سلة واحدة . ومما يؤذينا ويزعجنا أن تكون هناك خلافات بيننا وبين الكويت والإمارات . لكـن ينبغي أن يكون الحل في الإطار العربي وعبر العلاقات الثنائية المباشرة . نحن لا نـضع الولايـات المتحـدة أيضا في خانة الأعداء . نحن نضعها في الموقع الذي نريده لاصدقائنا ونبذل الجهد كـي تكـون فـي عـداد أصدقائها . ولكن تصريحاتكم المتكررة في العام الماضي تظهر جليا ان أميركا لا تعتبرنا اصدقاء لها ، حـسنا ، فهم أحرار فيما يفعلون .

" وعندما نبحث نحن عن الصداقة فإننا نطلب الشرف والحرية وحق الاختيار . وكما نريد التعامل مـع غيرنـا على مستوانا ، نتعامل مع الآخرين على مستواهم . نحن نأخذ مصالحنا ومـصالح الآخـرين بعـين الاعتبـار ونطلب من الغير مقابلتنا بالمثل . ماذا يعني استدعاء وزير الدفاع الصهيوني ، هذه الأيـام ، إلـى الولايـات المتحدة الأميركية ؟ وما هو معنى التصريحات النارية لإسرائيل مؤخراً ؟ وماذا يعني تكـاثر الحـديث عـن الحرب إلى درجة لا مثيل لها ؟ " .

* * *

يبدو واضحا أن الرئيس صدام كان لا يزال يعاني من صدمة ضرب مفاعل اوزيراك النووي . فلم يتردد عـن الإفصاح عن مخاوفه من هجوم إسرائيلي وشيك وربما بمساعدة الولايات المتحدة الأميركية وقال :

" نحن لا نريد الحرب لأننا نعرف ما تعنيه . لكن لا تدفعونا إلى اعتبارها الحل الوحيـد للعـيش فـي كرامـة وعلى مستوى حياتي لائق .

" نحن نعلم أن الولايات المتحدة الأميركية تمتلك السلاح النووي . ولكننا مصممون على العـيش بكرامـة أو الموت حتى آخر فرد فينا. ولا نعتقد أنه يوجد شخص واحد في العالم لا يفهم ما أعنيه . نحن لا نطلـب مـنكم حل مشاكلنا . لقد قلت إن المشاكل العربية تحل بين العرب وإنما المطلوب منكم عدم تشجيع أحد على فعـل لا يقوى على تحمل عواقبه . ولا أعتقد بأن صداقة العراق تؤذي أحدا . وفي رأيي أن الرئيس بوش لـم يقتـرف أخطاء مع العرب ، مع اعتقادي بخطأ تجميد الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . ويبـدو أنـه اتخـذ هـذا القرار لتهدئة اللوبي الصهيوني أو أنه كان جزءا من استراتيجية ترمي إلى استيعاب الغضب الـصهيوني قبـل إعادة الحوار من جديد مع منظمة التحرير . وأتمنى ان يكون الاستنتاج الثاني هو الصائب . على أننـا سـنظل نعتبره قرارا خاطئا .ترى متى سيأتي الوقت الذي تمتدحون العرب فيه مرة واحدة مقابل كل ثلاثة تـصريحات تصدرونها لإرضاء الصهيونية . ومتى ستسعى البشرية إلى حل أميركي يقيم التوازن بين حقوق مئتي مليـون من البشر وبين حقوق ثلاثة ملايين يهودي .

" نحن ننشد الصداقة ولكننا لا نجري وراء أحد من أجلها ، وكذلك فإننا نرفض العـدوان المـسلح أيـا كـان مصدره . وإذا جوبهنا بالعدوان فإننا سنقاوم . وهذا حقنا سواء أجاء العدوان من أميركا أم مـن الإمـارات أو الكويت أو إسرائيل . لكنني لا أضع هذه الدول على مستوى واحـد . فإسـرائيل اغتـصبت الأرض العربيـة بمساعدة الولايات المتحدة . ثم ان الكويت والإمارات لا تؤيدان إسرائيل ، وعلـى أي حـال فإنهمـا تظـلان عربيتين . لكن عندما تحاولان إضعاف العراق فإنهما انما تساعدان بذلك الأعداء وللعراق الحـق عندئـذ فـي الدفاع عن نفسه " .

*   *   *

وهنا ولكي يزيد من كلامه أعاد إلى الذاكرة حدثين سابقين من شأنهما أن يـساعدا الولايـات المتحـدة علـى التفكير ، فقال :

" التقيت في عام ١٩٧٤ بإدريس ابن الزعيم الكردي الراحل الملا مصطفى البرازاني . وجلـس عندئـذ علـى الكنبة ذاتها التي تجلسين عليها الآن . جاء عندئذ ليطلب مني تأجيل تطبيق الحكم الذاتي في كردستان العراقيـة الذي اتفق عليه في ١١ مارس ١٩٧٠ . وكان جوابي له : " إننا مصممون على الوفـاء بالتزاماتنـا . وعلـيكم انتم أيضا أن تلتزموا بالاتفاق . " وعندما أحسستُ بأن لديه نوايا عدوانية قلت له : " بلغ تحياتي لأبيك وقـل لـه بأن صدام حسين يقول ما يلي . " ثم أطلعته على ميزان القوى مدعما بالإحصائيات تمامـا كمـا فعلـت مـع الإيرانيين في رسائلي المفتوحة لهم خلال الحرب وختمت حديثي معه بتلخيص العواقب بجملة واحـدة وهـي " إذا حاربنا فإننا سننتصر " أتعرفين لماذا ؟ شرحت له جميع الأسباب بما فيها السبب السياسي . فالأكراد (فـي

عام ١٩٧٤) كانوا يعلقون الآمال على خلافاتنا مع شاه إيران . وكان سبب النزاع مع إيران هو مطالبها في شط العرب . ولم نكن على استعداد للقيام بتنازلات . لكن لو أجبرنا على الاختيار بين
نصف شط العرب وبين العراق كله فإننا نتنازل عن شط العرب للحفاظ على العراق كما نريده .
" ونحن نأمل أن لا تدفعوا الأحداث إلى الحد الذي نجد فيه أنفسنا مضطرين إلى تذكر الاختيار الذي اضطررنا له في علاقاتنا مع إيران . وبعد اجتماعنا مع ابن البرازاني تنازلنا عن نصف شط العرب (بموجب اتفاق الجزائر عام ١٩٧٥) . وتوفي البرازاني ودفن خارج العراق وخسر الحرب .

* * *

ثم توجه صدام بحديثه إلى السفيرة وقال :
" نأمل في أن لا ندفع إلى هذا . فكل ما يقف في طريق علاقاتنا مع إيران هو شط العرب . فإذا كان علينا أن نختار بين شط العرب والعيش بكرامة فإننا سنفاوض معتمدين على الحكمة التي أظهرناها عام ١٩٧٥ . وكما أن البرازاني أضاع الفرصة التاريخية فسوف يضيع الآخرون فرصتهم .

* * *

وختم صدام هذا السرد التاريخي بقوله بدون مجاملة :
" وفيما يختص بالرئيس بوش آمل أن يقرأ هذا بنفسه وأن لا يترك في أيدي إحدى عصابات وزارة الخارجية التي استثني منها وزير الخارجية وكيلي لأنني أعرفه وتبادلت الرأي معه .

* * *

وأخيرا استطاعت غلاسبي أن تجيب فقالت :
" أشكرك أيها السيد الرئيس ، إنه يسر أي دبلوماسي أن يجتمع بك ويتحدث معك . إنني أفهم رسالتك بوضوح . لقد درسنا التاريخ وعلمونا أن نقول : " الحرية أو الموت " .
" أعتقد انك تعلم جيداً أننا شعب كانت لنا تجربتنا مع المستعمرين .
" يا سيدي الرئيس ، ذكرت خلال هذا الاجتماع أشياء كثيرة لا أستطيع التعليق عليها نيابة عن حكومتي . لكن إذا سمحت فسوف أعلق على نقطتين . لقد تحدثت عن الصداقة ، وأعتقد أنه اتضح من الرسائل التي بعثها رئيسنا أنه بمناسبة اليوم الوطني يؤكد ...

* * *

وهنا قاطعها الرئيس قائلا: " لقد كان لطيفا وظفرت كلماته بتقديرنا واحترمنا . " فقالت غلاسبي : " كما تعلمون فإنه طلب من الادارة الأميركية رفض اقتراح تطبيق العقوبات التجارية ." فقال صدام وهو يبتسم : " لم يعد في أميركا ما يمكننا شراؤه سوى القمح . فكلما أردنا شراء شيء آخر قالوا لنا إن بيعه محظور عليهم . وأخشى أن تقولوا لي يوما : " إنكم ستصنعون البارود من القمح " . وهنا سارعت غلاسبي إلى طمأنته بقولها : لدي تعليمات مباشرة من الرئيس الأميركي تقضي بالسعي إلى إقامة علاقات أفضل مع العراق . "

وهنا تساءل صدام حسين : " لكن كيف ؟ ونحن أيضا راغبون في ذلك لكن الأمور تجري على نحـو ينـاقض رغبتنا . " فأجابت غلاسبي بقولها :

" كلما واصلنا المحادثات كلما قل احتمال حدوث ذلك . فمثلا أشرتم إلى قضية المقال الـذي نـشرته وكالـة الإعلام الأميركية . لقد كان الأمر محزنا وقد م لكم اعتذار رسمي بشأنه " .

وهنا مال صدام نحوها بطريقة ساحرة وقال : " كان موقفكم كريما . ونحن عرب يكفينا أن يقول لنـا أحـدهم : (آسف . لقد أخطأت) وتعود الأمور إلى مجاريها . لكن الحملة الإعلاميـة اسـتمرت وحفلـت بكثـرة مـن القصص . ولو كانت هذه القصص صحيحة لما أغضبت أحدا . لكن ما نستخلصه مـن اسـتمرارها هـو أن هناك تصميم على (إفساد علاقاتنا) . ووافقت غلاسبي على ما قاله ومضت تقول :

" لقد شاهدت بنفسي برنامج ديان سواير على قناة (أي بي سـي) ومـا حـدث فيـه رديء ويفتقـر إلـى الموضوعية . إنه صورة حقيقية لما يحدث في الاعلام الأميركي حتى السياسين الأميركيين أنفسهم . تلك هـي أساليب الإعلام الغربي . ويسرني انكم تضمّون صوتكم إلى أصوات الدبلوماسيين الـذين يواجهـون وسـائل الإعلام بشجاعة . إن ظهوركم ولو لدقائق قليلة في وسائل الاعلام يساعد على فهم الشعب الأميركي للعـراق ، ويعزز التفاهم المتبادل ولو كان الرئيس الأميركي يملك رقابة على الاعلام لكان عمله أسهل .

" إن الرئيس بوش يا سيدي لا يريد إقامة علاقات أفضل وأعمق معكم فحسب ، بـل وإسـهامكم فـي الـسلام والرخاء في الشرق الأوسط . والرئيس بوش رجل ذكي . ولن يقوم بإعلان حرب اقتصادية على العراق .

" ما تقوله صحيح . وأنت مصيب في قولك إننا لا نريد أسعارا أعلى للنفط . لكنني اطلب منك أن تنظـر فـي إمكان عدم تقاضي أسعار باهظة للنفط " .

فقال الرئيس صدام بلهجة ودية :

" نحن لا نريد أسعارا عالية جدا . ودعيني أذكرك بأنني في عام ١٩٧٤ أوحيت لطارق عزيز بفكـرة المقـال الذي كتبه منتقدا سياسة الابقاء على أسعار النفط المرتفعة . وكان أول مقال عربي يعبر عن ذلك الرأي " .

وتدخل طارق عزيز لأول مرة وقال : " إن سياستنا في منظمة الأوبيك تعارض في القفز المفـاجئ للأسـعار " . فقال الرئيس :

" إن ٢٥ دولار للبرميل ليس بالسعر المرتفع " . فقالت السفيرة :

" لدينا كثرة من الأميركيين الذين يريدون سعرا أعلى لأنهم من المناطق التي تنتج النفط " . وكان

هذا هو الضوء الأخضر الثاني الذي جعل صدام حسين يعتقد أن السفيرة ، ومـن خلالهـا الـرئيس بـوش ، يوافقان على طلبه رفع الأسعار . فقال صدام :

((كان السعر في إحدى المراحل ١٢ دولارا للبرميل الواحد . وتخفيض الميزانية العراقيـة بمقـدار ٦ ـ ٧ كارثة)) فأجابت السفيرة :

((أعتقد أنني أفهم هذا . لقد عشت هنا سنوات . وأنا معجبة بجهودكم الخارقة لبناء بلادكـم . أعـرف أنكـم بحاجة إلى الاموال . إننا نفهم ذلك . ورأينا هو أنه ينبغي إتاحة الفرصة لكم لاعادة بناء بلادكم . لكن ليس لنـا رأي في نزاعات العرب فيما بينهم مثل نزاعكم مع الكويت حول الحدود.

" لقد كنت في السفارة الأميركية بالكويت في أواخر الستينات . وكانت تعليماتي تقضي بعدم إبداء الـرأي فـي هذه القضية التي لا شأن لنا فيها . لقد أصدر جيمس بيكر أمرا إلى الناطق الرسمي للتأكيد علـى ذلـك . إننـا نأمل في أن تحلوا القضية بالوسائل المناسبة عبر القليبي أو الرئيس مبارك . وكل ما نرجوه هو حلول سـريعة لهذه القضايا " .

(وهذا ضوء أخضر آخر فيما يتعلق بالخلافات حول الحدود مع الكويت) .

وأضافت غلاسبي :

" هل لي ياسيادة الرئيس أن أتحدث عن صورة هذا كله في أذهاننا ؟

" في تقديري – بعد خمس وعشرين سنة من الخدمة في هذه المنطقة – أنه ينبغي أن تظفـر أهـدافكم بتأييـد اخوانكم العرب . وأنا الآن أتحدث عن النفط . لكنك يا سيادة الرئيس خضت حربا مريـرة مؤلمـة . وأقـول بصراحة إنني الآن لا أرى سوى قواتكم المحتشدة في الجنوب . وذلك في الاحوال العادية ليس مـن شـأننا . لكن عندما يحدث هذا في إطار ما قلته في عيدكم الوطني ، وعندما نقرأ التفصيلات الواردة في رسـالتين مـن الإمارات والكويت هي بعد التحليل الدقيق بمثابة عدوان عسكري على العراق – عندما نقرأ هـذا لا بـد وأن يساورنا القلق . ولهذا السبب تلقيت تعليمات تطلب مني أن أسألكم بروح من الصداقة لا بروح من المواجهـة عن نواياكم .

" إنني في هذا لا أعدو وصف قلق حكومتي . ولا أعني أن الوضع سهل لكن قلقنا مجرد قلق " .

فقال الرئيس صدام :

" نحن لا نطلب من الناس أن لا يشعروا بالقلق عندما يكون السلام على المحك . فذلك شـعور إنـساني نبيـل نشعر جميعا به . ومن الطبيعي أنكم بوصفكم قوة كبرى أن تشعروا بذلك . لكن ما نطلبه هـو أن لا تعبـروا عن قلقكم على نحو يمكن أن يحمل المعتدي على الاعتقاد بأن عدوانه يظفر بالتأييد .

" نريد التوصل إلى حل يضمن لنا حقوقنا ولا يحرم الآخرين من حقوقهم . وفي الوقت ذاته نريد من الآخـرين أن يعلموا أن لصبرنا حدودا فيما يتعلق بأعمالهم التي تضر بحليب أطفالنا ومعاشات الأرامل اللـواتي فقـدن أزواجهن خلال الحرب ، ومعاشات اليتامى الذين فقدوا والديهم .

" نحن كدولة لنا الحق في الازدهار . لقد أضعنا فرصا كثيرة بسبب الحـرب ، وعلـى الآخـرين أن يقـدروا دورنا في حمايتهم . وحتى هذا العراقي (وأشار صدام إلى المترجم) يشعر بالمرارة كسائر العراقيين . لـسنا معتدين ولا نقبل العدوان . لقد ارسلنا مبعوثين ورسائل مكتوبة . وفعلنا كل ما بوسعنا عمله فطلبنا مـن خـادم الحرمين الشريفين الملك فهد أن يعقد مؤتمر رباعية . لكن الملك اقترح اجتماعا لوزراء البتـرول . وقبلنـا .

وجرى الاجتماع في جدة كما تعلمين . وتوصل المجتمعون إلى قرارات لا تعبر عمـا اردنـاه . ومـع ذلـك قبلناها .

" وبعد الاجتماع بيومين فقط أصدر وزير النفط الكويتي تصريحا يناقض الاتفاق . وبحثنا المسألة خـلال قمـة بغداد . وأخبرت الملوك والرؤساء بأن بين اخواننا من يشنون علينا حربا اقتـصادية وأن بعـض الحـروب لا تستخدم فيها الأسلحة وأننا نعتبر هذا النوع من الحرب عملا عسكريا موجها ضدنا . فإذا ضعفت قدرة جيـشنا ، وإذا عادت إيران إلى الحرب فإنها قد تحقق الأهداف التي عجزت عن تحقيقها في الماضي . ثم إن ضـعف قدراتنا الدفاعية قد يشجع إسرائيل على مهاجمتنا . قلت هذا أمام الملك والرؤساء العرب ولـم أذكـر اسـمي الإمارات والكويت لأنهما كانا في ضيافتنا.

" وكنت قبل ذلك قد أرسلت مبعوثين لتذكيرهم بأن حربنا ضد إيران اشتملت على الدفاع عنهم . وعليـه فإنـه ينبغي عليهم أن لا يعتبروا الأموال التي قدموها لنا ديونا . لقد فعلنا أكثر مما كانت الولايات المتحـدة سـتفعله مع من يهاجم مصالحها .

" وتحدثت عن هذه المسألة مع عدد من الدول العربية الأخرى وشرحت الوضع لأخي الملك فهد عدة مـرات عبر المبعوثين والهاتف . وتحدثت مع أخي الملك حسين ومع الشيخ زايد بعد مؤتمر القمة . ورافقـت الـشيخ زايد إلى الطائرة عندما كان في الموصل ، فقال لي : " انتظر حتى أصل إلى بلادي " . لكن مـا حـدث بعـد وصوله هو صدور تصريحات في غاية السوء لا عنه وانما عن وزير نفطه.

" وبعد اتفاق جدة بلغنا أنهم يتحدثون عن الالتزام بالاتفاق لمدة شهرين فقط يقومون بعدها بتغييـر سياسـتهم . والآن قولي لنا : ماذا كان سيفعل الرئيس الأميركي لو وجد نفسه في موقف كهذا . لقد ذكرت أنه كـان مـن الصعب على أن اتحدث عن هذه القضايا علنا . لكن علينا أن نخبر الشعب العراقي الـذي يواجـه المـصاعب الاقتصادية عن المسؤول عن ذلك ."

وإزاء هذه الكلمات القاسية فضلت غلاسبي تغيير الموضوع فقالت : " لقد قضيت أربعة أيام فـي مـصر . " فقال صدام :

" الشعب المصري لطيف وطيب وعريق .ويفترض في دول النفط أن تساعده لكنهم لؤماء إلى حد لا يتـصوره المرء . ومن المؤلم الاعتراف بذلك . والعرب يكرهون بعضهم بسبب جشعهم . " فقالت السفيرة :

" إنك تساعدنا يا سيدي الرئيس لو شرحت لنا تقديرك للجهود التي بذلها إخوانك العرب ومـا حققتـه " . فقـال الرئيس "

" فيما يتعلق بهذا الموضوع اتفقنا مع الرئيس مبارك على قيام رئيس وزراء الكويـت بالاجتمـاع مـع نائـب رئيس مجلس قيادة الثورة في السعودية لأن السعوديين بادروا إلى الاتصال بنا بفضل جهود الرئيس مبـارك . وقد اتصل مبارك بي قبل قليل وأبلغني موافقة الكويتيين على الاقتراح . " فقالت السفيرة بارتياح " تهانينا ! "

فواصل صدام كلامه قائلا :

" سوف يعقد اجتماع بروتوكولي في السعودية ، ثم ينتقل المجتمعون إلى بغداد لإجراء مناقشات أعمـق بـين الكويت والعراق مباشرة . ونأمل في أن يتغلب بعد النظر والحرص على المـصالح الحقيقيـة علـى جـشع الكويتيين . " فسألته السفيرة : " هل لي أن أسألك متى تتوقع أن يصل الـشيخ سـعد إلـى بغـداد ؟ " فأجـاب الرئيس :

" أعتقد أنه سيصل يوم السبت أو الاثنين على أبعد تقدير (٢٨ أو ٣٠) تمـوز وقـد أبلغـت الأخ مبـارك أن الاتفاق سيتم في بغداد يوم السبت أو الاحد . وأنت تعرفين أن زيارات مبارك كانـت دائمـا تبـشر بـالخير "

فقالت السفيرة "

" هذه أخبار جيدة ، تهانينا " وهنا توقف صدام حسين عن اللعب بأوراقه وقال :

" ابلغني أخي مبارك أنهم (الكويتيين) في خوف شديد . وقالوا إن القوات العسكرية على بعد عـشرين كيلـو مترا فقط من خط الجامعة العربية (الحدود) . فقلت للرئيس المصري إنه بغض النظر عمن هناك وسـواء ، أكانوا من البوليس أم حرس الحدود أم الجيش ، وبغض النظر عن عددهم وعما يفعلونـه يمكنـك أن تطمـئن الكويتيين وأن تعدهم بالنيابة عنا بأننا لن نفعل شيئا إلى أن نجتمع بهم . فإذا وجدنا عندما نجتمع بهـم أن هنـاك أملا فلن يحدث شيئا . ولكن إذا تعذر التوصل إلى حل فسيكون من الطبيعي أن لا يقبل العراق بـالموت حتـى ولو كانت الحكمة فوق كل شيء وهذه أخبار جيدة " فقال طارق عزيز : هذا للصحافة وحدها ."

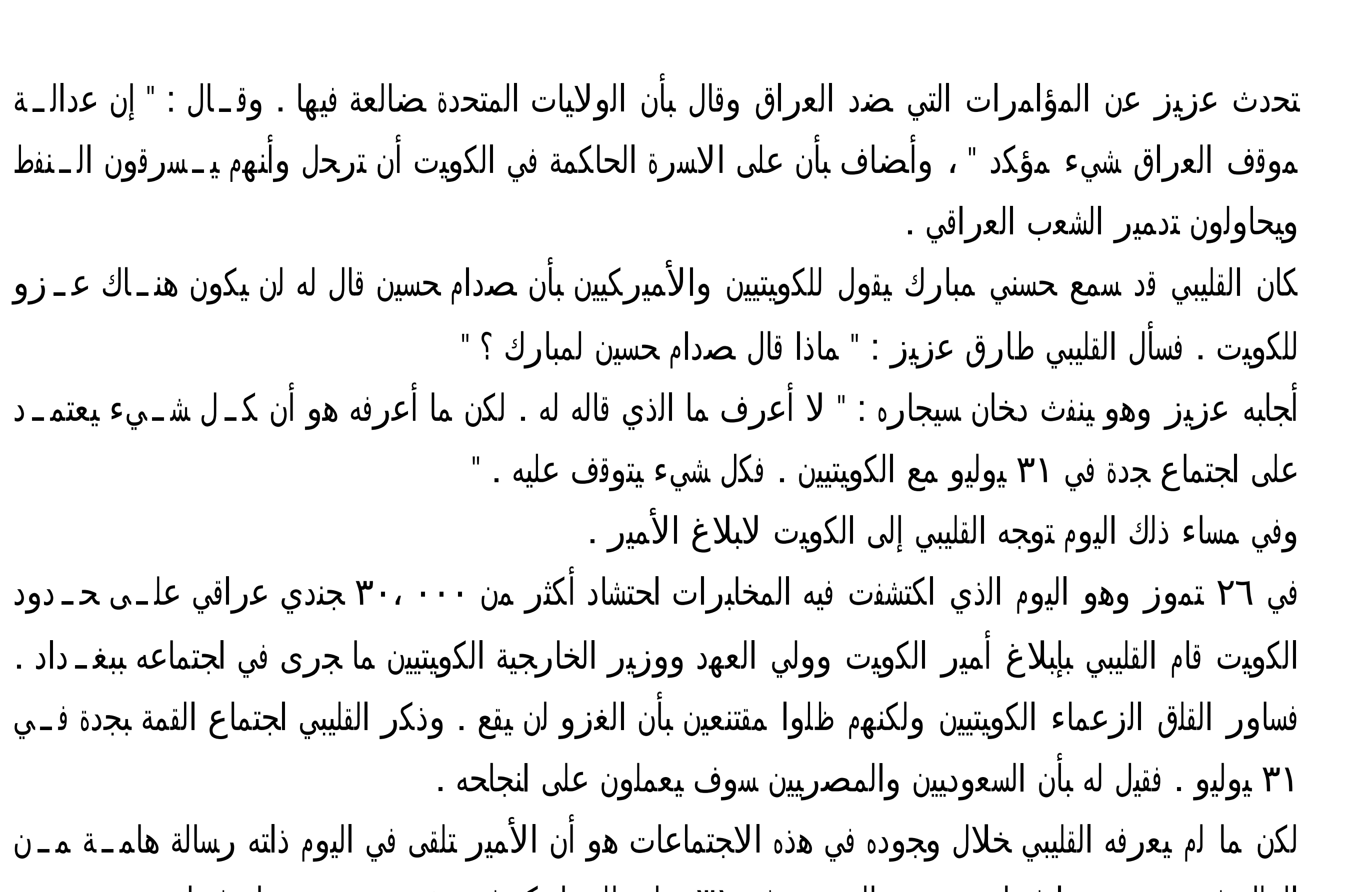
على أن كل ما بقي في ذهن غلاسبي من المقابلة هو هذه الخاتمة المتفائلة ونسيت التهديدات والانذارات التـي أطلقها صدام حسين خلال حديثه . واستأذنت السفيرة بعد أن طمأنت الرئيس العراقـي مـرة أخـرى إلـى أن رسالته ستصل إلى الشخص الموجهة إليه . قالت :

" أعتزم الذهاب إلى الولايات المتحدة يوم الاثنين القادم (٣٠ تموز) . وآمل أن اجتمع مع الرئيس بـوش فـي واشنطن خلال الاسبوع القادم . وقد خطر ببالي أن أؤجل سفري بسبب المـصاعب التـي تواجهنـا . وعليـه فإنني سأسافر يوم الاثنين ."

وأخيرا تبادلت هي وصدام التحيات والتمنيات .

* * *

أمضى الشاذلي القليبي ٤٨ ساعة في الكويت بانتظار وصول وزير الخارجية السعودي لإبلاغه ما جـرى فـي اجتماعاته ببغداد لكنه تركها وهو يشعر بالإحباط لأن الوزير لم يظهـر . وعنـدما انتهـت مقابلـة غلاسـبي للرئيس صدام توجه طارق عزيز بعد أن حضر المقابلة إلى فندق الرشيد لتناول الغداء مع القليبي الـذي كـان قد وصل إلى بغداد في ذلك اليوم . وفيما كان عزيز ينفث دخان سيجاره ويشرب كأسا من الويـسكي واصـل التصلب الذي أظهره في ١٧ تموز عندما سلمه المذكرة.



تحدث عزيز عن المؤامرات التي ضد العراق وقال بأن الولايات المتحدة ضالعة فيها . وقال : " إن عدالة موقف العراق شيء مؤكد " ، وأضاف بأن على الاسرة الحاكمة في الكويت أن ترحل وأنهم يسرقون النفط ويحاولون تدمير الشعب العراقي .

كان القليبي قد سمع حسني مبارك يقول للكويتيين والأميركيين بأن صدام حسين قال له لن يكون هناك غزو للكويت . فسأل القليبي طارق عزيز : " ماذا قال صدام حسين لمبارك ؟ "

أجابه عزيز وهو ينفث دخان سيجاره : " لا أعرف ما الذي قاله له . لكن ما أعرفه هو أن كل شيء يعتمد على اجتماع جدة في ٣١ يوليو مع الكويتيين . فكل شيء يتوقف عليه . "

وفي مساء ذلك اليوم توجه القليبي إلى الكويت لابلاغ الأمير .

في ٢٦ تموز وهو اليوم الذي اكتشفت فيه المخابرات احتشاد أكثر من ٣٠،٠٠٠ جندي عراقي على حدود الكويت قام القليبي بإبلاغ أمير الكويت وولي العهد ووزير الخارجية الكويتيين ما جرى في اجتماعه ببغداد . فساور القلق الزعماء الكويتيين ولكنهم ظلوا مقتنعين بأن الغزو لن يقع . وذكر القليبي اجتماع القمة بجدة في ٣١ يوليو . فقيل له بأن السعوديين والمصريين سوف يعملون على انجاحه .

لكن ما لم يعرفه القليبي خلال وجوده في هذه الاجتماعات هو أن الأمير تلقى في اليوم ذاته رسالة هامة من الملك فهد يرحب هذا فيها بحضوره إلى جدة في ٣١ يوليو للمشاركة في مؤتمر جدة . وجاء فيها :

" في الوقت الذي اتطلع فيه إلى هذا الاجتماع الأخوي أود أن أقول بأنني على يقين تام من أن حكمتكم وبعد نظركم سوف يحققان أهدافنا بمشيئة ا ويرسخان الحب والتفاهم بين الدولتين الشقيقتين ."

ومن الواضح أن الملك قصد التأكيد للأمير على أهمية توصله في مؤتمر الكويت إلى اتفاق مع العراق . لكن الأمير كان قد قرر عدم حضور المؤتمر مما أغضب صدام حسين فيما بعد . ودون ملاحظة على رسالة الملك فهد إليه يطلب فيها من أخيه الشيخ سعد ولي العهد أن يمثله في ذلك المؤتمر . وورد في الملاحظة قوله :

" ينبغي أن نحضر الاجتماع وفقا للشروط السابقة . ومن المهم أن لا ننسى مصالحنا ، وعليه فلا تأبه لما قد يقوله لك السعوديون والكويتيون عن الأخوة والحفاظ على التضامن العربي فلكل طرف مصالح عليه أن يرعاها . إن السعوديين يريدون إضعافنا واستغلال تنازلاتنا للعراقيين وذلك لكي نقدم لهم تنازلات في المنطقة المنزوعة السلاح . أما العراقيون فيريدون تعويض خسائر الحرب من مواردنا . ولن نستجيب لمطالب أي منهما ... وذلك أيضا هو موقف أصدقائنا في مصر وواشنطن ولندن . ونتمنى لك حظا سعيدا ."

وبعث الأمير برسالة إلى الملك فهد يشكره فيها على دعوته ويبلغه بأن أخاه سيمثله ويبدو فيها في غاية التفاؤل بقوله :

" دعني اشكرك وأثني على مجهودك الأخوي وحكمتك وبعد نظرك . ونحن على يقين من اجتماعنا برعايتكم ودعمكم سوف يؤدي بمشيئة ا إلى النتائج المرجوة والى التخلص من المصاعب والى المتبادلة والحب للجميع . "

وكانت الرسالتان والملاحظة لولي العهد مؤشرات هامة على أن قمة جدة لن تنجح .

*   *   *

وفي ٢٧ تموز ارسلت وكالة المخابرات المركزية الأبيض صورا جوية لحشود متزايدة من الرجال والعتاد . فبادرت واشنطن إلى تحذير الكويت ومصر والسعودية . لكن ردود هذه الدول على التحذير أجمعت على استبعاد فكرة الغزو وتحدثت عن " ابتزاز عراقي " للحصول على جزيرتين كويتيتين في الخليج وعلى حقل نفط متنازع عليه . وشاركتهم الرأي وزارة الخارجية الأميركية ومجلس الأمن القومي .

وفي ١٨ يوليو أخذت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية تبدو أكثر دقة وتنذر بالمزيد من الخطر . إذ ذكرت أن الرئيس العراقي أنشأ خطوط إمداد واسعة لقواته العسكرية المتمركزة على الحدود ، كما أشارت بوجه خاص إلى العدد الكبير من الشاحنات الذي يوفر الدعم اللوجستي . وكان وليم وبستر مدير الوكالة مقتنعا بأن مثل ذلك الدعم اللوجستي ضروري إذا كان الغرض من العملية مجرد الترهيب .

وأخذت وكالة الاستخبارات تتلقى معلومات جديدة في كل ساعة تقريبا . وكان مصدر اكثر هذه المعلومات هو من وكالة الأمن القومي .

كانت هذه الوكالة التي تفوق وكالة الاستخبارات كثيرا في حجمها وميزانيتها أكبر وأحدث مركز للمعلومات في العالم . وهي تقوم في " فورت ميد " بالقرب من واشنطن وتتألف ، كالدماغ البشري ، من منطقتين : منطقة اليمين المسماة " كاريبون " ومنطقة اليسار " لودستون " . وكانت لديها أجهزة كومبيوتر ضخمة قادرة على استيعاب ٢٠٠ مليون كلمة في الثانية أي ما يعادل ٢٥٠٠ من الكتب التي يحوي كل واحد منها ٣٠٠ صفحة . وبفضل مراكز التنصت التابعة لها والموزعة في أرجاء العالم وأقمار تجسسها ، كانت قادرة على التقاط الأحاديث السرّية وعلى تحديد تحركات الفرق العسكرية ، مهما صغرت ، في كل نقطة من الأرض . وهي بفضل محلليها ورياضييها ومترجمي رموزها ، وكلهم من أفضل الجامعيين الأميركيين ، تستطيع حتى معرفة دقائق حديث يجري في غرفة مقفلة وذلك بقياس الكتروني لذبذبات زجاج النوافذ بواسطة أشعة غير مرئية .

في ٢٨ تموز نفسه ، قابل ياسر عرفات صدام حسين الذي طلب منه الذهاب إلى الكويت وقال له : " تحدث مع الأمير وأبلغه أنه إذا دفع عشرة مليارات دولار مقابل استثماره حقل الرميلة النفطي على الحدود ، فسوف اسحب بعض قواتي " .

ولم يقل حقل صدام حسين لعرفات بأنه لا يعتزم غزو الكويت .

*   *   *

وفي ٢٩ تموز وصل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى الكويت . واضطر إلى انتظار ساعات طويلة قبل مقابلته الأمير . وما أن بدأ عرفات بعرض الاقتراح العراقي حتى قاطعه الأمير جابر بفظاظة : " لا أريد النقاش في هذا الموضوع . فخلال ثمانية وأربعين ساعة سأكون في طريقي إلى جدة لعقد قمة مع العراق ولنتكلم بدلا من ذلك عن الهجرة اليهودية السوفييتية إلى إسرائيل ".

كان الاحتقار والجفاء يطغيان على لهجة الامير . وبالرغم من المهانة التي شعر بها عرفات فإنه لم يستطع أن يقول شيئا . فالكويت كانت المموّل الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وعند نهاية الاجتماع حاول عرفات العودة إلى الاقتراح العراقي ولكن الامير قاطعه من جديد : " قلت لك بوضوح ، لا أريد الخوض في الموضوع " .

"عليكم دفع مبلغ عشرة ملايين دولار . فالعراقيون خطرون . وأنت تعلم أنني أنا من الكويت وعشت فيها عدة سنوات . حاولوا أن تحلوا المشكلة . " فأجاب الأمير سعد : " أنا ذاهب إلى جدة . " فقال عرفات :

" لا تذهب خالي الوفاض . اقترح حلاً . " فأتى الأمير بحركة تدل على الضجر وقال : " القرار الأخير للأسف ليس بأيدينا " . وكان من الواضح أنه في غاية القلق بسبب تطور الأحداث على ذلك النحو . فسأله عرفات : " هل أنتم مستعدون لمجابهة عسكرية " . فهز سعد رأسه وقال :

" لا لسنا أقوياء كالعراق . ونحن لا ننوي القتال " .

* * *

وبحلول ٣٠ تموز صار بمقدور وكالة الاستخبارات المركزية تكوين صورة تقديرية واضحة للحشود العراقية قرب الحدود الكويتية : ١٠٠،٠٠٠ (مئة ألف) جندي عراقي بينهم قوات النخبة التابعة للحرس الجمهوري ، ٣٠٠ دبابة و ٣٠٠ مدفع ثقيل . وكانت واشنطن لا تزال تلتزم الصمت .

ولم يقطع حبل الصمت إلا عندما دخل جون كيلي في اليوم التالي مبنى الكابيتول ليدلي بشهادته أمام لجنة الشرق الأوسط الفرعية التابعة لمجلس النواب . وبعد أن أدلى بها أجاب بهدوء على الأسئلة التي وجهت إليه وخصوصا أسئلة النائب لي هاملتون الذي قال :

" ورد في الصحف تصريح لوزير الدفاع ريتشارد تشيني يقول فيه إن الولايات المتحدة ملتزمة بالدفاع عن الكويت إذا هوجمت . فهل هذا هو ما صرح به ؟ هل يتفضل السيد كيلي بتوضيح هذا الأمر ؟ " فرد كيلي بقوله :

" لا أعرف التصريح الذي تشير إليه . ولكنني واثق من موقف الحكومة من هذه القضية . ليست هناك معاهدة بيننا وبين دول الخليج . هذا واضح . ونحن ندعم استقلال وأمن جميع الدول الصديقة في المنطقة . ولنا قوات بحرية في المنطقة منذ عهد ادارة ترومان وذلك لأن استقرارها يخدم مصالحنا . ونحن ندعو إلى حل سلمي لجميع النزاعات ونعتقد بوجوب لاحترام سيادة كل دولة في الخليج " . فقال لي هاملتون :

" وماذا سيكون موقفنا من استخدام القوات الأميركية إذا تجاوز العراق مثلا الحدود الكويتية ؟ فرد كيلي بقولـه :

" هذا سؤال افتراضي لا أستطيع التعرض له . واكتفي بالقول بأن هذا سيكون موضع اهتمامنا الـشديد ولكنـي لا أستطيع الخوض في ميادين الافتراض " . فسأله لي هاملتون :

" لكن إذا حدث شيء من هذا فهل يكون موقفنا صحيحا إذا قلنا بأنه لا توجد معاهدة أو التزام يوجب اسـتخدام القوات الأميركية ؟ " فأجاب كيلي :

" هذا صحيح تماما " .

وأذاعت محطة الاذاعة البريطانية (بي بي سي) تصريحات كيلي وسُمعت في بغداد . وعليه ففي هـذا الوقـت الحرج وعندما السلم والحرب في الميزان أرسل كيلي إشارة إلى صدام يمكن اعتبارها تعهـدا بعـدم تـدخل الولايات المتحدة .

ولا يوجد في تاريخ الدبلوماسية الأميركية الحديث سوى خطأ واحد في الحسابات مثل هذا وذلك عنـدما قـال دين أتشيسون وزير الخارجية للكونجرس عام ١٩٥٠ بأن " كوريا الجنوبية ليست في مجال الـدفاع الأميركـي . " وفي اعقاب ذلك قامت كرويا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية .

* * *

وفي اليوم ذاته غادر ثلاثة من المسؤولين العراقيين بغداد إلى جـدة للاجتمـاع بالوفـد الكـويتي ومواصـلة المفاوضات . وكان هذا الاجتماع آخر خيط رفيع يربط العالم " بمنطق السلم " وكان هذا الخـيط علـى وشـك الانقطاع . وقبل موعد الاجتماع بثلاث ساعات فقط أعلن أمير الكويت بأنه لن يحضره وأن ولي العهد سـوف يمثله فيه .

وكان لهذا النبأ وقع " الإهانة القاتلة " على صدام حسين ، وقرر هو الآخر عدم الذهاب إلـى جـدة وإرسـال عزت إبراهيم الرجل الثاني في حزب البعث .

الفصل الخامس

((إنها البداية فقط))

كان مؤتمر جدة حدثا مضطربا مأساويا أدى إلى الحرب لأنه لم يكن بمقدور أحد أن يتجنبها . كمـا أنـه لـم يكن لدى أحد رغبة في ذلك .

واجتمع الوفدان في غرفة بمركز المؤتمرات الحديث في العاصمة السعودية في الساعة السادسة من مساء ٣١ تموز .

وضم الوفد الكويتي الشيخ سعد ولي العهد ورئيس الوزراء ووزير العدل الذي كان قد أظهر حكمة وبعد نظر في خطابه في اجتماع مجلس الوزراء قبل ذلك بثلاثة عشر يوما .

وضم الوفد العراقي بالاضافة إلى عزت ابراهيم - نائب رئيس مجلس قيادة الثورة والرجل الثاني في حـزب البعث - سعدون حمادي رئيس الوزراء ، وعلي حسن المجيد ابن عم صدام حسين الذي سوف يُعين بعد ذلـك بأسابيع قليلة حاكما للكويت .

وبقي الكويتيون والعراقيون في جدة حتى اليوم التالي أي الأول من أغسطس ، لكن المفاوضات الحقيقيـة لـم تدم على أكثر تقدير أكثر من ساعة ونصف من السادسة إلى السابعة والنصف من مساء اليوم الأول ورفعـت الجلسة بعد ذلك وذهب المشاركون إلى الجامع للصلاة .

وحيا الأمير عبد ا ولي العهد السعودي الوفدين لكن لم يكد يبدأ الاجتماع حتى غادر القاعة .

* * *

بدأ العراقيون بالكلام فتلا عزت ابراهيم بياناً مُعدا كرر فيه الاتهامات العراقية للكويت واحدا تلو الآخر . لكن بيانه خلا من أي اتهام محدد . وقرأه ببطء وعناية شديدة وبدون أن يزيد عليه كلمة واحـدة . وجـاءت لغتـه غريبة تتخللها التعابير الدينية . وقال أحد الكويتيين ممن حضروا الاجتماع : " لقد ولد لدينا شـعورا غريبـا . ان عليه مسحة من التزمت بدا معها وكأنه موعظة في أحد الجوامع. "

أحدثت هذه المقدمة في البداية ارتباطا لدى الكويتيين . لكن ما لبث الشيخ سعد ولـي العهـد أن أخـذ يفنـد بهدوء المظالم العراقية واحدة بعد أخرى . وبالرغم من أن الجو لم يكن قد توتر كثيـراً فـان احتمـال فـشل المؤتمر بدا واضحا للجانبين .

قال سعدون حمادي : " إن هذا الاجتماع الذي علقنا عليه الآمال الكبيرة تكشف عن خيبة أمـل شـديدة . لقـد اعتبرناه فرصتنا الأخيرة ، وتوقعنا أن يحمل لنا الكويتيون مشروع حل . كنا على اتصال بهـم وشـرحنا لهـم كل شيء بوضوح . ولكن لم يكن لديهم أي شيء ملموس يعرضونه . ولم يخرج ما كان لـديهم مـن حجـج يدافعون بها عن أنفسهم وادعاءات ببطلان اتهاماتنا لهم " .

وقال الشيخ سعد ولي العهد الكويتي : " دار النقاش حول البترول . وقال العراقيون أيضا بأن الكـويتيين بـدأوا بوضع قوات من الشرطة داخل الأراضي العراقية، وأن الكويت قد غيرت سياسـتها وأن سياسـتها الجديـدة تعرض مستقبل الامارة للخطر وردت على جميع الملاحظات والأسئلة بطريقة مباشرة " .

في إحدى مراحل الاجتماع انتقل المفاوضان الرئيسان إلى غرفة جانبية وتحدثا لمـدة ١٠ دقـائق . ثـم سـأل عزت ابراهيم ، رئيس الوفد العراقي الامير سعد : " ما رأيكم بدعوة أعضاء الوفدين كي يسمعوا ما عنـدكم ؟ " فوافق رئيس الوفد الكويتي . وقد بدا الجو غير العدائي السائد متناقضا مع خطورة المواضيع المطروحة .

بدأ الجو بالتوتر عند طرح الأمور المالية . وبالرغم من نفي الفريقين ، فإن الأمور المالية كانت موضع نقـاش حاد طويل .

طلب عزت ابراهيم مبلغ ١٠ مليارات دولار ، وعلى شكل قرض إن استحال تقديمها كهبة . وبعـد أخـذ ورد وافق ولي العهد على تقديم قرض بمبلغ تسعة بلايين دولار . وأحسّ العراقيون بأن المقـصود مـن إنقـاص

المبلغ ملياراً واحدا هو محاولة مقصودة لإذلالهم ، فأجابه عزت ابراهيم بقوله : " لا لست مخـولا مـن قبـل الرئيس صدام حسين بقبول أقل من ١٠ بلايين دولار " .

وبعد رفع الجلسة في السابعة والنصف وتأدية الصلاة ، عاد الوفد الكويتي إلى الفندق بانتظـار حفـل العـشاء الذي يقيمه الملك فهد .

يقول عبد ا بشارة أمين سر مجلس التعاون الخليجي الذي حضر المناقشات : " اقترحنا علـى ولـي العهـد السعودي تقديم اقتراح يتفق بموجبه الطرفان على النقاط الاربع التالية : وقف جميع الـدعايات العدائيـة فـي وسائل الاعلام وخاصة العراقية ؛ وانسحاب القوات المرابطة على الحدود بين البلدين ، ثم ، وهذا هـو الأهـم سياسيا ، اعتماد إجراءات كفيلة بزرع الثقة المتبادلة بين البلدين بواسطة الحوار والزيارات ... الـخ ، وأخيـرا التوصل إلى اتفاق حول الاجتماع المقبل " .

وهكذا تقرر مواصلة المفاوضات في بغداد ، الأمر الذي رسّخ اعتقاد الكويتيين بأن العراقيين لن ينفذوا أيا من تهديداتهم . والواقع أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار خطورة الوضع والقلق الدولي المتزايد وجدنا أن النقاط الأربـع التي وافق الوفد الكويتي لا تخلو من مسحة خيالية .

وكانت ردود فعل أسواق النفط العالمية على الحشود العراقية على الحدود الكويتية قد بدأت تظهر . ففي ذلـك اليوم الذي كان الوفدان يستعدان فيه لمغادرة القصر الملكي السعودي حيث كان الملك فهد فـي انتظـارهم ، ارتفع سعر برميل النفط ٤٥ سنتا وبلغ سعر نفط برنت حوالي عشرين دولاراً.

بدأ تقديم العشاء في التاسعة والنصف . وحضر الملك فهد ومعه الملك حسين الذي كان قد وصل قبـل بـضع ساعات . وجلس الملك وعلى يمينه ولي العهد الكويتي وعلى شماله عزت ابراهيم . وأحيط المـلك فهـد قبـل جلوسه إلى المائدة علما بمجرى المفاوضات وخصوصا برفض الكويتيين رفع مبلغ القرض مـن تـسعة إلـى عشرة بلايين دولار . وساد المكان جو ثقيل حاول الملك فهد جهده أن يخفف من وطأته بالحديث عـن مبـاهج تربية الخيول الأصيلة وتوالدها . لكن تبادل الحديث انقطع . وظل الملك يتحدث وكأنه يتحدث مـع نفـسه - إذ لاذ العراقيون بالصمت وخيم على الكويتيين جو من الكآبة وتشتت الفكر - وكان الفريقـان يحـاولان إخفـاء شعورهما بخيبة الأمل بالرغم من أن أحد المفاوضين الكويتيين ادعى فيما بعد بأن العراقيين كانوا فـي قـرارة نفوسهم مسرورين - قال : " كانوا على وشك الانتهاء من اجتماع انتهى إلى الجمود . وهذا بالضبط ما كـانوا يريدونه " .

وقبيل انتهاء المأدبة التفت الملك فهد إلى ضيوفه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وأعلـن أن الـسعودية سـتدفع البليون دولار المختلف عليه - " كهدية من بلادي للعراق وبدون أية شروط " .

فشكره العراقيون بحرارة . وبعد قليل انسحب إلى داخل القصر . ولا بد أنه ظن أن مبادرتـه كافيـة لتنفـيس الاحتقان لدى الوفدين . وكان هذا أيضا تقدير الملك حسين الذي نهض أيـضا وتـرك الكـويتيين والعـراقيين وحدهم .

فقال الشيخ سعد لعزت ابراهيم : " قبل أن نضع التفاصيل المتعلقة بالقرض علينا أن نطـرح للبحـث مـسألة أخرى . علينا أن نرسم بالضبط الحدود بين البلدين - ويمكننا أن نقوم بذلك الآن وفي هذا الاجتمـاع . ومـن ثم يكون المبلغ بين أيديكم " . فاستولى الغضب على عزت ابراهيم واتهم الكويتيين بسوء النيـة وسـأل ولـي العهد الكويتي : " لماذا لم تطرحوا مسألة الحدود في بداية الاجتماع ؟ " .

وجاء جواب ولي العهد الكويتي غريبا . قال : " لم تكن لدينا أوامر من الأمير بمعالجة هذه القضية عنـد بـدء الاجتماع " .

فاشتدت حدة النقاش وقال ولي العهد الكويتي بأن الكويت تلقت تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن العراق لـن يهاجم . ولا ريب في أن عبارته هذه كانت مؤسفة واستفزازية - وقال له عزت ابراهيم : " إننا نعـرف تمامـا كيف نحصل على المال الذي نحتاج إليه منكم ومن السعوديين ".

وعندما قال هذا كان هو وسعد يقفان أحدهما قبالة الآخر وهو يصيح غاضبا . فأجابـه سـعد : " لا تهـددنا . فالكويت لها أصدقاء أقوياء جداً (ومن المؤكد أنه كان يقصد الولايات المتحدة وبريطانيـا) . ولـدينا حلفـاء أيضا . وسوف تضطرون إلى تسديد ما عليكم من ديون لنا " .

كانت هذه التهديدات آخر ما صدر عن الطرفين . وافترق الوفدان بدون أن يتبادلا التحيـات الرسـمية وعـادا إلى فندقيهما . وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل والملك فهد غارق في النوم .

وفي العاشرة من صباح الأول من أغسطس وبينما كان سعدون حمادي في غرفته بالفندق تلقى مكالمة هاتفيـة من وزير خارجية الكويت الذي اقترح إصدار بيان مشترك ، وذكر النقاط التـي يـرى أن يـشتمل عليهـا . وأصغى حمادي باهتمام . وفوجئ بعبارة وردت فيها وتشير إلى " إحراز تقدم " فقـال بـأن عليـه أن يتـصل برئيس وفده .

وذهب سعدون إلى غرفة عزت ابراهيم وأبلغه الاقتراح الكويتي . فقال عزت ابراهيم : " هذا ليس صـحيحا . لم نستطع تسوية شيء . لا نستطيع أن نفعل ذلك " .

واتصل حمادي بالوزير الكويتي وأبلغه بأن لكل وفد أن يصدر بيانه ويصرح للصحافة بما يشاء .

وغادر الوفد الكويتي جدة في الساعة الرابعة بعد الظهر . وحال وصوله إلى الكويت توجه ولي العهـد إلـى مكتب الأمير بقصر بيان الذي شيد عام ١٩٨٦ ليكون مقراً للمؤتمرات . وكان خلال رحلة العودة يبـدو قلقـا وقال لاعضاء الوفد : " إنني أرى في الافق شبح الكارثة " .

* * *

في صباح الأول من أغسطس أيضا كان الشاذلي القليبي في القاهرة . وكان قد وصل إليها قبل ذلـك بيـومين للمشاركة في مؤتمر إسلامي يهدف إلى العودة إلى وحدة الصف العربي . وعندما أفاق في صباح ذلك اليـوم قرأ في أخبار الصباح أن قمة جدة لم تسفر عن أي اتفاق . وكان قبل ذلك على يقين بأن الاجتماع سيسفر عـن التوصل إلى اتفاق . فأقلقته الأخبار الواردة من السعودية . فرفع سماعة التلفون واتصل بالشيخ صباح وزيـر

الخارجية الكويتية . فهدأ الشيخ صباح مخاوفه وقال له بأن اجتماع جدة لم يكن سوى اجتماع بروتوكولي وأنـه سيكون هناك في الرابع من أغسطس اجتماع آخر ببغداد حيث - كما أضاف - سيجري التوصل إلـى حـل .
وأعاد القليبي السماعة إلى مكانها وهو يشعر بتفاهة ما سمعه . فأجرى مكالمة ثانيـة مـع الأميـر عبـد ا بالسعودية ، وسأله عما جرى في اليوم السابق . وجـاء الجـواب صـريحا : " كـان أصـدقاؤنا العراقيـون كالكويتيين في غاية التشدد . وما هذا سوى البداية . فلننتظر ما سيجري في بغداد " .

* * *

وغادر العراقيون السعودية بدون حتى وداع مضيفهم . تركوا جدة قبل الظهر . وبعد أن توقفـوا قلـيلا فـي المدينة المنورة (لأن سعدون حمادي كان شيعيا تقيا) واصلوا رحلتهم ، فوصلوا بغداد في الرابعة بعد الظهر . وتوجه عزت ابراهيم على الفور للاجتماع بصدام حسين الذي كان ينتظره بفـارغ الـصبر وأطلعـه علـى أسباب فشل الاجتماع بالتفصيل . فاستدعى صدام حسين أعضاء مجلس قيادة الثورة . وقبـل مـرور نـصف ساعة كان قد اتخذ قرار غزو الكويت في تلك الليلة .

* * *

وفي اليوم ذاته ارتفع سعر البترول ٦٠ سنتا ولم يسمع في العبدلي نقطة الحدود الوحيدة بـين البلـدين والتـي تبعد ٤٥ ميلا عن الكويت عن وقوع حوادث . وواصلت السيارات مرورها بشكل عادي .

* * *

وفي اسرائيل شاعت قصة مسلية عن خبير خطوط طلب منه أن يفحص خط صـدام حـسين لكـن بـدون أن يعرف أنه خطه . فقال بعد فحصه : " إن كاتب هذا بحاجة إلى مساعدة طبية نفسانية " . وحتى هذا الوقـت لـم يبد القلق على الاسرائيليين ولم يبدأوا بالتعبئة . ففي ذلك اليوم ذاته تزوج الميجر جنرال أمنون شـاهاك رئـيس المخابرات العسكرية . وفي حفل الاستقبال الذي أقيم سأله الصحفيون عما إذا كانت الـبلاد معرضـة للغـزو العراقي . فاعتبر السؤال مسليا وأجاب بالنفي . وبعد ذلك ببضع ساعات ذهب لقضاء شهر العسل .

* * *

وصل جيمس بيكر إلى اركوتسك (في قلب سيبريا) الساعة السابعة مساء (حسب التوقيت المحلي) لإجـراء محادثات مع نظيره السوفييتي ادوارد شيفارنادزه . ولم يخطر ببال أي منهما أن هـذه المدينـة اللطيفـة ذات الشوارع العريضة والأبنية الداكنة ستشهد أول اختبار حقيقي للعلاقة الأميركية السوفييتية الجديدة .
فقد صرح جورج بوش وميخائيل غورباتشوف في كثرة من المناسبات أن " عهدا جديدا قد بدأ " . ولم يخطـر ببالهما أنها ستبدأ بهذه الطريقة المأساوية . وكانت أخبار ما يجري في الخليج تصل إلى بيكر على خط خـاص يصله بواشنطن . فأخذ يشعر بأن الأمور تتخذ منحى خطيراً .
التقى بيكر بشيفارنادزه على عشاء خاص . ومنذ أصبح شيفارنادزه ذو الشعر الأبيض والابتـسامة العريـضة وزيراً للخارجية قبل ذلك بخمس سنوات أثبت أنه مفاوض رائع . هذا بالرغم من أنه لـم يجـر إعـداده لهـذا

المنصب . إذ سبق له أن كان ضابطا في المخابرات الروسية (KGB) ووزيـرا للداخليـة وزعـيم جمهوريـة جورجيا حيث حكم بطريقة قمعية . وجلس الاثنان في المقعد الخلفي لـسيارة زيـل التـي اخترقـت شـوارع اركوتسك والإعلام الأميركية ترفرف في وجه الرياح الباردة .

أخذت الاحداث تتوالي بسرعة ، وبدأت الولايات المتحدة تنفض عن نفـسها غبـار الخمـول وتـولي تطـور الاحداث اهتماما شديداً . وعقد اجتماع في وزارة الخارجية لمديري مختلف الوكالات المعنية ففـشل مـؤتمر جدة وحجم الحشود العراقية على الحدود أقنع المسؤولين الأميركيين بان هدف صدام ليس مجرد الضغط علـى الكويت . وتلقى المجتمعون معلومات من وكالة المخابرات المركزية مفادها أن غزو الكويت صـار وشـيك الوقوع .

وفي البنتاغون عقد الجنرال كولن باول رئيس الأركان اجتماعا مغلقا مع كبار العسكريين في غرفـة مجـاورة لمقر القيادة العسكرية . وكانت الغرفة هي غرفة المؤتمرات المعروفة باسم (المصفحة) هي صومعة نظـام الدفاع الأميركي المحصنة ضد أي محاولة للتنصت .

حتى ٣٠ تموز لم يكن البنتاغون يعتبر الغزو العراقي أمرا محتمل الوقوع . فقد ذهب المحللون بـأن العـراق يفتقر إلى أربع أمور أساسية وهي : نظام للاتصالات ، ومدفعية ، وذخيرة ووسائل لوجستية ضـرورية لـدعم الهجوم . وبالرغم من توافر هذه العناصر في الأول من أغسطس فإنه لم يتنبأ أحد بالغزو . والواقـع أن أحـد الحاضرين ـ وهو الجنرال نورامان شوارزكوف ـ عاد إلى مقره في فلوريدا .

وفي تلك الأثناء دعا مضر بدران رئيس الوزراء الأردني إلى عقد جلسة مغلقة للبرلمـان وسـبق لمـضر أن رافق الملك حسين في رحلاته إلى العواصم العربية للوساطة . وكان قبل ذلك بيومين قد زار بغداد والكويـت بالتعويض عن خفض أسعار البترول . وهو لا يريد الغاء ديونه فقـط . إنـه يـصر علـى تجـاوز الكويـت والإمارات الحد في الانتاج عملا أسوأ من الحرب مع إيران " .

وواصل عرضه لمواقف العراقيين لمدة ثلاث ساعات . وقال أحد الحاضرين فيما بعد : " كان مـن الواضـح أنه يعرف بأن الغزو سيقع في الساعات القليلة المقبلة وأنه أراد أن يهيئنا لذلك " .

ومن المصادفات الغريبة أن المخابرات العسكرية الإسرائيلية علمت بأن الغزو وشيك الوقـوع مـن مـصادر أردنية بعد ظهر اليوم ذاته . وعملا بالاتفاقات القائمة منذ عدة سنوات قامت فـي الحـال باخطـار المركـز المحلي لوكالة المخابرات المركزية الأميركية .

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساء في واشنطن عندما خـرج ريتـشارد هـاس المـدير الأعلـى لشؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي من الاجماع بوزارة الخارجية وعـاد إلـى البيـت الأبـيض للاجتماع مع رئيسه الجنرال برنت سكوكورفت . وهناك قدم تقريرا مفصلا عن مختلف بيانات ووجهات نظـر الذي حضروا الاجتماع . وتبين شيء واحد وهو أنه ليس هناك إجماع على أن العراق هـو مجـرد عـرض للعضلات لإجبار الكويت على تقديم تنازلات في المفاوضات .

وبعد نصف ساعة غادر سكوكروفت وهاس مكاتب مجلس الأمن القومي بالدور الأرضي وصعدا للاجتمـاع ببوش في مسكنه بالدور الأول من المبنى الرئيسي . وبينما كان ثلاثتهم يناقشون نتائج الاجتمـاع ودلالاتـه رن جرس التلفون وعندما رفع سكوكروفت السماعة سمع صوت روبرت كيميت سكوكروفت أنه تلقى معلومـات لم تتأكد بعد عن وقوع أول إطلاق نار بالكويت .

كان كيميت قد اتصل قبل ذلك بوقت قصير ببيكر في اركوتسك حيث كانت الساعة تشير إلـى الـسابعة مـن صباح الثاني من أغسطس . وبما أن خط التلفون لم يكن مأموناً بسبب امكان التنصت إليه كان عليـه أن ينقـل معلومات محدودة بعبارة غامضة . لكن بيكر فهم فحوى الرسالة : جميع الدلائل تشير إلى أن الغـزو أصـبح وشيكا .

وبعد ذلك بنصف ساعة إجتمع بشيفارنادزه للمرة الثانية وأبلغه ما سمعه مـن واشـنطن . قـال بيكـر : " إن مخابراتنا تقول بأن القوات العراقية المحتشدة على الحدود الكويتية تتلقى الامدادات باستمرار . ومن المتوقـع وقوع الغزو . نأمل كبح جماح العراقيين " .

كان وزير الخارجية صديقا لجورج بوش . وكان كلاهما نموذجا صادقا للمجتمع الراقي في الـساحل الـشرقي وله القدرة على التعبير عن الوقائع الدرامية باسلوب لا أثر فيه للانفعال . وتحـدث بيكـر عـن الأمـر مـع شيفارنادزه الذي صار يكن له الاحترام بكلمات محسوبة كما لو كان يتحدث إلى زميل له مـن أيـام الدراسـة ببرنستون .

واستمع شيفارنادزه إلى بيكر بمزيج من عدم التصديق والاحراج . وأجابه بأن الزعمـاء الـسوفييت يعرفـون صدام حسين منذ زمن طويل وأضاف وهو يبتسم : " إنه يتعامل معنا . وأنا أثق فيه . ولا أعتقـد أنـه يعتـزم غزو الكويت " .

وفي أعقاب ذلك مباشرة عقدا مؤتمرا صحفيا وهما لا يعرفان أن غزو الكويت قد وقع بالفعل .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة عندما تلقى الرئيس بوش وزمـيلاه معلومـات اكثـر تفـصيلا مـن دوائـر المخابرات تؤكد أبعاد الغزو . إذ لم يكتف صدام باحتلال الحدود بل تجاوز إلى اجتياح البلاد .

* * *

في مدينة الكويت استيقظ ولي العهد في الساعة الواحدة والنصف صباحا (العاشرة والنصف مـساء بتوقيـت غرينتش ، والسادسة والنصف مساء بواشنطن) عندما تلقى مكالمة مقلقة من وزير الدفاع الذي كان يتكلم مـن مركز القيادة العسكرية يقول فيها بأن صدام يريد الاستيلاء على آبار النفط القريبة من الحدود وربمـا أيـضا على جزيرتي بوبيان ووربة عند مدخل الخليج اللتين كان يطمح إلى الحصول عليهما منذ سنوات .

اتصل ولي العهد سعد على الفور بعدد من افراد الاسرة الحاكمة . وكان الذهول قد سيطر علـيهم جميعـا . وازدادت حدته عندما أخذت الأنباء ترد بالتدريج عن تحرك مئات الدبابات الثقيلة السوفييتية الصنع من طـراز

ت ٦٢ إلى الكويت . وكانت على بعد ٣٥ ميلا من العاصمة ترافقها شاحنات تحمل مئات الجنـود والعربـات المساندة المليئة بالبترول والماء .

* * *

أذاع راديو بغداد بيانا أعلن فيه أن " جماعة كانت تحاول قلب الحكومة الكويتية " . وقبل مضي وقـت طويـل أصدر مجلس قيادة الثورة بيانا يقول إن المحاولة نجحت وإن " الثوار الشباب يطلبون المساعدة مـن العـراق . وردا على نداء الحكومة المؤقتة الجديدة في الكويت قرر العراق تلبية طلبهم للمـساعدة " . وأضـاف البيـان بشكل محدد : " لقد دعا العراق إلى منع كل إمكان للتدخل الأجنبي في شؤون الكويت وفي مصير الثـورة " . وأدانت إذاعة بغداد آل الصباح وقالت " إنهم خونة وعملاء للصهيونية ".
وتم بسرعة تحييد القاعدتين الجويتين الرئيسيتين في الكويت . فاحتلت وحدات المظليين قاعـدة أحمـد الجـابر قرب المطار بدون أية مقاومة .
وقصفت قاعدة علي السالم قرب الحدود السعودية قصفا ثقيلا قبل نزول المروحيات المحملة بالجنود .
وبعد الغزو مباشرة هبطت طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية وهي في رحلتهـا رقـم ١٤٩ إلـى كـوالا لامبور في مطار الكويت الذي يبعد ثمانية أميال عن العاصمة . وكانت الطائرة من طراز بوينغ ٧٤٧ وعلـى متنها ٣٦٧ راكبا وطاقم يتألف من ثمانية عشر شخصا . وبعد هبوطها على المدرج في الساعة الثانية صـباحا ببضع دقائق أخذت الطائرات العراقية تقصف المطار بينما كان طابور مدرع يتجه إليه . فوقع المسافرون فـي الفخ وصار من الممكن تحويلهم إلى رهائن .
ولم يبد الجيش الكويتي المؤلف من ٢٥٠٠٠ جندي سوى مقاومة ضئيلة لآلة الحرب العراقية .

* * *

في الرابعة صباحا تبين لولي العهد وباقي أسرة آل الصباح أنه لا أمل في وقف الحرب . وكانوا على اتـصال دائم بواسطة التلفون بالسفارة الأميركية . وعندما عُلم بأن طلائع القوات أصبحت على بعد بضعة أميـال مـن العاصمة قرر الأمير وأقرب أفراد أسرته إليه مغادرة قصر دسمان المسوّر حيث كان يعيش عدد مـن أفـراد الأسرة الحاكمة . وأخذ أفراد الحرس الأميري مواقعهم حول القصر . لكن لم يكن لدى أي مـنهم أمـل فـي الدفاع بشكل فعال ضد النيران العراقية . وأخذ الخوف يحل محل الذعر . وصـارت تتلـو الأوامـر أوامـر مضادة : فهل كان عليهم مغادرة القصر في الحال أو الانتظار ؟ وهل كان عليهم الاتصال بإحـدى القاعـدتين الجويتين العسكرية لإعداد طائرة ؟ وكان الأمير قد فقد ثقته بالقوات الجوية ، فقـال بأنـه يحتمـل أن يكـون العراقيون قد حيدوها.
ربما كان آل الصباح عندئذ يعيشون في غرف القصر التي تتلألأ أضواؤها اللحظات الأخيرة من عهـد امـارة دامت قرنين ونصف قرن من الزمن . فبفضل الذهب الأسود والدخل القومي الذي لا يقل عن عشرين بليـون من الدولارات كانت الكويت قد أصبحت أغنى دولة في العالم . لكن النفط الذي عـاد عليهـا بـالثروة طيلـة

سنوات أصبح سبب سقوطها . ففي حين أن الجميع كانوا يحسدونها ، فإن المسؤولين فيها فقدوا القـدرة علـى الرؤية ، والرغبة في التوصل إلى حلول وسط . ولم يدركوا أنهم كانوا فريسة سهلة تنتظر من ينقض عليهـا . وكان صدام حسين بالمرصاد .

وأرعب صوت القذائف من في القصر . وأخذ تبادل نيران الأسلحة الأتوماتيكيـة يقتـرب . ولاحـت أعمـدة الدخان المتصاعدة . وتعرضت المباني والمستودعات لإصابات مباشرة . ولم يعد لدى آل الصباح أدنى شـك فيما يحدث : لقد كان قصر دسمان أحد الأهداف وربما الهدف الأول الذي حدده صدام لقواته . إذ كان يـدرك أن الاستيلاء على الكويت لن يتم بدون إزالة المسؤولين عن امارة تافهة .

وانهمك الخدم في تحميل عدد من السيارات المتوقفة عند مدخل القصر . وفي الساعة ٤٥: ٤ صـباحا انطلـق آل الصباح ربما لآخر مرة مسرعين بسيارات الليموزين عبر الحدائق الرائعـة المحيطـة بالقـصر . وشـق الموكب طريقه عبر الشوارع المهجورة إلا من بعض الوحدات المدرعة المتجهة إلى جبهة القتـال الزاحفـة عليهم .

كانت جميع التفصيلات قد وضعت وأجريت آخر مكالمة تلفونية قبل الانطلاق مباشـرة . فتوقفـت الـسيارات أمام باب السفارة الأميركية حيث كان السفير بانتظارهم فحيا الأمير وحاشيته . وكانت بانتظـارهم علـى بعـد خطوات مروحية أميركية متأهبة للانطلاق . ولما لم يكن فيها متسع للجميع فقد استقلها الأمير وولـي العهـد وعدد من افراد الحاشية ، وتوجه الأخرون بالسيارات جنوبا إلى السعودية . وكانت الحدود على بعد ٣٠ مـيلا فقط والطرق إليها لا تزال آمنة . وعندما أقلعت الطائرة بالأمير الذي كان قد أضـناه مـا مـرّ بـه ويـشعر بالانهاك ، ألصق وجهه بزجاج إحدى النوافذ وأخذ يراقب طوابير الجنود العـراقيين وهـي تـدخل ضـواحي عاصمته .

وبسبب الفارق في التوقيت فإن اليابان كانت أول دولة صناعية ومالية كبرى تعرف تفاصيل الاجتياح . فبينمـا كانت الولايات المتحدة تستعد للنوم وأوروبا غارقة فيه ، أخذت اليابان تتابع الأحداث ساعة فـساعة . فبالنـسبة لليابان التي تستورد ٨٠ % من حاجاتها النفطية من الخليج بسبب عدم توافر المواد الخام فيها ، اعتبـرت مـا يجري من أحداث مأساوية أمرا في غاية الخطورة . وفي الاسواق حيث تجري عمليات بيـع الـنفط وشـراؤه ارتفعت أسعاره كثيرا ، وسرت آثار ذلك إلى الاسواق المالية في الشرق الاقصى كما تسري النار في الهـشيم . ولم يلبث ذلك أن انعكس في الثاني من أغسطس على العالم كله .

كان الملك حسين نائما في قصره وسط عمان رن الهاتف الموضوع إلى جانب سريره . فنظر إلى المنبه وهـو شبه نائم فوجده يشير إلى السادسة صباحا . وكان وزراؤه والمقربون إليه قد تلقوا منذ زمن طويـل تعليمـات صارمة بأن لا يزعجوه أو يوقظوه بالتلفون إلا في حالات الطوارئ .

كان صوت المتحدث على الطرف الآخر يطغى عليه الانفعال إلى حد أن الملك لـم يعـرف للوهلـة الأولـى صاحبه الذي كان يصرخ : " هل سمعت ؟ هل سمعت ؟ " فأدرك الملك حسين أن المتحدث هو الملـك فهـد .

وكان هذا يتحدث إليه من جدة فأضاف : " لقد غزوا الكويت ولا يبعد الكويتيون سـوى بـضعة أميـال عـن العاصمة . عليك أن تتصل بصدام حسين وأن تطلب منه أن ينسحب إلى منطقة الحدود المتنازع عليها " .
حاول الملك حسين تهدئة الملك فهد الذي قد حاول جاهداً الاتصال بصدام حسين . فوعد الملـك بالتـدخل فـي الحال .

* * *

عندما نشبت الحرب كان الشاذلي القليبي غارقا في النوم بالقاهرة فلم يستطع حتى ان يـسمع جـرس التلفـون عندما بدأ يدق في جناحه حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحا . وحدث عندئذ بالـضبط أن عـاد مـساعده شوقي المرزوق من حفلة فوجد التلفون يرن أيضا في غرفته . وكان المتحدث عبد الرحمن العوضـي وزيـر الصحة الكويتي الذي قال : " أحاول الاتصال بالقليبي ولكنه لا يجيب. أرجو أن توقظه " . فـسأله المـرزوق : " وهل الأمر خطير؟ فقال العوضي : " اجل وخطير جداً " .
وعندئذ أسرع المرزوق إلى جناح القليبي وأيقظه ووصله بالعوضي . فأبلغه هذا خبر الغزو . فقاطعه القليبـي : " لا بد أن يكون ذلك للاستيلاء على المناطق الحدودية فقط " فقال العوضي : " لقد اجتاح الكويت بأسـرها . ونحن بحاجة إلى عقد اجتماع في الحال لوزراء خارجية الدول الأعضاء بالجامعة العربية " .
ووضع القليبي السماعة والتفت إلى المرزوق وقال : " إنه يبالغ، إنه يحاول إخافتنا . " فعلق المـرزوق علـى ذلك بقوله إنه يصدق العوضي . على أنهما عندما فتحا الراديو بعد ذلك لم يسمعا شيئا عن الموضوع .
وحوالي السادسة والنصف صباحا استطاع القليبي أخيرا أن يتصل بالأمير فيصل وزير الخارجية الـسعودية . فقال الأمير : " يا لها من كارثة . انهم يستولون على البلاد ، ولا ريب على البلاد برمتها " . وعندئـذ صـدق القليبي خبر وقوع الكارثة . فاتصل تلفونيا بمروان القاسم وزير الخارجية الأردنية الذي كان قد غادر القـاهرة في الليلة السابقة ، وطلب منه إبلاغ الخبر للملك حسين . وعندئذ قرر مـروان القاسـم أن يخـالف القواعـد ويتصل بالقصر بالتلفون بالرغم من عدم وثوقه من الطريقة التي سُيستقبل بها اتـصاله . ففـوجئ بـأن لـدى الملك علم بذلك .
وفي السادسة والنصف حاول الملك الاتصال ببغداد . وكانت لديه عدة أرقام توصله عـادة بـصدام حـسين . فطلبها كلها ولكنه لم يوفق في الاتصال به . ولم يستطع الاتصال إلا بطارق عزيز وزير الخارجية .

* * *

لم يعلم صدام شيئا عن محاولات الملك الاتصال به . فقد كان مرابطا في الحصن المنيع الذي بناه قرب بغـداد . وكان يتوسط أعضاء مجلس قيادة الثورة وكبار ضباط الجيش وهو يتابع تقدم قواته داخل الكويت . وبحلـول الساعة السادسة والنصف كان الغزو قد نجح ، وسيطرة قواته فعليا على البلاد بأسرها ، وبدأت بالقضاء علـى جيوب المقاومة في العاصمة . ولم يستطع صدام أن يخفي سروره وهو يستمع إلى ما توررده الاذاعـات عـن أخبار الجبهة . فالدولة التي استولى عليها كانت صندوقا بداخله كنوز خيالية . هذا بالإضافة إلـى أنهـا كانـت

في نظره جزءا لا يتجزأ من الاراضي العراقية . لكن يرجح أنه لم يدرك أنه بإصلاحه الخطأ الـذي اقترفتـه الدول الاستعمارية كان يتحدى باقي العالم .

* * *

في واشنطن كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف من مساء الأول مـن أغـسطس . وفـي حـوال التاسعة من ذلك المساء توجه ريتشارد هاس وبرنت سكوكروفت مباشرة بعد اجتماعهما بجـورج بـوش إلـى قاعة المؤتمرات في الدول الأرضي . كانت تحيط بها عدة غرف على جـدرانها خـرائط ضـخمة لمختلـف المناطق في العالم . وكانت المعلومات التي ترد إلى البيت الأبيض كل صباح من دوائر المخابرات تنقل علـى تلك الخرائط . وكانت القاعة مجهزة بالكمبيوترات الاكثر تطورا والتي تمكن من في القاعة من الاتصال فورا بأي بقعة على وجه الأرض .

وأقيم في الحال فيديو للاتصالات بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البنتاغون) ووزارة الخارجيـة ووكالـة المخابرات المركزية ومقر رؤساء الاركان .

وكان المشاركون في الاجتماع إلى جانب سكوكروفت وهاس ، جون روبسون وكيل وزير المالية ، وروبـرت كيميت نيابة عن جيمس بيكر ، ووليم وبستر مدير وكالة المخابرات المركزية ، ونائبه ديك كيـر ، والأميـرال ديف جيرميه نائب رئيس الأركان ، وبول ولوفتر وكيل وزير الدفاع .

كان باستطاعة هؤلاء جميعا وكل منهم في مكتبه أن يتحدثوا وأن يتبادلوا ويقارنوا المعلومات بواسـطة فيـديو الاتصال . وسرعان ما أكدوا من وقوع الغزو ونطاقه . وقام برنـت سـكوكروفت بتنـسيق مختلـف الآراء والمعلومات مما أسبغ على الاجتماع ما يتميز به من وكان سكوكروفت يغادر القاعة بانتظام للاتصال بجـورج بوش الذي كان قد بقي في مسكنه . وفي الساعة الحادية عشرة اتصل به للمرة الأخيرة قبل أن يذهب للنوم .

اتفق المشاركون على اتخاذ عدة إجراءات منها عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن القومي فـي الثامنـة مـن صباح اليوم التالي . وتقرر تجميد جميع الأرصدة العراقية والكويتية قبل أن يضع الغزاة أيديهم عليها . ولكـن تنفيذ القرار كان يستدعي عملية تنسيق فورية على نطاق العالم كله .

وكانت السلطات الكويتية قد جرت منذ عدة سنوات على تخصيص ١٠ % من دخول النفط من أجـل قـضيتين : إحداهما ويا لسخرية القدر وقدرها ٢ % لتقديم قروض للعراق خلال الحرب مع إيـران ، أمـا الـ ٨ % الباقية فكانت تحول إلى " صندوق الاجيال المقبلة " الذي يديره مكتب الاستثمارات الكويتيـة ، وهـو شـركة قابضة عملاقة مركزها لندن .

وحسب التقديرات كانت القيمة الكلية للاستثمارات التي يديرها مكتب الاستثمارات تبلغ مئة إلى مئة وعـشرين بليون دولار . وكان نصيب الولايات المتحدة ١٠ % من جميع تلك الاسـتثمارات . إذ كانـت الكويـت قـد استثمرت بين ٢٥ و ٣٠ بليون دولار في أميركا في الأسهم وسندات الخزينة والعقـارات . وكانـت الكويـت المستثمر الأكبر في اسبانيا حيث كان الكويتيون أعضاء في مجالس عدد من الشركات الكبـرى وفـي بعـض

الميادين الحساسة كالصحافة والدفاع والمركبات الهيدرو- كربونية . ولعب مكتب لندن للاستثمارات دورا حيويا في الحياة الاقتصادية ومجال الأعمال ببريطانيا . فقد كان بحيازته عدد كبير من الأسهم وخاصة أسهم شبكات البنوك والفنادق . ومضى وقت كان بحيازته ٢٢ % من أسهم شركة " بريتش بتروليوم " فاضطر إلى تخفيضها إلى ٩ ، ٩ % بسبب غضب الحكومة البريطانية وموقفها العدائي . وفي ألمانيا كان مكتب الاستثمارات مساهما في كثرة من الشركات الكبرى مثل دملر - بنز وهوست . وكانت الكويت أيضا أكبر مستثمر أجنبي في اليابان وذلك في سندات الخزينة والاسواق المالية . ويمكن القول بأن المكتب تمكن هو وفروعه من اختراق الأقطار الرأسمالية الرئيسة بما فيها جنوب افريقيا في غضون بضع ساعات غير صدام ميزان القوى . فباستيلائه على آبار النفط الكويتية صار يسيطر على أكثر من خمس ما ينتجه العالم من النفط. وعلاوة على ذلك كانت الاستثمارات الكويتية كفيلة بتزويد صدام بموارد مالية ضخمة لطموحاته العسكرية ، وبوسائل إضافية لممارسة الضغط على الاقتصاد في الغرب .

* * *

ولمواجهة هذا الخطر تحرك المسؤولون الأميركيون بسرعة . فجرى ايقاظ عدد من المسؤولين الذين يعيشون في واشنطن وضواحيها في منتصف الليل واستدعوا إلى البيتالأبيض. وكان جميعهم من المحامين الذين يعملون في وزارة العدل . ولم يكن أحد مهم يعلم تماما وهو يتقدم نحو ضباط الأمن على باب البيت لماذا استدعي . وفي غضون دقائق عرفوا أن المطلوب منهم هو القيام بأقصى سرعة ممكنة بإعداد وثيقة قانونية يوقعها الرئيس وتجيز تجميد جميع الأرصدة العراقية والكويتية على أراضي الولايات المتحدة . وكانت هذه خطوة معادية لبغداد تهدف إلى حماية مصالح الحكومة الكويتية التي أصبحت الآن في المنفى .

وبينما كان المحامون منكبين على عملهم أخذ روبسون وكيل وزير المالية يتصل بالتلفون بحكام البنوك المركزية في العواصم الأوروبية والآسيوية . وعلم غالبيتهم بالغزو عندما فاجأهم روبسون بالاتصال بهم في مثل ذلك الوقت المبكر من صباح اليوم . روبسون يطلب منهم اتخاذ إجراءات مماثلة بأسرع ما يمكن لتجميد جميع الأرصدة قبل أن تأخذ بغداد بزمام المبادرة عبر الوسطاء الذين يهيمنون على الكويت .

وأوقظ جورج بوش في الساعة ٤٥ : ٤ صباحا بعد أن تم إعداد الوثيقة . فوقعها وبذلك أصبحت الأرصدة مجمدة بالفعل . وقام مكتب الصحافة بالبيتالأبيضبصياغة بيان يعلن ذلك .

وبينما كان بوش يوقع الوثائق التفت إلى الجنرال برنت سكوكروفت رئيس مجلس الأمن الذي جمع الحضور وقال : " تأكد من قيام وزارة الخارجية بالاتصال بالدول العربية لضمان قيامها بإدانة غزو العراق للكويت " فقال سكوكروفت بانه سيقوم بذلك على الفور .

* * *

اتسع الوقت خلال الجلسة التي عقدت في غرفة المؤتمرات واستغرقت الليل كله لاتخاذ قـرار بـشأن خطـوة أخرى . إذ كان وقت الدهشة ـ لانه لم يكن أحد يعتقد بأن صدام حسين سوف ينفذ تهديداتـه ـ قـد مـضى ، وأخذ الحاضرون في الغرفة والمتصلون بها بالفيديو يضعون أسس الرد.

ولم يكن الخيار العسكري قد طرح للمناقشة . لكن الخيارات الدبلوماسية كانت أوضـح . فجـرى الاتـصال بالأمير وزملائه الذين لجأوا إلى السعودية بمجرد وصولهم إلى جدة . وعمل المسؤولون الأميركيـون معهـم على دعوة مجلس الأمن الدولي لجلسة طارئة .

وشهد مقر الأمم المتحدة بمنهاتن نشاطا غير عادي لم يعهد في مثل تلك الساعة المبكرة . فأخـذت الـسيارات تفد تباعا وهي تحمل السفراء والوفود . وفي الساعة الرابعة صباحا اتخذ أول قرار بـشأن الأزمـة العراقيـة وهو القرار رقم ٦٦٠ الذي دعا العراق إلى الانسحاب من الكويت بلا شروط ، وإلى اعادة الأمور إلـى مـا كانت عليه قبل الغزو. ولم يمتنع عن التصويت سوى اليمن ، في حين أن الصين وحتـى كوبـا صـوتتا إلـى جانب الاتحاد السوفييتي وفرنسا وبريطانيا . ورد سفير العراق إلى الأمم المتحدة بأن حكومته اسـتجابت لنـداء من " الثوار الكويتيين الشبان " من أجل المساعدة .

ودعا القرار العراق والكويت إلى " البدء في الحال بإجراء مفاوضات مكثفة لحل خلافاتهما " . ورحـب بأيـة جهود أخرى تبذل في هذا السبيل وخصوصا من قبل جامعة الدول العربية .

* * *

في واشنطن لم يكن أمام سكوكروفت وهاس وغيرهم ممن شارك في الاجتماع الماراثوني الذي اسـتمر مـن التاسعة مساء إلى الخامسة صباحا سوى ثلاث ساعات للعودة إلى بيوتهم والاستحمام وتغيير ملابـسهم . فقـد كان عليهم حضور اجتماع مجلس الأمن القومي مع بوش في الثامنة من صباح اليوم التالي .

* * *

وفي اركوتسك وعند تمام العاشرة والنصف صباحا (أي التاسعة والنصف من مساء اليوم الفائت في واشـنطن) توجه وزيرا الخارجية الأميركي والسوفييتي بعد مؤتمرهما الصحفي إلى المطار ، ليعـود الـسوفييتي إلـى موسكو وليتابع نظيره الأميركي رحلته إلى اولان باتور عاصمة منغوليا . أما دنيس روس زميـل بيكـر فقـد رافق شيفارنادزة إلى موسكو.

وتلقى بيكر خلال رحلته اتصالا من واشنطن عبر الخط الخاص وجرى إبلاغه أخبار الغزو بالتفصيل . وفيمـا كانت طائرته لا تزال في طريقها إلى منغوليا ، وهي دولة حدودية يبلغ عدد سـكانها مليـونين وتفـصل بـين الاتحاد السوفييت والصين بعيدا عن الجنون والذعر اللذين على باقي العالم ـ ذهب إلى مؤخرة الطائرة حيـث كان يجلس الصحفيون وأخبرهم عما حدث .

وبعد ذلك بساعة هبطت طائرة شيفارنادزة في موسكو . وكان لا يزال يجهل ما حدث . فلم يكـد يخـرج مـن الطائرة حتى اندفع نحوه صحفي يعمل بوكالة تاس وسأله :

" ما تعليقك على الغزو ؟ " . وفوجئ وقال : " أي غزو ؟ " . فقال الصحفي " غزو العراق للكويت " .
وارتبك شيفارنادزه ورفض الإجابة على الأسئلة بقوله : " لم تصلني الأخبار ، وأنا ذاهب للتشاور مع المستشارين " ثم التفت فجأة إلى زميله سيرجي ترلاسنكو وقال بغضب : " جد في الحال ما يحدث " .
أما روس فتوجه مباشرة إلى سفارة الولايات المتحدة واتصل ببيكر واقترح إصدار بيان مشترك سوفييتي – أميركي ، لا يدين الغزو فقط بل يدعو إلى عمل مشترك ضد العراق . ووافق بيكر ، واتصل بجورج بوش للحصول على موافقته . فرأى الرئيس أن الفكرة ثاقبة وأعطاه الضوء الأخضر . ثم اتصل بيكر بروس في موسكو وقال : " حضر نص البيان ولكن احرص على أن يكون جيدا " .
واتفق على أن يختصر بيكر زيارته لمنغوليا وأن يتوجه إلى موسكو لاعلان البيان المشترط مع شيفارنادزه . وعهد إلى روس بالتفاوض مع السوفييت حول ذلك . فتحدث روس مع ترلاسنكو وقال له بأن مثل ذلك البيان سوف يقنع الدول العربية الأخرى بعدم الوقوف إلى جانب العرق ، ويحبط آمال صدام في استغلال التنافس بين الدول العظمى كما كان الحال في الماضي . وتردد ترلاسنكو في البداية ولكنه بعد أن استشار شيفارنادزة سيأتي إلى موسكو خصيصا لقراءته " .
كان أبو اياد، الرجل الثاني في منظمة التحرير والمسؤول خصوصاً عن شؤون الأمن والمخابرات، نائماً في الفيلا التي يسكن بها في ضواحي تونس. وكانت زوجته التي تعيش عادة في الكويتن قد وصلت قبل وقت قصير . وأيقظتهما مكالمة تلفونية من أفراد أسرتهما في العاصمة الكويتية. وعلما منهم بأن القتال كان يجري غير بعيد من بيتهم . وقت متأخر من الليل في بيته بمنطقة صامد. وكان عرفات على علم بما يجري . إذ كان أفراد أسرته الذين يعيشون في الكويت قد زودوه بأخبار الغزو. فقررا زيارة عدد من العواصم العربية في اليوم التالي .

الفصل السادس

((هل نغادر الكويت ؟))

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين تلقى دوغلاس هيرد وزير الخارجية مكالمة تلفونية مـن الـسفارة البريطانية بالكويت تبلغه بأمر الغزو . فدون التفصيلات ثم اجتاز دهاليز الوزارة الخالية ليتـصل عبـر خـط خاص بدائرة في رقم ١٠ شارع داوننغ تعمل أربعا وعشرين ساعة في جمع المعلومات . وجـرى الاتـصال في الحال بما رغريت تاتشر رئيسة الوزراء التي كانت قد وصلت لتوها إلى آسبن بكولـورادو حيـث كانـت ستشارك في اليوم التالي مع جورج بوش في اعمال مؤتمر . وكانت الساعة عندئذ تشير إلـى الـسابعة مـساء في آسبن ، وبسبب فارق الوقت ، في الأول من أغسطس .

* * *

في هذا الوقت كان رئيس الوزراء الياباني كايفو يقضي إجازة مدّتها خمسة أيام في غوما ، وهي منطقة جبليـة تبعد مئة كيلو متر إلى الشمال من طوكيو . وقام مسؤولون بوزارة الخارجية بإبلاغـه بأخبـار الغـزو بعـد وقوعه بساعة واحدة . فكان رد فعله الأول قوله : " يا له من أمر مؤسف " .

* * *

وذهلت السفيرة إبريل غلاسبي التي كانت قد خرجت من مقابلتها لصدام قبل بضعة أيام وهـي مطمئنـة كـل الاطمئنان عندما علمت في الثاني من أغسطس بوقوع الغزو من التلفزيون وهي بغرفتها بأحد فنـادق لنـدن . وكانت عندئذ تقيم فيه مع أمها . أما كلبها الذي تركته وراءها ببغداد فكان سيتم ترحيله على أولـى الطـائرات التي كانت ستُجلي النساء .

* * *

وكان مستشار ألمانيا هيلموت كول يقيم في فيلا على شاطئ بحيـرة فـي سـانت جلجـن بالنمـسا اعتـاد أن يستأجرها سنة لقضاء عطلة الصيف . وفي التاسعة صباحا اتصل به مساعده الشخصي إدوارد أكرمـان مـن بون ليطلعه على الأخبار . ولم تصله أية رسالة من أي زعيم سياسي غربي إلا بعد ذلك بثلاثـة أيـام عنـدما اتصل به بوش لإبلاغه أنه قرر إرسال قوات عسكرية إلى السعودية .

* * *

وأصيب أهل الكويت بالذعر . وحاول كثرة من السكان الهرب إلى السعودية ، لكن الطرق كانت قـد قطعـت وصارت تخضع لسيطرة القوات العراقية . وأوقفت الأسر الهاربة عنـد الحـواجز وأخرجـت بـالقوة مـن السيارات وانتزعت الهواتف اللاسلكية التي كانت شائعة بالكويت من السيارات وذلك للحيلولة دون اسـتخدامها في نقل المعلومات عن مواقع القوات العراقية .

كانت المروحيات تحلق فوق المدينة ، بينما كانت ٣٠٠ دبابة تقوم فيها بأعمال الدورية . وكانت النار مـشتعلة ببعض عربات النقل ، وطلقات المورتر والأسلحة الاتوماتيكية تسمع في السوق المالي وقرب قـصر الاميـر

الذي كان محاطا بخمسين دبابة ثقيلة . وفي هذا القتال الذي كان الاعنف خلال الاجتياح كله قتل الـشيخ فهـد أصغر إخوة الامير ورئيس اللجنة الاولمبية الكويتية . وكان قد بقي في الكويت . وقامـت زوارق الـسواحل الكويتية المزودة بالقذائف بتدمير بضع آليات عراقية . إلا أنه لم تكن هناك سـوى بـضعة جيـوب مقاومـة للجيش العراقي . ولم يكد ينتصف بعد الظهر حتى كان إطلاق النار قد توقف . وقتل أكثر من مئتي كويتي .
لقد حقق صدام حلمه خلال بضع ساعات . فصار يسيطر على ٢٠ % من احتياطي العالم مـن الـنفط وعلـى مئة كيلو متر من السواحل المطلة على الخليج .

* * *

واكتشف العالم العربي الذي كان يسيطر عليه الذهول مدى تصميم صدام حسين . فلم تعد أية دولـة مجـاورة للعراق تشعر بالامان . ولم يقتصر هذا الشعور على الأردن وحده بل شمل العدوى سوريا والسعودية الثريـة الضعيفة التي كانت عندئذ في الواجهة . وكان لدى صدام الوسائل العسكرية التي تمكنه من اجتياح المزيد مـن الأراضي . وصدرت رسالة عن إذاعة سرية بضواحي الكويت تقول : " أيها العرب . لقـد اعتـدي علـى دم الكويت وشرفها . فهبوا لنجدتها . " وأضاف المتحدث وهو يبكي : " إن الاطفال والنساء والـشيوخ يـستغيثون بكم " .
لكن العالم العربي الذي خيم عليه الصمت لم يحرك ساكنا . ولم يكن السبب الرئيسي فـي ذلـك الخـوف بـل الاضطراب والفوضى اللذين سادا على أثر الاجتياح .
على أن الملك حسين بدأ منذ الثاني من أغسطس يبذل جهودا مكثفة للحيلولة دون التصعيد .

* * *

بعد أن أجرى الملك حسين مكالمته الأولى مع صدام حسين بسبع ساعات تقريبا وفـي الواحـدة بعـد الظهـر اتصل صدام بالملك . ولم يكن هناك أثر للتوتر أو التصلب في حديثه . قال : " كان علينـا أن نـدخل الكويـت وهي الآن تحت سيطرتي التامة . لقد حملونا على القيام بذلك . على أنني ملتزم بالانـسحاب مـن الكويـت . وسيبدأ الانسحاب في غضون أيام قليلة لكنه سيستغرق عدة أسابيع . أرجوك أن تفعـل مـا بوسـعك لإقنـاع العرب بأن الإدانات والتهديدات لا تؤثر علينا . فقد ينتهي الأمر بأن تصبح الكويت جزءا من العراق . ومـن المهم أن لا يوفروا غطاء للتدخل الخارجي " . فقال الملك بأن اجتماعهما أمر ضـروري . واتفقـا علـى أن يطير الملك إلى بغداد ذلك المساء أو في الصباح الباكر .
وعلى أثر الحديث تأكد اعتقاد الملك بأنه من الممكن التوصل إلى تسوية سريعة في إطار عربي . فقـام علـى الفور بالاتصال بالتلفون بالرئيس المصري الذي كان سيغادر القاهرة إلى الاسكندرية وأطلعه على حديثه مـع صدام وعلى اعتزامه الدعوة إلى قمة مصغرة في القاهرة أو الرياض صباح الرابع من آب . وأصـر المـلك أنه حتى ذلك الحين ينبغي تجنب التصريحات المعادية للعراق كي لا تعرقل القمة . فقـال حـسني مبـارك : " سوف أؤيد اقتراحك " . واتفقا على أن يعرج الملك على الاسكندرية وهو في طريقـه إلـى العـراق وذلـك

لمناقشة الخطط بمزيد من التفصيل . وقيل أن يختم الملك مكالمته اقترح على مبارك أن يتحدث مـع صـدام . فقال : " صدام ! لا . لقد خيب أملي فيه " .

* * *

في التاسعة صباحا بدأ وزراء الدول العربية بالتجمع في القاهرة في قاعدة بفندق سميراميس . وكـان الـشاذلي قد أصبح مقتنعا بضرورة الاجتماع بوزير خارجية مصر الذي انتدب له رجلين لمـساعدته علـى الاتـصال بالوزراء . واتصل القليبي أيضا بوكيل الخارجية العراقي الذي كان يمثل بـلاده فـي المـؤتمر الإسـلامي . وأخبره عن اجتماع مجلس جامعة الدول العربية المزمع عقده في التاسعة . فاحتج الوكيل العراقـي قـائلا : " لماذا الاجتماع بمثل هذه السرعة ؟ لماذا لا ننتظر إلى أن تقرر حكومتي ما ستفعله ؟ " إلا أن القليبـي رفـض قائلا بأن الاجتماع ضروري جدا . وأبطأ الوزراء في الوصول ولم تبدأ الجلسة فعليا حتـى الـساعة ١٥ : ١٢ بعد الظهر .

وعندما افتتحت الجلسة في جو من الاضطراب والفوضى كانت قد مضت على بدء الغزو عشر ساعات تمـت خلالها سيطرة الجيش العراقي على الكويت .

ورئس فاروق القدومي مدير الدائرة السياسية بمنظمة التحرير الجلسة وذلك بموجب النظـام الـدوري الـذي يقضي بأن يترأس كل جلسة وزير مختلف .

وطالب الوفد الكويتي بتطبيق معاهدة الدفاع العربي على الفور للدفاع عن الدولة المـشاركة التـي تعرضـت للهجوم . لكن الوزراء الحاضرين باستثناء وزير الإمارات آثروا الانتظار والترقب .

وألقى وزير الخارجية السورية فاروق الشرع خطابا مثيرا للدهشة صرح فيه بأن علاقات بلاده مـع الكويـت سيئة (وذلك أيضا بسبب عدم دفع المال) ولكن علاقاتها مع العراق آخذة في التحسن . ومع هذا ـ كمـا قـال ـ " فإن سوريا تلتزم بميثاق جامعة الدول العربية الذي يعتبر غزو دولة عربية لأخرى عملا غير قانوني " .

وألقى الأمير فيصل ـ وزير الخارجية السعودية ـ أيضا خطابا مثيرا للدهـشة . إذ تحـدث عـن العلاقـات الخاصة بين بلاده وبين العراق ، وأضاف أن هناك صداقة بين الملك فهـد وصـدام حـسين . ثـم قـال " إن السعودية لا توافق على غزو الكويت ، لكننا مقتنعون بأن صدام حسين سوف ينسحب " .

كان الشاذلي القليبي قد اقنع وكيل الخارجية العراقي بحضور الاجتماع ، لكن هذا رفض الإجابة على الاسـئلة التي وجهها وزراء الخارجية إليه بقوله : " لست مخولا بالتحدث . عليكم أن تنتظروا وصول وفدنا " . وأعلـن أن الوفد سيكون برئاسة سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء الذي سيصل في أوائل المـساء ، وأضـاف بـأن الوفد سيكون كبيرا . ورفعت الجلسة في الساعة الثانية بعد الظهر بعد أن اتفق الحاضرون على العـودة إلـى الاجتماع في السادسة مساء . وكان الجميع يتطلعون بلهفة إلى الرسالة التي كـانوا جميعـا متأكـدين مـن أن حمادي سيحملها .

* * *

وفي الثامنة من صباح الثاني من أغسطس ، وبينما كان وزراء الخارجية العرب يغادرون قاعة الاجتماع بالقاهرة دخل جورج بوش غرفة المؤتمرات المجاورة للمكتب البيضاوي بالبيتالأبيض. وكان جميع الذين دعوا للاجتماع قد جلسوا على مقاعدهم حول الطاولة الضخمة التي كانت تحتل الحيز الأكبر من الغرفة .

وضم الاجتماع : نائب الرئيس دان كويل ؛ سكرتير البيت الأبيض جون سنونو ؛ وزير الخزانة نيكولاس برادي ؛ وزير العدل ريتشارد ثورنبورغ وزير الدفاع ريتشارد تشيني ؛ مدير المخابرات المركزية وليم وبستر ؛ رئيس الاركان كولن باول ؛ الجنرال شوارزكوف رئيس القيادة العامة الأميركية (سنتكوم) الذي سيتولى قيادة القوات الأميركية المرسلة إلى الخليج فيما بعد؛ والجنرال سكوكروفت ومساعده هاس وروبرت كيميت . وحضر الاجتماع كبار رجال إدارة بوش لمواجهة أخطر أزمة منذ توليهم مناصبهم . وسمح للصحفيين بدخول الغرفة لمدة بضع دقائق ليستمعوا إلى أول تصريح لبوش عن الأزمة . قال بوش :

" دعوني أقول لكم إن الولايات المتحدة تدين بشدة الغزو وتدعو إلى الانسحاب الفوري فلا مكان لهذا النوع من العدوان الوحشي في عالم اليوم " . ثم أغلقت الأبواب ليبدأ الاجتماع السري الذي استغرق اكثر من ساعة.

وتركزت المناقشة في موضوع العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية التي ستتخذ ضد العراق . وعند بداية الاجتماع التفت رئيس موظفي البيتالأبيضجون سنونو - وهو رجل ممتلئ الجسم ومعروف بحبه لإصدار الأوامر - إلى ريتشارد تشيني وزير الدفاع واقترح " إرسال طائرات بي ٢ (B 2) (التي تستطيع الافلات من شاشات الرادار) لقصف العراق " . لكن الحاضرين لم يكونوا يعرفون مدى جديته .

وبدا على تشيني الحرج . وقال بعد لحظة صمت : " ليس لدينا سوى طائرة واحدة من ذلك الطراز . أما الطائرات الباقية فلم تختبر إلى حد يسمح باعتبارها صالحة للقتال " .

والواقع أن إدارة بوش وجدت نفسها بمواجهة مشكلة من النوع الاستراتيجي : فمنذ عشر سنوات لم يغب التدخل العسكري في الخليج عن الاحتمالات الواردة في ذهن الادارة الأميركية . وعلى أثر سقوط شاه إيران عام ١٩٧٩ أنشأ جيمي كارتر قوة تدخل سريعة لحماية حقول النفط .

ووضعت عندئذ خطة سرية تحمل الرقم ٩٠ - ١٠٠٢ . ولكن فات واضعيها أن يأخذوا أمرين بعين الاعتبار وهما لاجتياح العراقي وضياع الكويت . إذ لم تستهدف الخطة سوى مواجهة الاتحاد السوفييتي . وعهد بتنفيذها للسنتكوم - أي القيادة العسكرية التي أنشئت عام ١٩٨٣ . لكن بالرغم من صرف ٢٠٠٠ مليار دولار خلال السنوات الثمانية الماضية على تحديث القوات الأميركية قد دربت على القتال في ميادين عمليات مثل أوروبا أو كوريا ولكن ليس للقتال في الصحراء . يضاف إلى ذلك أن البنتاغون أخذ على حين غرة ولم يكن مستعدا . فقد كان قد أمضى عدة أشهر في الاستعداد لـ " عملية القضية العادلة " التي أدت إلى ارسال قوات إلى بنما للقبض على الجنرال نورييجا . وعليه فقد كان عندئذ كما قال أحد الحاضرين فيما بعد " قد عاد إلى نقطة الابتداء " .

واصبح ذلك واضحا عندما سأل جورج بوش عن القوات الجاهزة . إذ كان الجـواب : " هنـاك ٢٥٠٠٠ مـن الفرقة ٨٢ المحمولة جوا والمتمركزة في " فورت براغ " بكارولينا الشمالية يمكن إرسالهم في الحـال . أمـا إرسال أعداد أكبر فسوف يستغرق أربعة أسابيع على الاقل . وحتى عندئذ لن يكون ميزان القوى فـي صـالح الأميركيين بالنظر إلى أنه كان لدى صدام حسين مليون جندي و ٥٥٠٠ دبابة وكما قال أحد القادة العـسكريين ممن حضروا الاجتماع فإنه لم يكن هناك " خيار عسكري مرض . فليس لدينا جنود في الميدان " والواقع أنـه بالرغم من الجهود المتواصلة التي بذلتها واشنطن ، فإن السعودية كانت دائما ترفض فكـرة وجـود قواعـد عسكرية أميركية على أرضها .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا عندما أمر بوش بأن تعرض عليه جميع الخيارات العـسكرية الممكنـة في مقره الصيفي بكامب ديفد قبل يوم السبت الموافق في الرابع من أغسطس . ونوقش كذلك احتمال إرسـال روبرت تشيني وزير الدفاع إلى السعودية لكن لم يجر التوصل إلى قرار محدد بهذا الشأن .

في التاسعة والربع صباحا خرج بوش من الاجتماع وذهب إلى مكتبة البيضاوي لدرس بـضعة ملفـات . ثـم توجه بسرعة إلى حديقة البيت الأبيض الجنوبية . وكانت في انتظاره هناك مروحية نقلته إلـى قاعـدة أنـدروز حيث كانت طائرة بوينغ الرئاسية التابعة للقوات الجوية على أهبة الانطلاق . فاسـتقلها الـرئيس إلـى آسـبن لإلقاء خطاب حول شؤون الدفاع . وكان الرئيس قد فكر بإلغائه بالرغم من أن موعده حدّد قبل أشـهر وذلـك بسبب الأزمة المتفاقمة . لكنه قرر في آخر لحظة التقيد بالموعد لأنه كان يريد الاجتماع بمارغريـت تاتـشر رئيسة وزراء بريطانيا . وقد قدر لها أن تؤثر كثيرا على بوش . وخلال الرحلة قـام بـوش بمـساعدة برنـت سكوكروفت بتعديل نص الخطاب بحيث ربط بين أزمة الخليج وحاجة الولايات المتحـدة إلـى الحفـاظ علـى وسائل دفاع ملائمة.

* * *

قبل ذلك بنصف ساعة وصل الملك حسين بطائرته الخاصة إلى الاسكندرية . وكانت الساعة بمصر تشير إلـى الرابعة بعد الظهر . وبدأ محادثاته مع الرئيس مبارك بالتذكير باعتقاده الثابت بأنه يمكن حـل المـشكلة وبأنـه يمكن إقناع صدام حسين بالخروج من الكويت شرط عدم إدانة الجامعة العربية له . وأوضح أنه ينبغـي عـدم إصدار تصريحات تهاجم العراق قبل القمة المقرر انعقادها في الرابع من أغسطس . فوافق مبارك على ذلك.

وفي أثناء محادثاتهما رأيا أنه من المهم الاتصال بالرئيس بوش . فاتصلا به عبر البيتالأبيـضوهو علـى علـو ٣٧٠٠٠ ، قدم وبينما كان في الطريق بين واشنطن وآسبن بكولورادو . وكـان صـوته مـسموعا . فأطلعـه الملك على حديثه مع صدام حسين وعلى اعتزامه التوجه إلى بغداد . وقال بأن التوصل فورا إلى حـل عربـي أمر أساسي . وحث الرئيس بوش على عدم خلال الساعات الثماني والاربعين التالية لإفساح المجال له لوضـع مشروع حل . وأضاف الملك " يمكننا تسوية الأزمة يا جورج . باستطاعتنا معالجتها . وما نحتـاج إليـه هـو بعض الوقت " . فقال بوش : " الوقت امامك . والامر متروك لك " .

كان أمام الغرفة التي يتحدث فيها الملك ومبارك شرفة تطل على البحر ، وأمامهما الاسكندرية الوادعة التي توحي بالسلام والتفاؤم . وبدا أن توقف الملك فيها أقنعه تماما بأن النزاع الكويتي العراقي كان نتيجة خطأ في الحسابات ولن يلبث أن يطويه النسيان . وبالرغم من شكوك مبارك فإنه تظاهر بالاقتناع أو حاول الاقتناع بالشيء ذاته .

* * *

في الخامسة مساء افتتح الكنيست الاسرائيلي بالقدس جلسة طارئة خصصها للعراق .وكان موشى أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي قد استقبل ، قبل ذلك بقليل السفير الاميركي وعرض تزويد الولايات المتحدة بكل المساعدات التي تطلبها من المخابرات الإسرائيلية .

والواقع أن الغزو العراقي كشف عددا من مواطن الضعف لدى إسرائيل . فلم تكن هناك " تغطية كافية " للعراق من قبل الاستخبارات الإسرائيلية التي كانت تواجه مشكلة تجنيد العملاء وعدم وجود أقمار صناعية للتجسس لديها في تلك المنطقة .

فمنذ عام ١٩٨١ والأميركيون يرفضون تزويد اسرائيل بأية صور فوتوغرافية أو معلومات يحصون عليها بواسطة أقمار التجسس الصناعية خارج منطقة تمتد ٣٠ ميلا من حدود اسرائيل . إذ اعتبرت واشنطن قد اتخذت هذه المسافة " حزاما أمنيا كافيا لتجنب جميع الاخطار المباشرة " . وكانت واشنطن قد اتخذت ذلك الاجراء في أعقاب الغارة الإسرائيلية على المفاعل الذري العراقي أوزيراك .

وكانت الوزارة الإسرائيلية قد عقدت في الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم اجتماعا خيم عليه جو من التوتر . إذ انتقد بعض الوزراء وبينهم شارون نقاط الضعف التي أشرنا إليها بشدة ؛ واحتدم النقاش حول بيان قدمه البريغادير - جنرال دلني روتشيلد نائب رئيس المخابرات العسكرية (لأن الرئيس كان يقضي شهر العسل) . إذ شعر غالبية المسؤولين الإسرائيليين بأنها فوجئت تماما بتوقيت الغزو ونطاقه .

* * *

بينما كانت حاملة الطائرات اندبندانس مع السفن المواكبة لها في طريقها إلى الخليج لتنضم إلى طراد ومدمرة وخمس بوارج أعلنت شركة لويدز البريطانية للتأمين بأنها أدخلت تعرفة فورية للتأمين على جميع السفن في تلك المنطقة وارتفع سعر برميل النفط من بحر الشمال إلى ٢٤ دولارا .

* * *

وقبل أن يغادر الملك حسين عمان حاول عبثا الاتصال بالملك فهد . فأمر مروان القاسم وزير الخارجية بترتيب لقاء له مع الملك فهد والسفر إلى جدة . وبعد أن قام الوزير بمحاولات عدة لذلك الغرض وانتظر طويلا تلقى رسالة من السعودية تقول : " لا تحضر " .

وكان حسني مبارك أحسن حظا . ففي السادسة مساء وقبل ان يغادر الملك حسين عمان إلى بغداد اتصل به وطلب منه ان يتصل تلفونيا بعدد من الزعماء العرب وبينهم الملك فهد وأن يطلب منهم ان يتريثوا وأن لا

يناصروا طرفا على آخر خلال الساعات الثماني والاربعين التالية . واتصل مبارك بالفعل بالملك فهـد الـذي وافق على ذلك .

وفي تلك الاثناء كان وزراء الخارجية العرب مجتمعين في فندق سميراميس بانتظار وصول الوفد العراقـي . لكنه تأخر كثيرا . واستولى الغضب الشديد على مندوبي دول الخليج لأن بـاقي المنـدوبين وبيـنهم منـدوب سوريا عدوة العراق رفضوا إدانة الغزو . وانتظر الحاضرون وصول الوفد العراقي ثلاث سـاعات ونـصف في جو من التوتر المتزايد . وأخيرا وفي التاسعة والنصف مساء دخل سعدون حمـادي القاعـة واتجـه إلـى المنصة .

وعندما تأهب لإلقاء بيانه توقع الحضور ان يشتمل على خطة سلام . لكنهم لم يلبثوا ان شـعروا بخيبـة امـل مريرة إذ استهل بيانه بقوله : " لا مفاوضة حول الوضع في الكويت وأخذ على مـدى نـصف سـاعة يكـرر الحجج العراقية المألوفة . وقال ان بعض الدول العربية والولايات المتحدة دبرت مؤامرات اقتـصادية علـى العراق بإبقاء اسعار النفط منخفضة وذلك لمنع العراق من استعادة عافيته الاقتصادية التي انزلت بها الحـرب العراقية الإيرانية افدح الاضرار . وخلا بيانه من الاشارة إلى أي تنازل . وشدد على ان العـراق هـو الـذي منع إيران من اجتياح المنطقة ، وانه طوال سني الحرب " شكل العراق ترسـا لحمايـة دول الخلـيج . لكـن بالرغم من تلك الحماية فان هذه الدول رفضت منحنا المساعدة المالية التي نحن في اشد الحاجة اليها " .

وعندما عاد حمادي إلى مقعده خيم الذهول على الحضور . إذ بدا ان بغداد تغلق الباب امام كـل التـسويات . وفجأة ازدادت ازمة الكويت تعقيدا . وحل التشاؤم الشديد محل التفاؤل السابق .

وعندما رفعت الجلسة إلى التاسعة من صباح اليوم التالي لم يعد لـدى الحاضـرين أي شـك حـول مـصير الجلسات القادمة . وعليه فان الامل الوحيد في حل عربي صار معلقا على اجتمـاع صـدام حـسين والملـك الأردني .

* * *

بقي الملك حسين في الاسكندرية حتى وقت متأخر من المساء على امل ان يـستطيع التوقـف فـي الـسعودية للاجتماع بالملك فهد قبل ان يتوجه بطائرته إلى بغداد . الا انه عندما علم ان الملك فهد لن يجتمع به عاد إلـى عمان . بعد ان نام بضع ساعات توجه إلى بغداد في وقت مبكر من صباح الثالث من أغسطس . لكنه قبـل ان يبدأ رحلته اتصل بالتلفون مرة اخرى بالرئيس مبارك وسأله : " هل تسير الامور على مـا يـرام ؟ " فأجابـه مبارك بأنه يرجح ان لا تحضر الكويت القمة المصغرة ، ولهذا فانها سوف تقتصر على مـصر والـسعودي والأردن واليمن والعراق .

* * *

قبيل هبوط طائرة بوش في آسبن اتصل ببيكر الذي كان يستعد لمغادرة منغوليا وقال له : " جـيم ، ينبغـي ان يظهر البيان المشترك مستوى عاليا جدا من التعاون بين الاتحاد السوفييتي وبيننا ، والا فلن تكون هنـاك فائـدة في ذهابك إلى موسكو .

وفور وصول بوش إلى آسبن اجتمع - وذلك للمرة الأولى - مع مارغريت تاتشر وصـافحته وهـي تحمـل كعادتها حقيبتها تحت ابطها . قالت : " عليك ان تعرف يا جورج انه لن يتوقف " . وكان هـذا يثيـر مخـاوف متزايدة لدى بوش . وبينما كان المؤتمر حول الدفاع منعقدا على بعد ياردات اتصل بـوش تلفونيـا بـالرئيس اليمني علي عبد ا صالح الذي كان واحدا من حلفاء صدام القلائل . وكانت جبال كولورادو القريبة الـشامخة تسبغ على المناسبة جوا شبيها بجو الدروس الصيفية في احدى الجامعات .

وبعد ان ألقى بوش خطابه اتصل بمقر الملك فهد بالسعودية وكرر له التأكيد على عـزم الولايـات المتحـدة الدفاع عن المملكة . فشكره الملك كثيرا . لكن قلق بوش أحرجه بدلا من ادخال السرور على نفـسه . وكـان الملك خجولا ضعيف الصحة . وبدا عندئذ في وضع لا يحسد عليه . إذ حدث ما كان يخشاه فأصـبحت بـلاده في خط المواجهة . وكانت مملكته منذ انشائها قبل ثلاثة وستين عاما واحة استقرار لكن غزو الكويت كـان - كما قال - " مأساة " . إذ اصبح اميرها وافراد اسرته ضيوفا عليه . وبذلك يكون التاريخ قـد اكمـل دورتـه بطريقة غريبة . ففي عام ١٩٠٢ - أي قبل ذلك بثمان سنة - وجد مؤسس المملكة المشرد ابن سـعود ملجـأ لدى آل الصباح في الكويت .

وقبل عودة بوش إلى نيويورك عقد اجتماعا مغلقا مع مارغريت تاتشر في شاليه فخمة بمساكن كـاتو يملكهـا سفير الولايات المتحدة في بريطانيا . فنصحت تاتشر الرئيس الأميركي بإظهار أكثر حزم ممكن وتجنيد العـالم كله برعاية الأمم المتحدة . ولم تطرح الخيارات العسكرية للنقاش لكن - كما قال شاهد عيان - " قالـت فـي صدام حسين ما قاله أنتوني ايدن خلال أزمة السويس في جمال عبد الناصر فقارنه بهتلر " .

وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر وعندما أقلعت الطائرة الرئاسية من آسـبن إلـى واشـنطن كانـت وزارة الدفاع الأميركية قد اتخذت عددا معينا من الاجراءات . فاستدعي على عجل طواقم طـائرات الـشحن سـي ١٤١ العملاقة . وألغيت جميع الاجازات وصد أمر لجميع الطيارين بالعودة إلى قواعدهم خلال ثلاث سـاعات . واعترت هؤلاء الدهشة وهم يودعون أسرهم وأصدقاءهم بطرية مفاجئة . فقـد كـانوا لا يعرفـون سـبب استدعائهم . ولم يكد يحل المساء حتى كانوا في الجو فوق الاطلنطي . ونقلت طـواقم عـشرين طـائرة مـن طراز سي ١٤١ إلى القاعدة الأميركية " راين مين " بألمانيا الغربية . ونقل ٢٦ طاقما إلـى طوريجـون فـي إسبانيا . وشكل هؤلاء أول حلقات الجسر الجوي الضخم الذي سيقام مع السعودية خلال الأيام القليلة التالية .

وقُطع حفل كبير راقص في أحد المعسكرات فجأة عندما أعلن أحد الضباط بأنه علـى جميـع الحاضـرين أن يستأنفوا عملهم في الحال . ولم تقدم لهم أية ايضاحات . ولم يعد أحد منهم بعد ذلك . وكان هؤلاء ينتمون إلـى

وحدات العمليات الخاصة ويقومون بالمهمات الخطرة مثل غارات الكوماندوز والرد على أخذ رهائن . وكانوا سيرسلون في تلك الليلة ذاتها إلى الشرق الأوسط .

* * *

وفي الثامنة من صباح الثالث من أغسطس بالقاهرة جرى ابلاغ المشاركين فـي اجتمـاع الجامعـة العربيـة المقرر في التاسعة صباحا أنه أجل إلى السادسة مساء . إذ لم يكن بالإمكان قول شيء أو اتخـاذ قـرار قبـل معرفة ما يتمخض عنه اجتماع الملك حسين بالزعيم العراقي . وكانت العيون في العالم العربي كله شاخـصة إلى بغداد .

وأذيعت من الكويت المحتلة استغاثة يائسة جاء فيها : " ماذا حدث للاتفاقات المعقودة بـين الـدول العربيـة ، والاتفاقات بين دول الخليج ، والاتفاقات بين الدول الإسلامية . يا اخوة اللغة والـدم والعروبـة والإسـلام ان الكويت تناشدكم المساعدة ".

وخرج الكويتيون الذين ابقتهم الحرب في القاهرة إلى الشوارع والدموع في اعينهم . وقال ضـابط مـصري لاحدهم : " ان هذا الوضع عار على العالم العربي . اننا نجلس هنا ونتفرج وكأنه لم يحدث شيء " .

ومن يقرأ الصحف من العرب لم يصدق ما يرى . إذ لم تقم صحيفة واحدة بادانة الغزو العراقي للكويت . فقد كان محررو الصحف قد تلقوا أوامر مشددة بالوقوف على الحياد . وكانت الصحف الوحيدة التي أيدت صـدام حسين علنا هي صحف الأردن .

* * *

في التاسعة والنصف صباحا وصل الملك حسين إلى بغداد واستقبله صدام على الفور في القـصر الرئاسـي . واستغرق الاجتماع عدة ساعات لكنه انتهى بالتوصل إلى اتفاق . وطرح الملك خلالهـا اسـئلة محـددة علـى الزعيم العراقي : " هل تعتزم حضور القمة المصغرة غدا ؟ " فهز صدام رأسه موافقا وقال : " سأكون هنـاك " . وسأله : " هل ستخرج من الكويت ؟ " فأجاب " نعم إذا جرى حل خلافاتي مع تلـك الامـارة " . وأضـاف في أواخر المقابلة : " لا اريد ان يحضر القمة أحد من آل الصباح . أفضل التفاوض على اتفاق مع الملك فهـد . فقد كانت لي دائما علاقات أفضل معه " .

وترك صدام لدى زائره انطباعا بأنه زعيم طيب مستعد لتقديم تنازلات كبرى وكانت لحظة غـضبه الوحيـدة عندما ذكر الملك تهديدات الجامعة العربية بالتنديد بالغزو . قال : " ينبغي ان نزيل الغشاوة عـن أعينـا . إذا سارت الامور في ذلك الاتجاه فسوف أقول بان الكويت جزء من العراق وسأضمها إلى بـلادي " . ثـم مـال على الملك وخفض صوته كما لو كان يريد الادلاء بسر وقال : " على أي حال فانني وقعـت معاهـدة عـدم اعتداء مع السعودية ".

وقبل ان يفترق الزعيمان تعانقا بحرارة وخرج الملك متفائلا ومقتنعا بأنه استطاع معالجة الازمة . وبعد بـضع ساعات أصدر صدام بيانا أعلن فيه أنه سيبدأ بسحب قواته من الكويت يوم الاحد الموافق فـي الخـامس مـن أغسطس ولكن لا مجال لعودة الاسرة المالكة .

* * *

وفيما كان الملك حسين يهم بالعودة إلى عمان ، كان ياسر عرفات قد وصل إلى طرابلس الغرب قادمـا مـن تونس . وكان يعتزم زيارة مصر والعراق والسعودية في مهمة توسط مشابهة . إذ كـان عـدد الفلـسطينيين المقيمين في الكويت كبيرا ويحتلون مناصب مهمة ويتبرعون بجزء كبير من ميزانية منظمة التحرير .

وفي طرابلس الغرب وجد عرفات القذافي في غاية التأثر بسبب الغزو . وقال باصرار : " أبو عمـار ، لا بـد من التوصل إلى حل سلمي . ولدي حل يقوم على نقطتين ." ثم سحب ورقة عن الطاولة التي كانـت أمامـه . واستمع إليه عرفات بتفهم وانتباه . وكانت العلاقات بين القذافي والفلسطينيين منذ سنوات كثيرة معقدة وأحيانـا غامضة . وواصل القذافي كلامه فقال : " أولا على العراق ان ينسحب إلى المنطقة المتنازع عليهـا . ويعـود بعد ذلك شخص من الاسرة الكويتية الحاكمة غير الامير إلى الكويت . ويمكن للشعب بعد ذلك انتخاب حاكمـه ". على ان النقطة الثانية لم تكن واقعية . لكن عرفات لم يعلق بشيء .

في ذلك اليوم ـ وهو الثالث من أغسطس ـ أخذ زمام السيطرة على الازمة يفلت تدريجا من ايدي العرب .

* * *

في البيت الأبيض افتتح بوش في وقت متأخر من بعد الظهر اجتماعـا لمجلـس الامـن القـومي . وحـضر الاجتماع ريتشارد تشيني وزير الدفاع ، وبرنت سكوكروفت رئيس مجلس الامن القـومي ونائبـه ريتـشارد هاس ، ورئيس هيئة الاركان المشتركة كولن باول .

وأكد الجنرال باول للرئيس ان جميع الخيارات العسكرية يجري درسها وانها ستقدم له في اليوم التـالي حـسب الخطة . وكان باول في الخامسة والثلاثين من عمره . وسبق له ان حارب فـي فيتنـام وشـارك فـي خمـس ازمات بما فيها غزو بنما ونزول قوات المارينز في ليبيريا لاجلاء الاميركيين منها . واعتاد ان يقـول " لـيس هناك استخدام شرعي للقوة " . وكانت هذه وجهة نظر لم يجد بوش بدا من الموافقة عليها .

وكان لدى اعضاء هذه الهيئة التنفيذية عدد من القطع التي تحل أحجية الخليج بما فيها دعم هيئة الأمم المتحـدة وحلف شمال الاطلسي . وما كانوا بحاجة إليه هو عدد من الخيارات العسكرية ودعم العالم العربي .

وعندما سأل بوش باول عن المخاطر التي ستتعرض لها طلائع القوات الأميركية التي ترسـل إلـى الميـدان أجاب باول بلا تردد : " ان المخاطر كبيرة جدا . فسوف تتعرض قواتنا لهجمات العـراقيين . فـإذا قـررت أخيرا يا سيدي الرئيس ان تزج بالقوات الأميركية في المعركة فانه ينبغي علينا ان نرسل اكبـر عـدد ممكـن منها وبأسرع ما يمكن . اختر الهدف ركز عليه وحاول أن تسحقه " . فهز بوش رأسه ولم يعلق بشيء .

وانتهى الاجتماع بعد ساعتين . وفي حين ان المجتمعين تفرقوا لاخذ قسط من الراحة اتصل بوش مرة أخـرى بالملك فهد وحاول ان يقنعه بان المعلومات المتوافرة لديه تدل على ان الزعيم العراقي سـوف يزحـف علـى السعودية . فقال الملك فهد معترضا بأنه لا يزال واثقا من نجاح الجهود التي يبذلها الملك حسين للتوصل إلـى تسوية عن طريق المفاوضات ولاقناع الرئيس العراقي بالانسحاب . وذكر بوش بأن القمة العربيـة المـصغرة ستعقد في اليوم التالي أي الرابع من أغسطس .

فقال بوش : " لكن إذا ساء الوضع يا صاحب الجلالة فهل تقبل مساعدات أميركية ؟ " . فلـم يجـب الملـك . وطال الصمت إلى حد أن بوش اعتقد بأن الملك لم يسمع السؤال بسبب عطل طرأ بخط التلفون فكرر الـسؤال . وأخيرا أجاب الملك على نحو يدل على الاستسلام : " أجل سنقبلها " .

.. وهناك عامل آخر في أزمة الخليج أثار غضب بوش وهو أنه اتبع أسلوبا مضللا . إذ كان منذ زمـن طويـل يعول على اهمية العلاقات الشخصية بين الزعماء . ووصفه واحد من أقرب زملائه إليه بقوله انه " يتبع نوعـا من الدبلوماسية الشخصية " ، وخصوصا الإكثار من المكالمات التلفونية غير الرسمية مـع رؤسـاء الـدول . ويقول صديق له : " يحب جورج ان يُعرف بـ " جورج العزيز " وان يحبه الجميع بـسبب دفء مـشاعره " . لكن بالرغم من أنه بالنسبة إلى الكويت تلقى تقارير محددة تنذر بالخطر الشديد من وكالات المخـابرات فإنـه ظل حتى آخر ساعة يعتقد أن العراق لن تقوم بالغزو لسبب بسيط وهو ان اثنين من الزعماء الذين كـان يثـق بهم وهما الملك حسين والرئيس المصري حسني مبارك كانا يؤكدان له ذلك باستمرار . وكان يعتمـد عليهمـا كمصدر للمعلومات أكثر مما يعتقد على التقارير السرية وصور الاقمار الصناعية التي كانت تصل إلى مكتبه كل ساعة .

والواقع ان ادارة بوش اقترفت الخطأ في الحكم الذي وقع فيه الاسرائيليون قبل نشوب حرب أكتـوبر ١٩٧٣ . ففي كلا الحالين كانت جميع المعلومات الضرورية لتوضيح الموقف . لكن الذي شوه المعلومات الافتـراض الخاطئ بأن العراق ، كمصر عام ١٩٧٣ ، لن يقوم بالهجوم .

* * *

كان هناك شخص في ناحية أخرى من واشنطن سيلعب دورا هاما في تصلب الموقف الاميركي وهـو جـون كيلي . ففي الثامنة من ذلك الصباح كان في مكتبه . وبدا عليه الانزعاج لانه كـان يحـاول عبثـا الاتـصال بالسفير المصري في واشنطن . فلم يكن احد يعرف مكانه واخيرا وبعد نصف ساعة اكتشف انه هـو والقـائم بالأعمال في القاهرة . فبعث على الفور برسالة تلفونية إلى وزير الخارجية المصري . وكانت عنيفـة اللهجـة إلى حد لا يحتمل معه أن يكون قد أرسلها بدون ضوء أخضر من رؤسائه . قال في رسالته :

" لقد قام الغرب بواجبه ؛ لكن الدول العربية لا تفعل شيئا . لقد باعت الولايات المتحدة أسلحة كثيرة للأقطـار العربية وخصوصا لمصر . وإذا لم تتحرك وتتخذ موقفا حازما من قضية الكويت عليها أن تتأكد من أنها لـن تستطيع الاعتماد من الآن فصاعدا على الولايات المتحدة " .

وتنفي وزارة الخارجية الأميركية ان هذه المكالمة جرت في ذلك اليوم . لكن مصدرا مصريا رفيع المـستوى وموثوقا به يصر على أنه اطلع على تلك الرسالة . والأمر الغـامض هـو مـا إذا كانـت وزارة الخارجيـة الاميركية قد احيطت علما بتفاصيل الحديث بين الرئيس بوش والملك حسين عندما وافـق بـوش علـى عـدم الاتصال بالدول العربية خلال الثماني والأربعين ساعة التالية . فإن لم تكن على علم بذلك فانه من المنطـق ان يكون بوش قد أمر برنت سكوكروفت في الساعة الخامسة من صباح الثاني من أغسطس أن يطلـب منهـا أن تضغط على الدول العربية لكي تدين غزو صدام للكويت .

* * *

واستولت الدهشة على المسؤولين المصريين ولكن الملك حسين هبط بطائرته في عمان وهو لا يعلم شـيئا عـن ذلك . وكانت الساعة عندئذ في عمان تشير إلى الثانية بعد الظهر .

وعندما نزل الملك من الطائرة أُبلغ أن وزير خارجيته مروان القاسم يريد أن يتحدث معـه فـي أمـر ملـح . وعندما رفع سماعة التلفون قال للوزير : " لدي أخبار جيدة جدا . لقد أخبرني صدام حسين بأنه سينسحب مـن الكويت " .

وقبل أن يدخل الملك في تفاصيل محادثاته مع صدام قاطعه الوزير بقوله : " إنك لم تـسمع ! فقـد أصـدرت وزارة الخارجية المصرية بيانا تدين فيه الغزو العراقي للكويت " . وكان هذا صدمة للملك حسين الذي قـال : " إن هذا يهدم كل شيء ، وربما وسع نطاق النزاع " .

وأسرع الملك في العودة إلى القصر حيث حاول الاتصال بالرئيس مبارك . ووجد صعوبة في الوصول إليـه . وعندما تم له ذلك أخبره عن اتفاقه مع صدام على انسحابه من الكويت وحضوره القمة المصغرة . وسـأله : " لماذا أصدرتم ذلك البيان ؟ لقد اتفقنا على أن لا نفعل شيئا من ذلك حتى تجتمع القمة المصغرة " .

وبدا الاضطراب على مبارك وقال : " لقد تعرضت لضغط هائل من وسائل الاعلام ومن الشعب . إن عقلـي لا يشتغل ، فصرخ الملك : " حسنا اتصل بي عندما يعود إلى العمل " .

وفيما بعد روى هذا مبارك بطريقة مختلفة جدا فقال: " سألت الملك حسين : هل وعد صدام حسين بالانـسحاب من تلقاء نفسه ؟ فأجابني الملك : " لا ولكنه قال بأنه سيفعل ذلك إذا جرى التوصـل إلـى حـل فـي القمـة المصغرة وخصوصا إذا حصل على تنازلات كويتية بوساطة السعوديين " . وعندما سئل مبارك عما إذا كـان صدام قد التزم بالانسحاب أجاب بالنفي .

ويدعي مبارك أن حديثه مع الملك أقنعه بأنه طالما أن صدام حسين لم يقدم أي ضمانة بأنـه سينـسحب حتـى ولو جرى التوصل إلى اتفاق في القمة المصغرة فإنه لا مبرر لاجتماع هذه القمة.

* * *

وأخبرنا مسؤولون عراقيون من ذوي الاطلاع أن الرئيس العراقي وافق خلال محادثاته مع الملك على الذهاب إلى جدة في السابع من أغسطس لحضور قمة مصغرة وأنه سيجري مفاوضات مع الملك فهد وأنه في حال نجاحها سينسحب من الكويت .

وقبيل نشوب الحرب وبينما كان صدام حسين مجتمعا مع دي كويار أمين عام الأمم المتحدة أعاد التأكيد على قراره الانسحاب من الكويت في الخامس من أغسطس إذا نجحت القمة المصغرة التي تقرر اجتماعها بجدة في الرابع من الشهر ذاته . وقد تأكدنا من مراجع رفيعة المستوى في العاصمة الأردنية بان صدام حسين أبلغ الملك بالفعل بأنه على استعداد للانسحاب من الكويت وأن الملك حسين أبلغ ذلك إلى الرئيس المصري . ويدل هذا على انه عندما أخبر مبارك عرفات بأن الملك حسين أبلغ ذلك إلى رئيس المصري . ويدل هذا على انه عندما أخبر مبارك عرفات بأن الملك حسين ابلغه أن صدام حسين لم يوافق على الانسحاب من الكويت لم يقل الحقيقة .

* * *

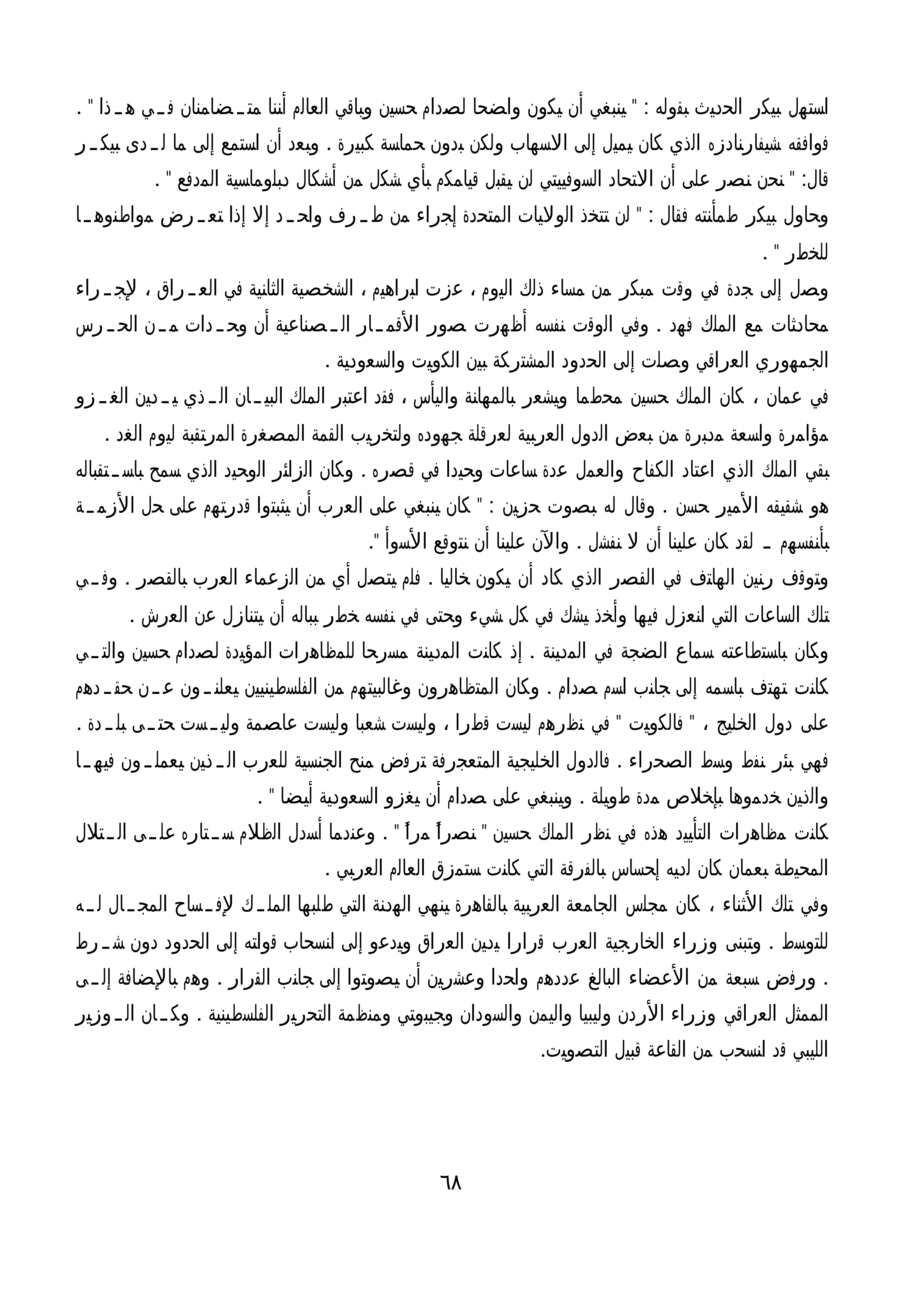
في موسكو اخذ دنيس روس نائب بيكر يفقد صبره . وكان في تلك الأثناء يقيم في مقر السفير الأميركي ويعمل بصعوبة بالغة على التوصل إلى اتفاق حول التغييرات التي سيتم إدخالها على البيان المشترك الذي سيصدره بيكر وشيفارنادزه . وكان مشروع البيان الذي أحضره تراسنكو معه غير صالح ويتسم إلى حد كبير بالغموض والاعتدال . فقال لتراسنكو : " لا بد من إعادة كتابته . إذ ينبغي أن يكون أقوى من ذلك " .

فخرج تراسنكو وعاد بعد ثلاث ساعات ومعه نص جديد غير مرض أيضا . فعندما أطلع روس عليه قال :

" إنك تعرف ما الذي سيحدث إذا اعتمدنا هذا النص. اننا لن نوصل الرسالة المطلوبة إلى صدام حسين. فهو لن يجد في هذا النص ما يدل على اتحادنا وتصميمنا فأجابه تراستكون اننا نواجه مقاومة لذلك . فخبراء الشؤون العربية في وزارتنا يعارضون فكرة التخلي عن شريك ثابت كالعراق " .

وخرج تراسنكو مرة أخرى وعاد بعد بضع ساعات وعلى وجهه علائم النجاح . فلم يكن أمامهما وقت يضيعانه . فطائرة بيكر كانت على وشك الهبوط . فركب الرجلان سيارة ليموزين واتجها إلى المطار بأقصى سرعة ممكنة . وعندما قرأ روس النص وجده مرضيا . ولاحظ أن فيه فقرة تدعو إلى حظر مشترك على بيع الاسلحة فحذفت . وقال لتراسنكو : " إنه لا قيمة لها " . فعلق زميله السوفييتي بقوله : " يمكن لوزير خارجيتكم أن يبحث ذلك مع زميله شيفارنادزه .

ووصلا أثناء هبوط الطائرة . وكان شيفارنادزه بانتظاره على المدرجات . وتصافح الوزيران . فقال شيفارنادزه وعلى شفتيه ابتسامة تنم عن الاحراج : " كنت مخطئا يا جيم عندما أبلغتك أنه لن يكون هناك غزو " . ثم توجها ومعهما روس وتراسنكو في الحال إلى غرفة عليها حراسة مشددة.



استهل بيكر الحديث بقوله : " ينبغي أن يكون واضحا لصدام حسين وباقي العالم أننا متضامنان في هذا " . فوافقه شيفارنادزه الذي كان يميل إلى الاسهاب ولكن بدون حماسة كبيرة . وبعد أن استمع إلى ما لدى بيكر قال: " نحن نصر على أن الاتحاد السوفييتي لن يقبل قيامكم بأي شكل من أشكال دبلوماسية المدفع " .

وحاول بيكر طمأنته فقال : " لن تتخذ الولايات المتحدة إجراء من طرف واحد إلا إذا تعرض مواطنوها للخطر " .

وصل إلى جدة في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم ، عزت ابراهيم ، الشخصية الثانية في العراق ، لإجراء محادثات مع الملك فهد . وفي الوقت نفسه أظهرت صور الأقمار الصناعية أن وحدات من الحرس الجمهوري العراقي وصلت إلى الحدود المشتركة بين الكويت والسعودية .

في عمان ، كان الملك حسين محطما ويشعر بالمهانة واليأس ، فقد اعتبر الملك البيان الذي يدين الغزو مؤامرة واسعة مدبرة من بعض الدول العربية لعرقلة جهوده ولتخريب القمة المصغرة المرتقبة ليوم الغد .

بقي الملك الذي اعتاد الكفاح والعمل عدة ساعات وحيدا في قصره . وكان الزائر الوحيد الذي سمح باستقباله هو شقيقه الأمير حسن . وقال له بصوت حزين : " كان ينبغي على العرب أن يثبتوا قدرتهم على حل الأزمة بأنفسهم ـ لقد كان علينا أن لا نفشل . والآن علينا أن نتوقع الأسوأ ".

وتوقف رنين الهاتف في القصر الذي كاد أن يكون خاليا . فلم يتصل أي من الزعماء العرب بالقصر . وفي تلك الساعات التي انعزل فيها وأخذ يشك في كل شيء وحتى في نفسه خطر بباله أن يتنازل عن العرش .

وكان باستطاعته سماع الضجة في المدينة . إذ كانت المدينة مسرحا للمظاهرات المؤيدة لصدام حسين والتي كانت تهتف باسمه إلى جانب اسم صدام . وكان المتظاهرون وغالبيتهم من الفلسطينيين يعلنون عن حقدهم على دول الخليج ، " فالكويت " في نظرهم ليست قطرا ، وليست شعبا وليست عاصمة وليست حتى بلدة . فهي بئر نفط وسط الصحراء . فالدول الخليجية المتعجرفة ترفض منح الجنسية للعرب الذين يعملون فيها والذين خدموها بإخلاص مدة طويلة . وينبغي على صدام أن يغزو السعودية أيضا " .

كانت مظاهرات التأييد هذه في نظر الملك حسين " نصراً مراً " . وعندما أسدل الظلام ستاره على التلال المحيطة بعمان كان لديه إحساس بالفرقة التي كانت ستمزق العالم العربي .

وفي تلك الأثناء ، كان مجلس الجامعة العربية بالقاهرة ينهي الهدنة التي طلبها الملك لإفساح المجال له للتوسط . وتبنى وزراء الخارجية العرب قرارا يدين العراق ويدعو إلى انسحاب قواته إلى الحدود دون شرط . ورفض سبعة من الأعضاء البالغ عددهم واحدا وعشرين أن يصوتوا إلى جانب القرار . وهم بالإضافة إلى الممثل العراقي وزراء الأردن وليبيا واليمن والسودان وجيبوتي ومنظمة التحرير الفلسطينية . وكان الوزير الليبي قد انسحب من القاعة قبيل التصويت.

وكان المندوبون العرب على علم بالضغط الأميركي الذي تعرض له حسني مبارك طوال اليوم بوسـائل مثـل الرسالة التلفونية التي بعثها جون كيلي . وكانت مصر بعد إسرائيل هـي المـستفيد الأكبـر مـن المـساعدة الأميركية المالية في المنطقة وتبلغ نحو بليوني دولار .

وبالرغم من أن القرار دعا إلى عقد قمة عربية " لبحث العدوان والبحث عن وسائل للتوصل إلى حل دائـم " ، فان الأمل في التوصل إلى تسوية فورية كان قد تلاشى . وكان صدام حسين كما قال الملك حـسين قـد أعلـن عن استعداده للانسحاب من الكويت إذا انعقدت القمة العربية المصغرة ولكن على شرط أن لا تقوم الجامعـة العربية بإدانة الغزو . على أن القمة المصغرة التي كان من المتفق عليه انعقادها في الرابع من أغـسطس قـد ألغيت . وما قيل للعالم عندئذ هو أن القرار الذي اتخذته الجامعة العربية في ذلك المساء يدعو الدول العربيـة إلى عدم إنزال قواتها على الأراضي العربية . وصوتت إلى جانب القرار كل من السعودية ومصر وسـوريا . إلا أن الولايات المتحدة غيرت موقفها خلال الأسبوع التالي .

الفصل السابع

((لن أغزو السعودية))

اسشارت التقارير الواردة صبيحة الرابع من آب إلى أن الوحدات العراقية دخلت " المنطقـة المحايـدة " بـين الكويت والمملكة العربية السعودية وتمركزت على بعد نصف كيلو متر من الحدود السعودية . وفي " فـورت ميد " حيث مقر وكالة الأمن الوطنية أظهرت الصور التي تلتقطها أقمار التجسس الصناعية التي باتت تـصور كل كيلو متر من منطقة الأزمة ، أنّ مئة ألف جندي من نخبة الوحدات العراقية قد حُـشدت قـرب الحـدود وكانت هذه الوحدات تنتمي إلى الفيلق الثالث والحرس الجمهوري الذي يؤمّن الحماية الشخصية لصدام حـسين . وكان هذا الفيلق يضم ٨ فرق تتألف كل منها من ٣٠ إلى ٣٣ لواء .

وتلقى المسؤولون الرئيسيون في الادارة الاميركية دراسة سرية فيها تقييم لما تمثّله هذه القوات من أخطار :

" يتطلب الغزو العراقي للسعودية عملية عسكرية تفوق بكثير اتساعا وعمقا تلك التي قامت بها القوات البريـة العراقية . وتشمل الأهداف الرئيسية لهذا الغزو المرافئ والمطارات القريبة من الظهران الواقعة علـى بعـد ثلاث مائة كيلو متر من الحدود الكويتية ، على أن يكون الهدف التالي الرياض عاصمة المملكـة الـسعودية . ففي هذه المنطقة جميع الأهداف الاقتصادية الحيوية التي تؤدي الاستيلاء عليها إلـى إغـلاق الخلـيج علـى السعوديين ، والى إعاقة الإمدادات الأميركية " .

ثم تعرض الدراسة لمختلف الهجمات التي قد يقوم بها الحرس الجمهوري على الاراضي السعودية وتختم ذلك بمقارنة تاريخية غير متوقعة :

" قد تشكل سمعة الحرس الجمهوري الممتازة نقطة ضعف خطيرة . فتدميرها أو إلحاق هزيمة خطيرة بهـا ، قد يصيب باقي وحدات الجيش بصدمة معنوية هائلة تؤدي إلى تسريع تفككه وانهياره . فليس من المـستبعد أن تكون ردة فعل القوات العراقية مشابهة لتلك التي صدرت عن جحافل الجيش الفرنسي الكبـرى فـي واترلـو

عندما بلغها نبأ انسحاب حرس نابليون القديم . فقد أحدثت صرخة " الحـرس يتقهقـر " ذعـرا عـم الجـيش الفرنسي بأكمله وأدى إلى انهياره الفوري " .

وفي كامب ديفد المقر الصيفي للرؤساء القابع في جبال " كاتوكتين " ، انعقد الاجتماع الثاني الذي دعـا إليـه جورج بوش في أقل من أربع وعشرين ساعة . وقد بدأ كالذي سبقه في الساعة الثامنة صباحا ، وحضره إلـى جانب برنت سكوكروفت وريتشارد هاس والجنرال كولن باول ، الذي كانوا هناك في اليوم الـسابق ، رئـيس موظفي البيتالأبيضجون سنونو ووزير المالية نيقولاس برادي ومدير وكالة المخابرات الأميركية (CIA) وليـام وبستر إضافة إلى وزير الخارجية جيمس بيكر الذي كان قد عاد من موسكو في مساء اليوم الـسابق . وجلـس المجتمعون حول طاولة من خشب البلوط في الشاليه الخشبية بعد أن كان أكثرهم قد خلعوا ملابـسهم الرسـمية وارتدوا ملابس عادية كما لو كانوا قد جاؤوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . والواقع أنهم كـانوا وسـط أزمـة متفاقمة.

واستهل الاجتماع عدد من الخبراء العسكريين المدعوين إلى الاجتماع بتقديم تقرير حول " الوضع كمـا هـو على الأرض وما يمكننا علمه " .

واثير احتمال القيام بنشاطات سرية تهدف إلى زعزعة استقرار النظام العراقي أو التخلص من صـدام حـسين غير أنه لم تجر مناقشة خطط محددة . وبعد أن أكمل العسكريون عرضهم وخرجوا من القاعة طلـب جـورج بوش من المجتمعين التعليق . ودار النقاش كله حول الخيارات العسكرية . وكان واضحا أن انتشارا عـسكريا أميركيا في الخليج لا يمكن أن يتم عمليا دون دعم ومساندة الدول العربية وخاصة المملكة العربية الـسعودية . إلا أن الرياض لم تكن مستعدة لإعطاء الضوء الأخضر ، وذلك لـسببين : أولهمـا أن الـسعوديين كـانوا لا يزالون متمسكين باحتمال تسوية عربية ، وثانيهما أن فكرة وجود قوات أميركية أثارت لديهم قلقا عميقا .

هذا وقد حملت آخر الأنباء عن الوحدات العراقية التي تحتشد على الحدود مع السعودية ما يدعو إلـى المزيـد من القلق وشكلت فوق كل شيء الورقة الحاسمة في المفاوضات مع الملك فهد . وعبـر بـوش عـن ذلـك بوضوح . فمنذ بداية الأزمة لم يخف تبرمه بسبب بطء الاستجابة الدولية . كما عبر عن غضبه بـسبب القمـع الذي كان يمارسه العراقيون في الكويت .

وعندما بدأ كولن باول بالكلام استقر بوش في مقعده وعلى وجهه علامات الاهتمام ويداه متشابكتان وأصـابعه تلامس أنفه . إذ كان يريد أن يستمع إلى الخيار العسكري .

* * *

منذ الثاني من أغسطس والجنرال نورمان شوارزكوف المعروف بالدب بسبب ضخامة جثتـه لا ينـام سـوى بضع ساعات كل ليلة ، ويدخن أكثر من العادة ، ويكاد لا يفارق مقره في قاعدة ماكـدل الجويـة بفلوريـدا . وكان من قدامى لاعبي كرة القدم المعروف في وست بوينت بحبه للحياة الهنيئة ، ورئيساً للقيـادة المركزيـة (السنتكوم) . وكان استراتيجيو وزارة الدفاع قد قسموا العالم إلى مناطق وعهدوا بالمسؤولية عن كل قسم إلـى

جهة معينة . واعتبر السنتكوم مسؤولا عن منطقة مساحتها ١٥ مليون ميل مربع وتمتد من كينيا إلـى باكـستان . وعليه فإن هذا الجنرال الضخم المرح كان مسؤولا عن منطقة تحتوي على سـبعين بالمائـة مـن احتيـاطي النفط في العالم .

ومنذ بداية الازمة كان شوارزكوف يعمل بالتنسيق مع رؤساء الأركان وكولن بـاول . وعهـد إليـه بتحقيـق الهدف التالي : تعديل الخطة السرية المشهورة رقم ٩٠ ـ ١٠٠٢ التي وضعتها إدارة كـارتر للتـدخل فـي الخليج بحيث تشكل دفاعا هائلا عن السعودية .

وواجهت " الدب " وزملاء مشكلات عديدة أكثر خطورة منها عدم وجـود قواعـد علـى الأرض الـسعودية والحرارة المرتفعة في الصحراء التي تجعل القتال صعبا للغاية . وكان بين أسباب القلـق الأخـرى احتمـال استخدام العراق للأسلحة الكيماوية وسقوط طلائع القوات الأميركية التي كانت نسبيا في حاجة إلى حماية قبـل وصول الدبابات والأسلحة الثقيلة .

من المرجح أن التدخل في منطقة الخليج كان أصعب تحد تواجهه السلطات الأميركية منذ حرب فيتنام . وفـي الأسبوع الأخير من يوليو أجري تدريب أطلق عليه " علم الحرب ٩٠ " لاختيـار قـدرة قـادة الجـيش علـى الاتصال فيما بينهم من مسافات طويلة . وكانت العملية موجهة إلى الشرق الأوسط . ولكن بالرغم من التـوتر المتزايد فإنه لم تجر الاشارة إلى العراق والكويت والسعودية . ولتفادي إثارة الحساسيات اظهـر بـاول لباقـة خارقة عندما طلب تقطيع الخرائط وتعديلها بحيث لا يظهر أي تشابه بينها وبين بلدان المنطقة .

وفي قاعدة ماكديل وفي البنتاغون (وزارة الحربية) كانت الكمبيوترات الضخمة تعمل طيلـة أربـع وعـشرين ساعة في استيعاب المعلومات الجديدة . وكان يجري العمل ببرنامج ضخم لـه اسـم كـاللغز ويرمـز إليـه بالحروف TPFD (أي قوة الانتشار في المرحلة الزمنية (*) ويشتمل على معلومات مفـصلة عـن القـوات والاعتدة التي يجب ارسالها ، ووسائل نقلها ، وانظمة الاتصالات لتنسيق العمليـة ، وكـل مـا تحتاجـه فـي صحارى السعودية من دفاعات جوية ومياه للشرب ومبان الخ .

وكان شوارزكوف وباول من قدامى المحاربين في فيتنام ، الذين يتخذون جميع الاحتياطات عند استخدام القـوة . وكانا مقتنعين بأن نجاح العملية العسكرية رهن بتنفيذها على نطاق واسع واستخدامها كافة الوسائل وبـدعمها بتصميم لا يتزعزع لدى السياسيين .

وكان في مكتب رئيس هيئة الأركان لائحة معلقة في مكان بارز وتشتمل على قائمة بـ " قواعد كولن بـاول " الثلاث عشرة وإحداها : " اختر بعناية ما تريده فتحصل عليه " .

* * *

وعندما بدأ باول في كامب ديفد ذلك الصباح بإلقاء بيانه أمام بوش وأعضاء الادارة ، كـان عليـه أن جميـع المعلومات التي زوده بها شوارزكوف . قال :

---

* Time Phase Force Deployment

" سيدي الرئيس ، قال باول ، إذا قررت القيام بعملية عسكرية ، لا بد من إدخال قواتنا بكثافة وصورة ملائمة . فمن الواضح أن صدام حسين لا يبحث عن مواجهة مع الولايات المتحدة . إنه شرس ولكنه ليس مجنونا . وهو يعلم أنه سيخسر أي حرب يخوضها على نطاق واسع مع الولايات المتحدة . وفي حال حصول تدخل عسكري لا بد من إرسال فوري لقوات مناسبة إلى العربية السعودية وذلك لاظهار تصميمنا الواضح على الدفاع عن المملكة . ولا بد أيضا من أن يكون الانتشار واسعا بحيث يفهم صدام حسين أن الهجوم على العربية السعودية هو هجوم على الأميركيين . كما أن الخطة ١٠٠٢ - ٩٠ لا بد من أن تسمح بالسيطرة الجوية والبحرية وإرسال افواج المشاة بعدد يكفي لا للردع فقط بل للقتال . فما من أمة جنت ربحا من نزاع يطول " .

كان كلام باول من النوع الذي يريد بوش سماعه . فبعد أن استمع إلى تعليقات الآخرين قرر إعطاء الضوء الأخضر لتنفيذ الخطة ٩٠ - ١٠٠٢ ولإرسال أضخم اسطول منذ حرب فيتنام الطوف الآخر من العالم . " لقد تحول الرئيس " كما قال شاهد عيان " إلى صقر حقيقي " على أنه ترك التفاصيل لباول . وكانت طلائع القوات - بموجب ذلك - ستغادر في اوائل الأسبوع التالي . وحتى ذلك الحين كانت الخطة ستبقى سرية من الدرجة الأولى .

كان لا بد أيضا من تذليل عقبة أخيرة وهي الحصول على موافقة المملكة السعودية . فطلب بوش من تشيني وزير الدفاع التأهب للسفر في اليوم التالي إلى جدة ؛ واقترح برنت سكوكروفت أن يرافقه روبرت غيتس الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي الذي شغل سابقا منصب مساعد مدير وكالة المخابرات المركزية . وتقرر أن يرافقهما الجنرال شوارزكوف .

وانتهى الاجتماع في العاشرة والنصف صباحا . وتقرر عقد اجتماع أخير في البيت الأبيض بعد ظهر اليوم التالي .

* * *

في هذه الاثناء كان ياسر عرفات مجتمعا مع مبارك . وكان مبارك متوترا ، وظل يقول بغضب : " على العراق أن ينسحب " ، وأشار إلى اتصاله بالملك حسين الذي كان قد عاد من بغداد . وبدا وكأنه يحاول تبرير موقفه بغض النظر عن النتائج فقال :

" سألته (الملك حسين) عما إذا كان قد بحث مع صدام مسألة انسحابه من الكويت فأجاب بالنفي . وأضاف بأن كل ما بحثاه هو عقد القمة المصغرة التي كنا سنحضرها أنا وهو والملك فهد وصدام الذي أعرب عن موافقته على حضورها . فقلت بأنني لن احضر ما دام صدام لم يعد بالانسحاب .

كانت كلمات مبارك هذه تناقض كلمات الملك حسين الذي صرح بأن الرئيس العراقي أبلغه بأنه سوف ينسحب إذا تم التوصل إلى اتفاق في اجتماع القمة المصغرة .

وبدا مبارك خلال المحادثات مُحرجا لأنه لم يكن هناك في العالم العربي من يجهل انه تعرض لـضغط هائـل من الولايات المتحدة . وفي أثناء المحادثات أسر لعرفات بأن العراق سيكون هدفا لعملية عسكرية بـين ١٢ و ١٨ أغسطس . وفوجئ ياسر عرفات بذلك ولكنه لم يسأل مبارك عن مصدر معلوماته . وفي ختام محادثاتهمـا قال ياسر عرفات : " عليك ان تذهب إلى السعودية والعراق ." فرد عليه مبارك بفظاظة : " اذهب انـت أولا ؟ " . وأضاف بعد شيء من التفكير : " أجل ، اذهب واعرف ما إذا كان مستعدا للانسحاب . فـإذا كـان ذلك فسأذهب أنا أيضا " .

* * *

في الثامنة مساء كان الملك فهد يتحدث مع مساعديه المقربين في حدائق مقره بجدة عندما توجـه إليـه احـد رجاله وقال : " يا صاحب الجلالة إن الرئيس على التلفون . " وكان بوش يتحدث من كامب ديفد حيـث كانـت الساعة تشير إلى الوحدة بعد الظهر . وكانت الكلمات الأولى التي قالها لفهد هي كلمات مارغريت تاتشر قبـل ذلك بيومين . قال " يا صاحب الجلالة إنك تعلم أنه (أي صدام) لن يتوقف " .
ثم أطلع بوش الملك على المعلومات التي تلقاها عن الحشود العراقيـة علـى الحـدود الـسعودية . فاسـتولى الاضطراب والقلق على الملك وأظهر استجابة اكبر لمقترحاته . ويقول احد الموظفين في البيـت الأبـيض : " حتى ذلك الوقت كان الخوف يشل الحرب " ، وهذا الخوف هو الذي شكل الورقة الرابحة في استرتيجية بـوش إزاء السعودية .
وطالت المحادثات بين بوش والملك . وكان من الواضح أنه لا يمكن للجيش السعودي الذي يتألف مـن ٠٠٠ ، ٦٥ جندي أن يتصدى للقوة العراقية الضاربة . فالحشود العراقية على الحدود – كما قال بوش – كانت مـن الوحدات العراقية المختارة . (لكن تبين فيما بعد أن هذا لم يكن صحيحا) وأضـاف بـوش أن الـدفاع عـن المملكة أمر أساسي وأنه باستطاعة واشنطن تقديم دعم عسكري هائل . واقترح بوش على الملك إرسال وزيـر الدفاع الأميركي حاملا " رزمة من تقارير المخابرات التي تثبت أن الغزو العراقي ينطوي على خطر حقيقـي والمرفقة بخطط محددة لانتشار القوات الأميركية في أراضيكم " .
ووافق فهد على استقبال تشيني لكنه طلب إمهاله أربعا وعشرين ساعة أخرى ليفكر خلالها فـي أمـر القبـول بالتواجد الأميركي العسكري .

* * *

خرج بوش من اتصاله مع فهد اكثر ثقة . وقضى اكثر ما تبقى من يومه في المكالمات الهاتفيـة مـع كبـار زملائه ورؤساء الدول الأجنبية ولا سيما بالرئيس التركي أوزال .
فقد كانت تركيا من أعضاء حلف شمال الأطلسي ويمر فيها يوميا ٦ ، ١ مليون برميل من النفط ، أي نـصف جميع صادرات العراق النفطية ، وذلك عبر خط من الأنابيب طوله ٧٥٠ ميلا ويصل بين آبار النفط بكركـوك وميناء بومرطالق على شاطئ المتوسط . وكانت الأزمة قد وضعت الزعماء الأتراك في موقـف حـرج . إذ

كان تصدير النفط يعود عليهم بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار في السنة هذا فضلا عن أن العراق كان يـزود تركيـا بثلثي حاجاتها من الطاقة . وبالرغم من أن الصحافة التركية أجمعت على ادانة الغزو فقـد كـان المـسؤولون فيما بينهم اكثر تحفظا . إذ كانت أية بادرة منهم ستكلفهم غاليا . وأوضح بوش لأوزال ان العمل الدولي ضـد العراق يعتمد إلى حد كبير على قطع صادراته من النفط . وأضاف أنه طلب الشيء ذاتـه مـن الـسعوديين ، وأنه حصل على موافقتهم .

على أن تأكيد بوش هذا كان سابقا لأوانه . إذ كان يفضل الانتظار حتى تسوّى جميع الأمور العسكرية قبـل أن يبحث هذه القضية مع الرياض . فالسعودية كانت القطر الذي يمر به النصف الآخر من صـادرات العـراق النفطية .

كان أوزال الرجل البدين ذو الوجه المستدير والنظارات مناورا حاذقا . ورأى من الحكمة أن يتريـث ليـرى كيف سيتطور الوضع . صحيح أنه أكد لبوش دعمه له ، ولكن لم يلزم نفسه بشيء محدد ، ولم يذكر لـه أنـه كان سيستقبل مبعوثا لصدام حسين في اليوم التالي ـ وفي اعقاب هذه المكالمة مع بوش اتـصل اوزال بعـدو العراق اللدود الرئيس الإيراني رفسنجاني . وفي اليوم ذاته كشفت معلومات من مصادر رسمية بطهـران أن صدام حسين اتصل قبل اسبوعين برفسنجاني من أجل التفاوض حول حياد إيران إذا قام بغزو الكويت .

* * *

وفي عمان صدرت عن الملك حسين كلمات قدر لها أن تزيد من عزلته عن غالبية الأقطـار العربيـة وعـن حلفائه الأميركيين . فبعد أن انتقد مواقف دول المنطقة وإدانتها للعراق أضاف قوله : " إن صدام حسين رجـل وطني " .

* * *

ألقى ياسر عرفات بصدام حسين يوم الأحد الخامس من أغسطس . فادعى صدام بأنه " صـدم " عنـدما علـم بالغاء القمة المصغرة ، وسأل عرفات : " من هو برأيك الذي أفسد الأمر ؟ " .

عكست مواقف صدام وبياناته في ذلك اليوم مزيجا غريبا من المرارة والتصميم . وأسهب في تبريـره لغـزو الكويت وأعرب عن خيبة أمله في ردود الفعل العربية . ولاحظ عرفـات أن معنوياتـه لـم تتزعـزع علـى الإطلاق . إذ كان هادئا ويتصف بالحيوية . ولم يخل كلامه من الدعابة . وقال لعرفـات : " لا بـد مـن حـل سياسي " . وعلق عرفات بقوله : " إنني متفق معك تماما " . وبعد لحظات من الـصمت أضـاف صـدام : " إذهب إلى السعوديين وقل لهم إنني مستعد للحوار " .

* * *

في اليوم ذاته تلقى رجل أعمال فلسطيني بارز مكالمة تلفونية عاجلة من بغداد . وكان المتحدث نزار حمـدون نائب وزير الخارجية الذي قال : " عليك أن تحضر إلى بغداد بأقصى سرعة ممكنة . إن الأمر خطير " . ولـم يكن الفلسطيني متحمسا للذهاب إلى العاصمة العراقية لكنه قال بأنه سيتصل به . وفـي اليـوم التـالي اتـصل

حمدون ثانية . وعندما علم رجل الأعمال الفلسطيني من المحادثة بأن عرفات سيذهب إلى فيينا في السابع من أغسطس للمشاركة في تشييع جنازة المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي ، قال لحمدون بأنه سيذهب إلى فيينا واقترح عليه أن يبعث بما يريده لعرفات ليبلغه به .

وفي السابع من الشهر التقى رجل الاعمال بعرفات الذي سلمه رسالة من صدام حسين لينقلها إلى الرئيس بوش . وكان لهذا الفلسطيني معارف في البيت الأبيض . وأكدت الرسالة على أن صدام حسين كان على استعداد للانسحاب من الكويت ولكن بعد أن يسوي أموره أولا مع الكويتيين .

فاتصل رجل الاعمال الفلسطيني بجون سنونو رئيس موظفي البيت الأبيض وأبغله أنه سيبعث له الرسالة فقال سنونو :

" حسنا ولكن لا أريد أن يعرف أحد أن الرسالة ُأبلغت ؟ " ، ووصلت الرسالة إلى واشنطن ولكن لم يصدر رد عليها .

* * *

في يوم الأحد ذاك عقدت لجنة وزارة الدفاع الإسرائيلية اجتماعا سريا بالقدس . وكان شامير معكر المزاج . ذلك أن " العلاقة الخاصة " بين بلاده وواشنطن بلغت أدنى مستوى لها . وقال شامير لأحد زملائه : " لقد اتصل بوش بالتلفون بجميع حلفائه وبكل زعيم في المنطقة فيما عدا زعماء ليبيا والعراق وإيران ومنظمة التحرير ... واسرائيل " .

كان موقف إدارة بوش مصدر قلق للزعماء الاسرائيليين . إذ صار من الواضح لهم أن الاميركيين يريدون استبعاد اسرائيل واجبارها على التزام الهدوئ لكي لا تهدد الحلف العربي المناهض للعراق الذي كان يجري إنشاؤه . وضربت واشنطن عرض الحائط بجميع عروض القدس للتعاون مع الأميركيين وخصوصا في مجال المخابرات .

وخيم على الجلسة السرية جو كئيب . وقال موشي ارينز وزير الدفاع : " علينا أن نحتفظ بحقنا في التدخل إذا تغير الوضع الجغرافي الاستراتيجي في الشرق الأوسط تغيرا جذريا أو إذا تعرض الأردن للغزو " .

كان بين الحاضرين الجنرال دان شومرون الذي قاد بنجاح الغارة على انتيبي ورؤساء دوائر المخابرات . ولم يكن بينهم من يعتقد بأن السعودية ستتعرض للغزو . وقال احدهم : " إن حجم ردود الفعل الدولية تجعل وقوعه أمرا غير محتمل " . لكن من الناحية الأخرى اعتبر قيام العراق بحشد قواته على حدود الأردن امرا محتملا جدا . إذ كانت بعض الصواريخ العراقية في طريقها إلى حدود الاردن ويمكن لها أن تصل القدس أو تل أبيب في غضون أربع دقائق . وقال شامير : " علينا أن نزيد من نشاط مخابراتنا في جمع المعلومات . وينبغي أن نحصل على معلومات من أعلى المستويات لمعرفة ما يحدث عندما يحدث لا بعد ذلك بيوم " .

وكان المقصود بالاستهزاء رؤساء دوائر المخابرات . فمنذ الثاني من أغسطس كثـر الكـلام علـى تقـصير المخابرات الإسرائيلية وخصوصا في الصحافة . ولهذا أمعن الحاضرون في تحليل حركات صدام حـسين ـ وتمخض تحليلهم عن تشابه عجيب بين ما يحدث وما حدث في عام ١٩٨٠ .

ففي عام ١٩٨٠ وعشية الهجوم الإيراني على جزيرة الفاو ـ وهو الهجوم الذي مثل بداية الحـرب العراقيـة الإيرانية ـ ذهب صدام حسين لتفقد قواته التي كانت في جبهة بعيدة وذلك لإحداث انطباع بأن الهجـوم سـيقع على منطقة مختلفة . وبعد ذلك بعشر سنوات قام بدعوة الملحقين العسكريين الأجانب في بغداد إلـى الحـدود مع الكويت لمشاهدة فرقتيه المرابطتين هناك . وبهذا حول العراقيون الأنظار عن الهدف بطريقة رائعة . فمـن كان يصدق بأن بلدا يدعو خبراء أجانب لمشاهدة قواته وهي تتأهب للغزو ؟ وفور عودة الملحقين العـسكريين إلى بغداد وبينما كانت السفارات الغربية والعربية تبرق إلى عواصمها مطمئنة وداعية إلى التفـاؤل ، أصـدر صدام أوامره إلى قواته الرئيسية بالزحف على الكويت .

شيء واحد أصبح واضحا وهو انه يفتقر بشكل مؤلم إلى قمر صناعي عسكري قادر علـى رصـد حركـات القوات المعادية عن بعد . فكان لا بد من اللجوء إلى الأميركيين من أجل مساعدتهم فورا في تحقيق ذلك .

وبعد هذا الاجتماع عقد ديفد ليفي وزير الخارجية جلسة مغلقة مع شامير وموشي أرينز . وكان ليفي سـيغادر البلاد إلى واشنطن في اليوم التالي وعليه فقد كان ذلك هو الوقت المناسب لوضع تفاصيل الموضـوعات التـي سيجري بحثها بصورتها النهائية . وجاءت الرحلة في أوانها تماما لأنها تتيح الفرصة لجـس النـبض بالنـسبة للنوايا الأميركية تجاه أزمة الخليج . ولكن بعد بضع ساعات استولى الفزع على شامير عندما علم بأن جـيمس بيكر ـ وزير الخارجية الأميركية ـ اجل ليفي شهرا .

* * *

في وقت متأخر من بعد الظهر هبطت الطوافة التي عاد بها بوش من كامب ديفد على العـشب أمـام البيـت الأبيض . ونزل منها وهو يقرأ عبارة على قصاصة من الورق ناوله إياها ريتشارد هاس الذي كان إلى جانبـه ، وتقول : " إن اوزال على التلفون " ، وأخذ بعض الصحفيين الذين كانوا بالقرب من الطائرة يسألونه . فتقـدم إليهم بشيء من العصبية وقال: " إن احتلال الكويت لن يدوم ".

وبالرغم من أن الذي كان ينتظر التحدث معه حليف ذو شأن فإنه قضى عشرين دقيقة وهو يـرد علـى أسـئلة الصحفيين . وعندما قال بوش " لقد ظفرنا بدعم العالم العربي " ، وجه إليه أحد الصحفيين سؤالا أخرجـه عـن طوره . وكان سؤاله : " كيف تقول ذلك وكل صحيفة تحمل صورة لصدام حـسين مـع ملـك الأردن علـى صفحتها الأولى ؟ " فجاء رد بوش فظا . قال : " أستطيع القراءة . فما هو سؤالك ؟ " .

وعاد بوش إلى المكتب البيضاوي حيث كانت بانتظاره رسائل تأييد من جميع أنحاء البلاد . وكان بعـضها فـي غاية الايجاز مثل " عليك به " و " " أطح به " . علق أحد مساعديه عليها بقوله : " لقد أخذ ينفـد صـبر الـبلاد ".

وقبل ذلك بقليل غادر تشيني وزير الدفاع البلاد إلى السعودية ومصر . واعتبر اجتماعه مع الملك فهد حاسـما . وقال أحد موظفي البيت الأبيض في ذلك :

" إن القضية كما نطرحها أمام السعودي محددة تماما " . نقول له : اسمع ، أمامك شخص كـذب عليـك قبـل إقدامه على ما فعله بخمسة أيام . وليس هناك الآن ما يدعوك إلى تصديقه . فأنت أدرى بالمثـل القائـل : " لا يلدغ الشخص من جُحر مرتين " .

ولمسؤول أميركي كبير تصريح غير رسمي يلقي أضواء على الاهـداف الأميركيـة يقـول : " إن احـتلال الكويت لا يشكل في حد ذاته تهديدا للمصالح الأميركية . فالتهديد الحقيقي يكمن في القوة التي يحـصل عليهـا العراق عندما يضع يده على ٢٠ % من احتياطي العالم من النفط ويسيطر على منظمة الأوبيك ويبسط هيمنتـه على الشرق الأوسط ، ويهدد إسرائيل ويسعى إلى الحصول على القنبلة الذرية ".

بحلول المساء كان بوش قد ضرب المثل في النشاط : ففي غضون أربعة أيام أجرى ثلاثا وعـشرين مكالمـة تلفونية مع أثني عشر من زعماء العالم ، وأحيانا بمعدل مكالمة كل ساعتين . والآن وقبل أن يعود إلى جناحـه الخاص تحدث بالتلفون مع كولن باول وعهد إليه بالبدء بتجميع كل القوات التي يمكن إرسالها إلى الـسعودية . وبعد ذلك بقليل عقد اجتماعا أخيرا مع جيمس بيكر وبرنت سكوكروفت لبحث العقبة الأخيرة المتبقية وهـي رد فعل الاتحاد السوفييتي .

كان بوش قد اعتزم اصدار الاشارة النهائية لانطلاق القوات مساء الاثنين بعد اجتماع تـشيني بالملـك فهـد ، بحيث تغادر طلائعها صباح الثلاثاء ، لكنه آثر الانتظار إلى يوم الاربعاء ليعلن ذلك.

اتفق الثلاثة على أن مواجهة الاتحاد السوفييتي بالأمر الواقع سيكون كارثة . فـإذا انتقـد غورباتـشوف نـشر القوات علانية فان جميع الجهود التي تبذل لإقناع الأمم المتحدة بالموافقة على العقوبات سـتتعرض للفـشل . وكان التصويت سيجري في الامم المتحدة بعد ظهر اليوم التالي . فاقترح سكوكروفت الاستفادة من " الوقـت القصير ولكن الكافي " لطمأنة موسكو وإطلاعها على النوايا الأميركية . وقال سكوكروفت : " يمكننا اسـتخدام دقة الوضع لتقوية العلاقات الأميركية السوفيتية بشكل أسرع " . وتقرر أن يستغل بيكر الفـرق فـي التوقيـت فيتصل بشيفارنادزه من موسكو في وقت متأخر من ذلك المساء .

* * *

وبحكم كون باول وبيكر وسكوكروفت دائما في الواجهة خلال إدارة الازمة فقد شكل ثلاثتهم في واقع الامـر وزارة حربية . على أنهم كانوا ذوي طباع مختلفة .

كان باول - كما يقول احد أصدقائه بمثل " الحلم الحقيقي رجال الاعمال " ، والتجسيد الحي للحلم الأميركـي . فهو ابن مهاجر من جامايكا ونشأ في هارلم وجنوب البرونكس (أي المنطقة بين هارلم ولونغ آيلنـد) . ولـم يكن طالبا نجيبا . ففي المدرسة الابتدائية وضع في قسم التلاميذ " البلداء " على ان هذا كله تغير في الجـيش . فقد برز في حرب فيتنام ونال احد عشر ميدالية . ولفت بتشدده في أمر " التهديـد الـسوفييتي " نظـر رجـال

ريغن . فدخل البيت الأبيض ولم يجد صعوبة في الانتقال إلى عهد بوش . وعندما عين جنـرالا اربـع نجـوم ورئيسا لهيئة الأركان المشتركة أكد بشيء من التحدي : " لقد شققت طريقي في سلم الجيش من دون أن ألعـب البريدج والغولف والتنس " .

وكان جيمس بيكر - الثالث الذي يحمل هذا الاسم كما يحلو له أن يقول - قد ورث كـأعز أصـدقائه بـوش ثروة كبيرة . ودرس بيكر بجامعة برنستون بينما درس بوش بجامعة ييل وقد أتاحت لبيكر ثروة أسـرته التـي تكونت من ممارسة المحاماة في هيوستن ان يشق طريقه بنجاح في ميدان الاعمـال الحـرة والـسياسة . وإذ تولى رئاسة هيئة الموظفين بالبيت الابيض في عهد ريغن ثم وزارة المال فقد كان رفيقـا دائمـا لبـوش فـي حفلات العشاء ، وعطل نهاية الأسبوع ، ورحلات صيد السمك . وبالرغم من أنه كان مثل بوش متحفظا فـي كلامه، فانه كان في أكثر الاحيان اكثر جزما وينفعل على نحو غير متوقع .

أما سكوكروفت الذي بلغ الخامسة والستين من العمر فهو وسط بين بوش وبيكر . كان حاد الذكاء يغلب عليـه الصمت . وسبق له أن كان جنرالا في سلاح الجو ، وعُرف بـ " الجندي المفكر " وكان شديد الولاء لبـوش . وشهد في عهود مختلف الرؤساء ما يحدث من تنافس بين رئيس مجلس الأمن القومي - وهو منصبه الحـالي - وبين وزير الخارجية ، ورأى كيف كان وزير الخارجية يخرج في الغالب منتصرا . وربما كـان هـذا مـا يدفعه إلى عدم التعالي على بيكر المتعطش اكثر منه إلى اثارة اهتمام وسـائل الاعـلام بـه . ولكنـه - أي سكوكروفت - صاحب نفوذ كبير ودهاء ربما ورثه عن مرشده ورئيسه السابق هنري كيسنجر . ومنـذ بدايـة الأزمة لم يفارق الرئيس بوش . وكان بعد له بياناته وخطبه ، ويحلل تقارير المخابرات بالتفـصيل ، ويـوازن بين منافع القرار ومضاره .

* * *

في السادس من أغسطس كان شيفارنادزه يقضي عطلة تمتد بضعة أيام في بيته الصيفي فـي القـرم . وكـان وحده فيه يتمتع بالراحة عندما رن التلفون وعلى طرفه الآخر زميل له في موسكو أبلغه أن وزيـر الخارجيـة الأميركية يريد أن يتحدث معه .

قال بيكر بصوت ينم عن سروره : " شيف ، كيف تجد عطلتك ؟ هل الجو جميل ؟ " لكن لـم يلبـث ان غيـر لهجته وقال : " سوف نرسل قواتنا إلى الخليج " وأضاف على الفور : " وذلك بطلب من السعودية " . ومـضى بعد ذلك يتحدث على آخر تقارير المخابرات حول الحشد المتواصل للقوات العراقية في الكويت وعلى الحـدود السعودية حيث احتشد اكثر من مئة ألف جندي . وأضاف : " نؤكد لكم اننا لا نحاول الاسـتفادة مـن الوضـع لنزيد من نفوذنا في المنطقة " . فقال شيفارنادزه : " ماذا تقصد بهذا ؟ هل تريـد استـشارتنا أم إبلاغنـا ؟ " ، وكان صوت شيفارنادزه يتصف بالبرود . فقال بيكر محرجا : " إننا نعلمكم لأنني لا أعتقد أنه شيء يمكـن أن نقوم به معا . لكن هل تريدون أن تفكروا في الأمر ؟ لست مخولا باقتراح مـشاركتكم لنـا. فهـل تتعـاونون بإرسال قوات بحرية أو برية ؟ ".

كان بيكر قد طرح هذه الفكرة أمام السعوديين في اليوم السابق فلم يعترضوا على التواجد السوفييتي . فلم يقـل شيفارنادزه شيئا ـ وعندئذ طرح بيكر سؤاله بطريقة أخرى : " لماذا لا نعمل فـي إطـار اللجنـة العـسكرية بالأمم المحتدة ؟ " وكان السوفييت يحاولون منذ سنوات ايقاظ تلك اللجنة من سباتها .
قام بيكر على الفور بإبلاغ مضمون الحديث لبوش وأظهر حماسة كبيرة لفكرة إشراك الـسوفييت فـي أزمـة الخليج . فأعرب بوش عن اهتمامه واتصل على الفور بكولن باول الذي لم يكن لديه اعتراض على المبادرة.
فعاد بيكر إلى الاتصال بشيفارنادزه . قال : " لا يرى الرئيس بوش عقبة أمام تواجد بحري أو بـري سـوفييتي في تلك المنطقة . فقال شيفارنادزه بمزيد من التحفظ : " حسنا . إذا كان الرئيس بـوش مهتمـا فعـلا بـالأمر فسوف ابحثه مع الرئيس غورباتشوف " .
كانت هذا تقدم كبير جدا . لأن هناك أولا البلاغ المشترك الذي سنصدره فـي موسـكو والـذي يتخلـى فيـه السوفييت عن أحد حلفائهم ويدينونه . نحن الآن نقترح حليهم أن يشاركوا سياسيا وعسكريا في الخليج " .
لكن لم تكد تتسرب أخبار هذا الاقتراح إلى خارج الحلقة الضيقة التي تضم زملاء بيكر المقربين حتى واجهـت وزارة الخارجية عاصفة أشبه بالثورة . فمنذ عشرات السنين كان هدف الـسياسة الأميركيـة إبعـاد الاتحـاد السوفييتي عن الشرق الأوسط . فجاءت مبادرة بيكر خروجا على هذه العقيدة . فانهالت على مكتبه المـذكرات التي يشيع فيها القلق أو الغضب من مختلف دوائر وزارة الخارجية . ووجد موظفوها حليفا غير متوقـع وهـو غورباتشوف . الذي لم يظهر امتنانه للاقتراح . فالمصاعب الداخلية التي كان عليـه أن يواجههـا والـذكرى المرة لغزو افغانستان شجعت زعماء الكرملين على اتباع سياسة الحذر والترقب .
قال بيكر لشيفارنادزه بعد بضعة أيام : " هذا العرض رمز لحسن النية " . فقال هذا باقتضاب : " شكرا لكـم . لقد أدركنا ذلك " .

* * *

قبيل ظهر اليوم ذاته عاد عرفات إلى القاهرة حيث انضم إليه أبو إياد الرجل الثاني فـي منظمـة التحريـر ، واستقبلهما مبارك . فأطلعه عرفات على ما دار بينه وبين صدام خلال مقابلتهما في اليـوم الـسابق . قـال : " إنه فعلا مستعد للتفاوض " . وأضاف أنه يخشى اكثر من أي وقت مضى حدوث مواجهة عسكرية . ونبه أبـو إياد إلى امكان تدخل اسرائيل . وبدا ان مبارك كان يشعر بعداء متزايد للعراق وأنه يعارض القيام بأية تـسوية . أما الذي أدى إلى اتخاذه هذا الموقف الجديد المتصلب فهو الحملة السياسية والاعلامية العنيفة في الولايـات المتحدة . فاعتزم عرفات وأبو اياد أن يذهبا إلى السعودية وهي البلد الوحيد الذي كان لا يـزال قـادرا علـى التفاوض معه حول التسوية.

* * *

في جدة كان ريتشارد تشيني يضع اللمسات الاخيرة على الاتفاق الذي جرى التوصل إليه مـع الملـك فهـد . والواقع أنه كان قد أصبح مفاوضا أكثر منه رسولا في الازمة القائمة . وكان يمثل الخيار الثاني لـدى بـوش

للحلول في منصب وزير الخارجية الذي يعتبر من المناصب الرئيسية . واقترح ترشيحه وأيده برنت سكوكروفت . وكان تشيني يعاني من مرض في القلب . وعندما اجتمع به سكوكروفت لبحث امكان ترشيحه كان السؤال الذي طرحه عليه بلا مجاملة : " ديك كيف صحتك ؟ " .

كان قد جرى التمهيد إلى حد كبير لمحادثات بوش التلفونية مع الملك بحضور الجنرال شوارزكوف وروبرت غيتس ، وأخو الملك ووزير الدفاع الأمير سلطان الذي كان قد قطع رحلة استجمام في مراكش ؛ وعبد ا بن عبد العزيز ولي العهد ؛ ونائب رئيس الوزراء ورئيس الحرس من البدو . وكان عبد ا طوال الوقت اكثر شكا في الاميركيين من فهد . وعليه فقد كان هو الذي ينبغي اقناعه . لكنه درس بعناية تقارير المخابرات الاميركية السرية والصور الفوتوغرافية التي التقطتها الاقمار الصناعية والتي تشير بالتفصيل إلى الحشود العراقية في الكويت وعلى الحدود السعودية وتحدث مطولا مع شوارزكوف وتشيني عن المواقع التي يمكن تمركز القوات الاميركية عليها . وقال له تشيني : " هذا كل ما نستطيع تقديمه لكم " . فقال فهد أخيرا : " حسنا ، سأقبل ذلك كله " .

وكان السعوديون قد اشترطوا مسبقا وقبل أن يعربوا عن موافقتهم النهائية . أنه " مما لا يقبل الجدل أنه لن يجري إنشاء قواعد عسكرية دائمة على أرضنا " . وكان الأميركيون قد توقعوا هذا فاقترحوا بروتوكولا سريا : لانسحاب القوات الاميركية من الاراضي السعودية حالما تسمح الاحداث بذلك ولكن اقامة قواعد دائمة ومساكن للقوات الاميركية والقوات المتعددة الجنسيات في إمارة البحرين وداخل الكويت .

لقد عوّل الاميركيون على عدم رضى الزعماء السعوديين . إذ كانت هناك اولا مشكلة الملك فهد الذي كان يتزايد عجزه عن الاقدام على أي عمل . ويقول احد المقربين منه والمطلعون على الامور : " لا تكاد تظهر المشكلة حتى يهرب الملك منها " . واخذ يطيل اعتكافه في قصره ويتجنب مستشاره ورجال اسرته . ثم ان الزعماء السعوديين كانوا يدركون مواطن ضعفهم : إذ كانوا قد اشتروا خلال السنوات القليلة الماضية ما قيمته ١٥٠ بليون دولار من الاسلحة المتطورة ومع هذا فقد كانوا يعترفون بأنهم لا يستطيعون صد عدوان جيش قوي كجيش العراق عليهم . كما أن السعودية كانت تستخدم دخلها الهائل البالغ خمسين بليون دولار في السنة في محاولة عقد التحالفات الاقليمية وتحييد اولئك الذين قد يصبحوا أعداء لهم . على أن أزمة الخليج كشفت عن نواحي قصور هذه الاستراتيجية .

* * *

عندما افتتحت المحادثات في جدة بين الاميركيين والسعوديين كان صدام حسين يستقبل جوزف ولسون القائم بالاعمال الاميركي في جدة . وبدا عليه الارتياح وهو يحيي الدبلوماسي الاميركي وبادره بقوله : " ما هي الاخبار السياسية والدبلوماسية ؟ " . فالتفت ولسون لوزير الاعلام العراقي الذي حضر المقابلة وقال : " لدى وزيرك من الاخبار التي يتلقاها من محطة سي أن أن(CNN) ما يفوق ما عندي " . فقال صدام :

" طلبت منك ان تدرس التطورات التي تحدث بعد مقابلتي لسفيرتكم . فقد تلت ذلك مفاوضـاتنا الفاشـلة مـع حكومة الكويت السابقة . لكن ما حدث قد حدث " . فقال ولسن : " لقد أخبرني وزيركم من قبل " .

* * *

واصل صدام كلامه للدبلوماسي الاميركي قائلا :

" إنني مطلع على تفاصيل الموقف الاميركي . نحن نعلم جيدا انه حين يحدث أي شيء في العـالم العربـي ، أوروبا ، أو في أميركا الاتينية يكون للولايات المتحدة موقفها دائما . ولا يفاجئنا ان يدين الاميركيـون عمـلا من هذا النوع الخاصة أنهم ليسوا طرفا فيه . ولكن على الولايـات المتحـدة ان تحـرص علـى أن لا تتبـع النصائح السيئة ، إذ قد تجد نفسها في وضع محرج .

" إنني متأكد من أنكم اطلعتم على الرسائل التي وجهناها إلى ايران خلال الحرب ، رسائل تقـيم الوضـع فـي الحاضر والمستقبل . وبما ان هذه الرسائل كانت في غاية الصراحة ، اعتقد الإيرانيون أنها لعبة تكتيكيـة مـن طرفنا . ولكننا كنا نقول لهم ما نعتقده لأننا كنا نريد السلام ولأن الحرب لا تفرحنا . ولكن تعرفـون النتـائج : فلو أخذ الإيرانيون بالاعتبار ما كنا نقوله لهم لما نشبت الحرب .

" أريد أن أتحدث عن العلاقات بين العراق والولايات المتحدة في ضوء التطورات وعما سيحدث إذا ارتكبـت الولايات المتحدة أي خطأ . وفي البدء سأتناول ثلاث نقاط ذات صلة بالوضع الراهن:

"كانت الكويت دولة بلا حدود حقيقية. وقبل عام ١٩٦١ لم تكن دولة . فما الذي حصل في عام ١٩٦١ ؟

"عندما عين عبد الكريم قاسم حاكماً على الكويت، تابعاً لمحافظة البصرة، كان العراقيون يعلمون، وكذلك عبـد الكريم قاسم نفسه، أن الكويت تشكل جزءا من العراق . كانت الكويت اذن حتى ذلك الحين دولة بدون حـدود، ولا يمكننا بالتالي أن نحكم على دخول القوات العراقية في إطار العلاقات بين دول العالم العربي.

"وأنتم تعلمون أنه كانت لنا منذ ١٩٧٥ علاقات ممتازة مع السعودية، وأن هذه العلاقات كانت تتطور بـصورة جيدة قبل الثاني من آب . فحتى تاريخ الثاني من آب كانت تسود فيما بيننا علاقات ثقـة وتعـاون فعليـة. وأيـا كانت السياسة الأميركية فاننا لم نر في علاقتنا الجيدة بالسعودية ما يضر بالمـصالح الامريكيـة . واذا صـح هذا فإن العلاقة الحسنة بين العراق والسعودية لم تضر الولايات المتحدة وليس هذا فحسب ، بـل انهـا كانـت عامل لستقرار في المنطقة . اذن فأي تدخل في العلاقات بين العراق والـسعودية لا يمكـن إلا أن يزعـزع الاستقرار في المنطقة وأن يلحق الضرر بالمصالح الأمريكية .

" إننا لا نفهم ما تقصدونه عندما تصرحون بأنكم تتخوفون من نوايا العراق تجاه السعودية وأنه بعـد الكويـت سيجيء دور السعودية . هناك شيء آخر لا نفهمه أيضا : فإذا كنتم تستبقون الامور وتدفعون بالـسعودية إلـى عمل ما ضد العراق ، فانكم تجبروننا على الرد وبذلك يكون عملكم من قبيل الاستفزاز .

" وكما تعلمون فاننا أول من اقترح عقد معاهدة أمنية مع السعودية تقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل من البلدين وعدم اللجوء إلى القوة ، ووقعنا الاتفاق . واقترحنا الاتفاق ذاته مع الكويت التي رفضته ربما بناء على نصيحة دولة أجنبية قد تكون بريطانيا .

" وتعلمون أيضا ان الاتفاق أزعج بعض الاوساط الغربية التي أخذت تسخر منه مقارنة إياه بالمعاهدات بين انجلترا وفرنسا (كمعاهدة سايكس - بيكو التي نصت على اقتسامهما للشرق الاوسط) . ونحمد ا على أن الكويت لم توقعه .

" كنت سعيدا جدا عندما قررنا دعم الجماعة الثورية في الكويت لأنه ليس هناك اتفاق بيننا وبينها . فلو كان هناك مثل هذا الاتفاق لما استطعنا ذلك .

" لقد ساعدتنا السعودية ودعمتنا خلال الحرب مع إيران . وبادرت إلى تمكيننا من استخدام خط أنابيب (لتصدير النفط عبرها) . بل إنهم قدموا لنا مساعدات مالية لا قروضا .

" فإذا كنتم قلقين فعلا على السعودية فإنه لا أساس لقلقكم . أما إذا كنتم تتظاهرون بذلك لإثارة قلق السعوديين فذلك شيء آخر . وسنقول الشيء ذاته لإخواننا السعوديين ، ونحن على استعداد لتقديم الضمانات التي يريدونها لإزالة قلقهم . ونحن فوق ذلك نشعر بأن من واجبنا إذا كان هناك خطر خارجي أن نحمي السعودية . أما علاقتنا بالعالم العربي فقد نتفق اليوم ونختلف في اليوم التالي . وحتى الآن لم تواجهنا مشكلة في ذلك .

" والنقطة الثالثة التي أريد أن اتحدث عنها هي الشائعات التي تقول بأن صدام حسين تعهد لبعض الدول العربية بأن لا يستخدم القوة ضد الكويت مهما كانت الظروف . كما علمنا أيضا بطريقة أو بأخرى أن بعض المسؤولين العرب أبلغوا شيئا كهذا للأميركيين . وأود أن اؤكد هنا انه ينبغي على الأميركيين أن لا يأخذوا بهذا . ذلك أنني لم اتعهد بذلك لأي عربي . وما حدث هو أن بعض الزعماء العرب تحدثوا معي عن حشد القوات على الحدود الكويتية وقالوا إن القلق والخوف استوليا على الكويتيين . فقلت لهم إنني وعدت أن لا أقوم بأي عمل عسكري قبل الاجتماع المتفق عليه بجدة . هذا هو ما حدث . إذ لم أقم بأي عمل عسكري قبل الاجتماع . وكنا ننتظر عودة نائب الرئيس (العراقي) لاتخاذ قرار .

" هناك من يتحدث عن السرعة التي تمت بها العملية ، ويقصدون بذلك أن النية كانت مبيتة للغزو قبل الاجتماع . لقد خطر ببالنا قبل الاجتماع أن نقوم بذلك بسبب الحركة الوطنية في الكويت لكنه لم يكن الخيار الأول أمامنا . كنا نبذل المزيد من الجهد للتأكيد على حقوقنا من خلال المفاوضات . فنحن عرب ، وكان من الطبيعي أن تكون لنا علاقات مع المعارضة الكويتية كعلاقات الكويتيين بالمعارضة العراقية .

" عندما باتت مصالحنا الاساسية مهددة وبعد أن استهلكت جميع السبل اضطررنا إلى اللجوء إلى القوة . والسؤال الذي يطرح الآن على الرئيس والقادة الأميركيين هو التالي : ما الذي يتهدد المصالح الأميركية في الكويت أو في غير الكويت ؟ .

" إنكم تعلمون أنكم كنتم تشترون نفط العراق منذ توليت الحكم . وبالرغم من أن علاقاتنا كان في تلـك الاثنـاء مقطوعة ، وأنكم صرتم تشترون المزيد منه بعد استئناف العلاقات عام ١٩٨٤ . وكنتم حين قـررتم مقاطعـة النفط العراقي تشترون ثلث نفطنا . وقراركم هذا قرار سياسي لا فني . إذ نعلم أن ما يخـدم مـصالحكم هـو التجارة واستمرار حصولكم على النفط . إذاً ما الذي يخيفكم ؟ ما الذي يجعلكم تبحثون الخيـارات العـسكرية التي ستنتهي حتما بالفشل .

" أنتم دولة كبرى ونحن نعلم أن باستطاعتكم أن تلحقوا بنا الضرر كما قلت سابقا لـسفيرتكم . ولكـن إذا مـا حصل ذلك ستخسرون كل المنطقة ولن تتمكنوا من تركيعنا حتى وإن استخدمتم كل ما تملكون مـن أسـلحة . يمكنكم أن تدمروا مراكز أبحاثنا التكنولوجية واقتصادنا ونفطنا . ولكن بقدر ما تدمرون تصبح الأشياء صـعبة بالنسبة لكم . ثم أننا لن نتردد في ضرب مصالحكم في المنطقة كما هجمنا على الكويـت عنـدما تـآمر هـذا الأخير ضدنا . لا تضعونا في مثل هذا الموقف . فعندما نرى حياتنا مهددة نهدد الآخرين . إننا نعـرف انكـم قوة عظمى قادرة على إلحاق الأذى والدمار ، ولكن لا أحد غير ا يستطيع تدمير الإنسان .

" لماذا تريدون ان تكونوا أعداء لنا ؟ لقد ارتكبتم ما يكفي من أخطاء بإضعاف حلفائكم في المنطقة الذين فقدوا أي اعتبار بنظر شعوبهم . وفي رأينا أنكم تحسنون رعاية مـصالحكم عبـر نظـام وطنـي واقعـي لا عبـر السعوديين . إنكم تتحدثون عن العراق المعتدي . فإذا كان هو المعتدي في حربه ضد إيران فلمـاذا حـافظتم على علاقاتكم معه ؟ إنكم تتحدثون عن تصريح الثاني من إبريل . إننا لم نصدر مثـل ذلـك التـصريح قبـل وخلال وبعد الحرب مع إيران .

" فما الذي جعلني إذن أصدر ذلك التصريح ؟ أصدرته لأن بعض الأوساط الغربية والأميركية كانـت تحـث اسرائيل على مهاجمتنا وذلك لوضع حد للعدوان . إننا نؤمن بأنه خدم السلام . كانت اسـرائيل سـتهاجمنا لـو لزمنا الصمت ، وكنا بالطبع سنرد على الهجوم . وتذكرون أننا خلال الحرب مع إيـران تعرضـنا للقـصف المتواصل ، وأننا عندما حصلنا على الصواريخ لم نبدأ باستخدامها بل بالتهديد بذلك . فلـو أن إيـران أخـذت بنصائحنا لما استخدمناها . ونحمد ا على أن إسرائيل استمعت إلينا . فهل خدم ذلك قـضية الـسلام ؟ يمكـن للعراق أن يصمد ضد الصواريخ أكثر من إسرائيل .

"،أخيرا فانه إذا كان الرئيس الاميركي يريد مواصلة اتباع سياسته في المنطقة والحفـاظ علـى بمـصالحه ، اللهم إلا إذا كان وراء تصعيد التوتر غرض أخر . وعلى أي حال فإننا نسعى إلى الاسـتقرار والـسلام ولـن نذعن لأحد . إننا نكره المجاعة والجوع . وقد سبق لشعبنا أن عانى من الجوع آلاف السنين . ولـن نعـود بـه إلى ذلك . إننا نتطلع بشرف إلى مستقبل إنساني يحفل ببناء يحفل ببناء وتطوير علاقات طيبـة مـع الولايـات المتحدة ، هذا إذا أرادت ذلك . تلك هي رسالتي الجديدة إلى الرئيس بوش " .

* * *

واخيرا استطاع ولسون أن يجيب فقال :

" شكرا يا سيادة الرئيس . سأنقل ما قلتموه إلى حكومتي ، وسأبلغ رسالتكم فورا بالتلفون كمـا أنـي سأرسـلها مسجلة على الورق . وكما قلتم بحق فان الوضع يهدد لا العلاقات الأميركية العراقية فحسب ، بل الاسـتقرار في المنطقة والعالم " فسأله الرئيس العراقي : " ولماذ يهدد العالم بالخطر؟ " فأجاب : " ما أعرفه هو أن القلـق والاضطراب يسودان الأسواق العالمية " . فسارع الرئيس إلى القول :

" كان ذلك خطأ منكم . قبلنا بخمسة وعشرين دولار للبرميل ، ولولا مقاطعتكم لوصل سعر البرميل إلـى ٢١ دولارا . وعندما تقاطعون خمسة ملايين برميل مرة واحدة فان ذلك يؤدي إلى عدم الاستقرار . ونعتقـد بـأن الذي سيستفيدون من ذلك هم تجار النفط لا الشعب الأميركي " . قال ولسون :

" أشعر أنني ضربت على وتر حساس . فالحقيقة هي أنني أردت أن أقول بأنه يبدو لي في هذه الايـام الـصعبة أنه من المهم أن نواصل الحوار بيننا لكي نتلافى الأخطاء. فبهذه الطريقة وحدها نستطيع إزالة التوتر وبـرودة العواطف . ولهذا فانني أرحب بهذه المناسبة لنقل الرسالة ؛ لكن أود تسجيل ملاحظتين قبل أن اعود إلـى مـا تفضلتم به ـ وسوف أحمل اليكم والى وزرائكم جواب الرئيس بوش . أولا ذكـرتم فـي القـسم الأول مـن رسالتكم أن الكويت جزء من العراق " .

فقال الرئيس :

" هذا هو تاريخنا . وعندما نقول ذلك فإننا نقوله لنؤكد للجميع بأن الكويت يجب أن تأخذه بعـين الاعتبـار لا أن تحتال عليه . هذا هو جوهر العلاقة بين العراق والكويت ، ويختلف الأمر بالنـسبة لمـصر أو الـسعودية " .

فقال ولسون : " يهمني أن أفهم طبيعة العلاقة " . وشرح صدام ذلك فقال:

" إن الذي يحدد هذه العلاقة شعبا البلدين لا أنا ولا الأميركيون أو السوفييت وغيرهم . وينبغي أن تقـوم هـذه العلاقات على الأخوة والاحترام المتبادل " .

فسأله ولسون : " وهل كان هذا ينقض العلاقة بين العراق والكويـت ؟ " . فأجابـه صـدام بقولـه : " أجـل وخصوصا في الشهر الماضي . لقد ركضت وراء جابر في محاولة مني لتحديد الحدود فقال : دع الآخـرين يفعلون ذلك ؟ لدينا ما يثبت قولنا . ولهذا استغربنا قوله ، ووجدنا بعد ذلك أنه كان يتآمر علينا " .

قال ولسون : " اشكركم . وسأنتقل الآن إلى ملاحظتي الثاني . تحدثت عن علاقـاتكم الأخويـة مـع الـسعودية وذكرتم اتفاق عدم الاعتداء عليها . أود أن أبلغكم قلق حكومتي حول نواياكم الحالية . وأشعر أنكم فعلتم ذلـك بوجه عام ولكن اسمحوا لي . . . " وهنا قاطعه الرئيس العراقي بقوله :

" وما الذي يبدد قلقكم ؟ " فقال ولسون : " لا ادري . وسوف أسأل رئيسنا . أعلم أنك شخص صريح ومـستقيم ، ولكن أرجو أن نتفق على أنه نظرا للأحوال السائدة الآن حيث لم يحـصل أي عمـل عـسكري مـن قبـل الولايات المتحدة أو السعودية فانك تتعهد بأنك لا تنوي اتخاذ أي عمل عسكري ضد السعودية " . فكان جـواب صدام :

" يمكنكم أن تبلغوا تعهدي إلى السعوديين والى كل العالم . فنحن لا نعتدي على مـن لا يعتـدي علينـا ، ولا نؤذي من لا يؤذينا . ومن يسعى إلى صداقتنا يجدنا أشد تحمسا لمصادقته . وبالنسبة للسعودية فان الفكـرة لـم تخطر ببالي . فصداقتنا قوية . وإذا كنت تعرف شيئا لا نعرفه فأود أن تطلعني عليه . فمن الطبيعـي وممـا لا يزعجنا أن يستقبل الملك فهد حاكم الكويت السابق الشيخ جابر . ولن يساورنا القلق إلا إذا سـمح لـه بالعمـل ضد العراق من بلاده . وبالمناسبة أبلغ تحياتي للرئيس بوش وأطلب منه أن يسلّم بأن أسرة جابر ومـن حولـه قد انتهوا وأصبحوا جزءا من التاريخ.

" من الأمور المشروعة أن يهتم كل شخص بمصالحه الخاصة . ونود أن نعرف تماما مـا هـي مـصالحكم المشروعة لكي نضمن لكم سلامتها . وأود أن تعلموا أن استقبالي لكم ليس حركة تكتيكيـة . وبرهنـت علـى ذلك باستقبالي لكم بعد المقاطعة . ولست أسعى إلى إلغائها . ولا أسعى الآن حتى إلى موافقة الولايات المتحدة على ما فعلناه .

" فالذي أود معرفته هو المصالح المشروعة للولايات المتحدة . كما أود أن أنصحها بان لا تقدم على خطـوات جريئة لا تستطيع التراجع عنها " . فقال ولسون :

" سأعلم حكومتي بذلك . لقد أتيت إلى هنا وفي ذهني أفكار ثلاث تقلق حكـومتي . أولا ، طبيعـة الإجتيـاح . وتعرفون تماما موقف حكومتي من ذلك . ثانيا ، نواياكم مستقبلا تجاه السعودية وهذا ما أجبتم عليـه . وأخيـرا ، أمن الرعايا الأميركيين وخصوصا السماح لمواطنين الأميركيين بالرحيل . وكما تعلمون فـإن الأميـركيين حساسون جدا فيما يختص بفقد حرية التنقل . وهذا ينطبق أيضا على الأميركيين في الكويت حتـى لـو سـلمنا بحدوث الانسحاب (وربما كان يشير بذلك إلى الانسحاب الجزئي الزائف الذي أعلن عنه في أعقاب الغزو).

فسأله صدام :

" كيف يمكنكم الإدعاء بأنه لم يحصل انسحاب ، ثم الحديث عن شيء مختلف ؟ " فقال ولسون :

" شاهدت ثلاث قوافل تغادر البصرة وأعلمت واشنطن بالأمر ". قال صدام :

" لقد استغرق دخول قواتنا إلى الكويت ثلاثة أيام ولا يمكنها أن تنسحب في يوم واحد . ولا بد لهذا الانـسحاب أن يستند إلى اتفاق دولي ، ولن نسمح بوقوع الكويت في أيدي قوة اخـرى . وإذا تزايـدت التهديـدات ضـد الكويت فاننا سنرسل افواجا أخرى . وطبيعة هذه التعزيزات مرتبطة بطبيعـة التهديـدات . وعنـدما يـزول التهديد تنسحب قواتنا . نحن لا نريد أن تتحول الكويت إلى لبنان آخر . ولا اعتقد أنه مـن مـصلحة أحـد أن ينسحب الجيش العراقي بسرعة تاركا الكويت مسرحا للقوات المتنـاحرة . لقـد أخـذت الحكومـة المؤقتـة بنصيحتنا لها بتشكيل ميليشيات منفصلة . وكنا نصحناها أيضا بأن تصبح مكتفية ذاتيا وأن تعتمد علـى الجـيش الشعبي . أما بالنسبة للأميركيين في الكويت والعراق فإن السفر محظور على العراقيين والأجانـب فـي كـلا البلدين . ومصادركم على علم بأن جيشنا عامل الأجانب بطريقة رتيبة . وقد سـمحت حكومـة الكويـت فـي بلاغها بالسفر إلى العراق إذا توافرت السلامة " . فسأله ولسون :

" هل لي أن أطلب منكم مباشرة أن تعلموني متى ستسمحون للرعايا الأميركيين المقيمين والزوار منهم بمغادرة البلاد ؟ " . فسأله صدام :

" هل تسأل عما إذا كان سيسمح لجميع الأجانب بذلك ؟ " فقال ولسون : " لا أسمح لنفسي بالكلام نيابة عن الآخرين " . فقال الرئيس : " اردت أن أوضح أن هذا التقييد لا ينطبق على الأميركيين وحدهم . وسوف نبلغكم عن ذلك في حينه " . فسأله ولسون : " أرجو أن تسمحوا لي بأن أطلب منكم دراسة هذه المسألة بأسرع ما يمكن لأنها قضية عاطفية جدا وحسّاسة بالنسبة لحكومتنا وشعبنا " . فقال الرئيس : " نفهم ذلك ؛ ونفهم أيضا جانبه الإنساني " .

وواصل ولسون كلامه فقال : " أخيرا أود أن أضيف شيئين . لقد أشرتم إلى حسن تصرف القوات العراقية وهذا ما أكده لي وزيركم ونائبه ، وأعتقد أنه شيء منتظر . لكن أود لفت انتباهكم إلى أمر مهم وهو أن الجنود العراقيين اقتحموا في الليلة الفائتة بيت المستشار بالسفارة الأميركية في الكويت . وهذا يناقض السياسة التي شرحتموها . وأضيف إلى ذلك أن ما فعلوه هو انتهاك للحصانة الدبلوماسية . وما كنت لأذكر هذا لولا أنكم أثرتم هذه المسألة " . فقال صدام :

" اجتمعت بالأمس مع بعض ضباطنا وحدثوني عن بعض الآسيويين والسعوديين وغيرهم ممن يخلّون بالأمن . وعلى أي حال فإذا كان الجيش العراقي قد فعل فإننا سنعترف به ، وسنؤكد لكم أنه عمل خاطئ وأننا سنقوم بمعاقبتهم . فهذا التصرف يتعارض مع سياستنا " . فقال ولسون :

" نقطة أخيرة . في هذه الأيام الصعبة وخصوصا بالنسبة لسلامة المواطنين الأميركيين . .. " وهنا قاطعه صدام قائلا : " هل تعتزمون مهاجمتنا ؟ أمن أجل هذا تريدون ترحيل مواطنيكم ؟ " فأجاب ولسون : " كلا . ولكن من واجبي أن اوفر لهم حرية لاتخاذ قرار بذلك . فأنا شخصيا سأبقى ، وأحب الحياة هنا. وأود أن أضيف أنه خلال الأزمة كانت أبوابها تظل مفتوحة لي ولزملائي من الساعة الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء . كما اني اعبر لكم عن تقديري لرغبتكم في مقابلتي وعن رغبتي في الاطمئنان على مصير مواطنينا في الكويت " . فقال صدام : " كن مطمئنا " .

وعندئذ قال ولسون : " أود أؤكد لكم إخلاصي لمهنتي . فالحوار عصب حياة الدبلوماسيين ومجال السياسة " . فقال صدام : " من الطبيعي أن تطمئنني إلى حسن نوايا زملائكم ؛ لكن عليك أن تتعهد لي بنقل رسالتي إلى الرئيس بوش " . فقال ولسون : " حدث أخيرا أن التقيت في أفريقيا بأحد ارؤساء الإفريقيين فطلبت منه أن يعود إلى وقائع اجتماعنا . ولو عدت إلى محادثاتي معكم لوجدت أنني شكرتك كثيرا " .

في العاشرة مساء بجدة ، اتصل ريتشادر تشيني بالبيت الأبيض عبر الخطوط الخاصة بفندقه . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر في واشنطن . فأطلع الوزير رئيسه على الضوء الأخضر السعودي الذي اقترن بشرط وهو أن على الولايات المتحدة إرجاء الاعلان عن ذلك حتى وصول طلائع القوات . ثم اتصل تشيني بكولن باول

. وفي الرابعة بعد الظهر أصدر الرئيس الأمر النهائي بانتشار القوات الأميركية . وفي حديثه مع باول أسند إلى هذه القوات أهدافا ثلاثة وهي :

ردع العراق عن أي اعتداء ، والدفاع عن العربية السعودية ودعم قدرات شبه الجزيرة العربية . وتلقى كبار الضباط تعليمات بأن يظلوا مستعدين لمهام أخرى ، ولكن لم يتطرق إلى ذكر شيء حول هجوم محتمل يهدف إلى إرغام العراق على الانسحاب من الكويت .

وبعد ساعة أقلع سرب من المقاتلات من طراز ف ١٥ باتجاه السعودية . وبذلك بدأت عملية درع الصحراء وفي ديسمبر ١٩٨٩ استغرق اتخاذ قرار من قبل بوش لغزو بنما تسع عشرة ساعة . واستغرق اتخاذ قرار بالرد على غزو الكويت ١١٥ ساعة .

* * *

توقفت مارغريت تاتشر في طريق عودتها من كولورادو بواشنطن . فاستقبلها بوش الذي كان قد اجتمع قبل ذلك بقليل مع الأمين العام لحلف شمال الأطلسي مانفرد وورز. وفي تلك الأثناء وصلت نتائج التصويت في مجلس الأمن على القرار ٦٦١ الذي نال ثلاثة عشر صوتا وامتنع اثنان عن التصويت وهما كوبا واليمن . وقد حبذ القرار مقاطعة العراق تجاريا وماليا وعسكريا.

بعد ذلك بقليل أبحرت حاملة الطائرات سراتوغا والبارجة وسكونسن إلى الخليج . وأخذت الولايات المتحدة ترسل الإمدادات لدعم وجودهم البحري في المنطقة تمهيدا لحصار عسكري يهدف إلى دعم قرار الأمم المتحدة . وسأل بوش تاتشر كثيرا عن سير الحرب بجزر فولكلند والصعوبات التي كان عليها مواجهتها .

وفي اليوم ذاته تلقى البيت الأبيض أول برقية مختصرة عن المحادثات بين صدام والقائم بالاعمال الأميركي ببغداد وذلك قبل أن يتلقى النص كاملا . وعندما تم فك رموزه لم يثر الكثير من الحماسة . صحيح أن صدام صرح بأنه لم تكن لديه أية نية لغزو السعودية ، لكن الشك كان يكتنف تصريحه . وقال أحد مساعدي بوش : " من الصعب تصديق شيء مما يقوله . فما أكثر الضمانات التي قدمها قبل غزوه للكويت ".

* * *

كان مجلس الأمن مجتمعا للموافقة على القرار (٦٦١) الذي يفرض عقوبات على العراق . لكن حدث ما ولد الانطباع بأنه في حين أن البيت الأبيض يرفض ما قاله ولسون عن صدام حسين فإنه مستعد لاتخاذ موقف أكثر اعتدالا منه . ذلك أنه عندما لاحظ السفير توماس بيكرنغ علامات الاكتئاب بادية على وجه السفير الأردني عبد ا صلاح ذهب إليه وقال : " تشجع ، وقل لعمان أن تتصل ببغداد وتحصل منها على جواب . إذ لم ينقطع الأمل بعد " . ثم أملى عليه خمس نقاط (ليرسلها إلى بغداد) .

١ ـ يجب أن يكون هناك انسحاب معلن وبيان يشتمل على جدول زمني يقول مثلا : في يوم الأربعاء سنفعل كذا . لكن لا ضرورة للقيام بهذا (الانسحاب) في يوم وليلة .

٢ ـ لا ضرورة للقلق حول عودة الأمير وأسرته . إذ يمكن الاهتمام بذلك فيما بعد .

٣ ـ إننا نعتقد بأن موقفكم من القضايا المعلقة بينكم وبين الكويت جدير بالاهتمام . وفي حين أننـا لا نناصـر فريقا على آخر فاننا سنقوم بما هو ضروري للقيام بما يتطلبه الموقف من توسط وغيره.

٤ ـ إننا نعترف بحاجتكم إلى منفذ على الخليج ، ونتعاطف مع قضية وصولكم إلى جزيرتي وربة وبوبيان .

٥ ـ نقترح الدعوة علنا إلى استفتاء يتيح للمواطنين الكويتيين أن يقرروا مصيرهم .

وفي تلك الليلة بعث السفير الأردني الرسالة . وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي أيقظه زيـد بـن شـاكر وزير البلاط وقال له : " لكن هل الرسالة من صنع بيكرنغ أن هي بالون اختبار من الإدارة ؟ ".

فاتصل عبد ا صلاح ببيكرنغ لمعرفة ما إذا كانت تلك هي مقترحات الإدارة . فأجاب بيكرنغ : " لا اعـرف تماما غير أني على يقين من انها أقرب ما تكون إلى التعبير عن موقف الادارة " .

وعلى الأثر اتصل بيكرنغ ببيكر وزير الخارجية الذي قال بأنه سيعود إلى الاتصال به . واتصل بالفعـل بعـد خمس دقائق وقال : " يمكننا تحما هذا : وعلى الاثر قام بيكرنغ بتبليغ ذلك إلى السفير الأردنـي . وكـان مـن المنتظر أن يجري على الفور نقل الرسالة إلى بغداد . لكن ليس هناك ما يؤكد نقلها .

الفصل الثامن

((سطر كتب على الرمال))

عندما نزل ياسر عرفات وأبو إياد في مطار جدة في السابعة من صباح ٧ أغسطس كانوا مثل باقي الناس فـي العالم لا يعرفون شيئا عن الاتفاق الذي تم بين الزعماء السعوديين وواشنطن وعـن عمليـة درع الـصحراء الوشيكة الوقوع .

كان الليل في آخره في القواعد الأميركية على ساحل الولايات المتحدة الشرقي ، حيث كانت طلائع القـوات { المتجهة إلى الخليج } . لكن لم تظهر أية علامات على وجود نشاط غير عادي.

عندما وصل الزعيمان الفلسطينيان قصر الملك فهد وجدا الجو المخيم عليه محيرا. لقد اعتادا أن يجداه غارقـا في صمت يدعو إلى الخمول . أما عندئذ فكان خلية تعج بالنشاط . كانت ارتال السيارات تشاهد فـي طريقهـا إلى القصر حاملة أركان الحكم ، بينما كان مسؤولون آخرون يروحون ويجيئون فـي دهـاليز القـصر وهـم يحملون الملفات .

وظل عرفات وأبو إياد ينتظران إلى ان وصل رسول من الملك وأبلغهما ان الملك لن يستطيع اسـتقبالهما قبـل اليوم التالي . فقال عرفات مشيرا إلى الحركة غير العادية : " ما الذي أثاركم على هذا النحو ؟ " .

فتردد رسول الملك قليلا ثم أجاب بقوله : " لقد وصل وزير الدفاع الأميركي أمس على رأس وفد . وهـو الآن يواصل محادثاته مع الملك " .

فأقلقت هذه الأخبار عرفات . ولم يكن أبو إياد المسؤول عن دوائر الأمن والمخابرات بالمنظمة قد علم مـسبقا بالزيارة . وعليه فإنهما أخذا يفكران في وضع جدول لزيارتهما .

وقبل ان يقررا زيارة السعودية للاجتماع بالملك فهد كانا يعتزمان الذهاب إلى فيينا للاشتراك في تشييع جنـازة المستشار السابق برونو كرايسكي الذي كان يدافع عن الفلسطينيين . لكن لم يعد بإمكانهما القيام بالرحلة لعـدم وجود طائرة تقلهما إليها . وعبّرا عن خيبة أملهما لرسول الملك الذي أبلغهما نبأ تأجيل اجتماعهما مع الملـك ، فاستمع اليهما باهتمام وبعد أن غاب حوالي عشرين دقيقة عاد منفرج الاسارير وقال : " لقد تم ترتيب سـفركما . أمر الملك بتخصيص طائرة لكما . وهي الآن جاهزة لنقلكما إلى فيينا واعادتكما إلى جدة " .

* * *

في القدس أدى تشييع جنازتي شابين اسرائيليين كانا قد قتلا، إلى أعمال عنف ضد العرب .

وفي مقر المخابرات العسكرية كان هناك أمران يشغلان الخبراء . فالعراقيون بغزوهم الكويت اسـتولوا مـن الكويتيين على أعتدة عسكرية متطورة أكثرها من صنع أميركي وشبيه بالاسـلحة الموجـودة لـدى القـوات الإسرائيلية . وبالاضافة إلى هذا كشفت " المصادر " أن المخابرات العراقية السرية تلقت وهـي تعـد للغـزو معلومات كثيرة من مخابرات منظمة التحرير . وهذه بدورها حصلت عليها من الفلـسطينيين الـذين يحتلـون مناصب مهمة في الكويت . وفي تلك الاثناء كانت طائرات ف ١٥ وف ١٦ تقلع من الولايات المتحـدة إلـى السعودية بينما كان أربعة آلاف رجل من الفرقة المحمولة جوا يتأهبون لمغادرة البلاد.

وبدأت الآثار الأولى لضغوط واشنطن السياسية هي الأخرى بالظهور . فقد أغلق الـسعوديون خـط الأنابيـب الذي ينقل النفط العراقي إلى البحر الأحمر ، ومنعت تركيا نقل النفط عبر أراضيها إلى شواطئها على البحـر الأبيض المتوسط .

وكما قال أحد السياسيين الأوروبيين فانه كان هناك أسلوبان لمعالجة المـشكلة وهمـا " المواجهـة والخنـق " واختار بوش اللعب بالورقتين في الحال . لكن كان كلاهما يتطلب درجة كبيرة من التنسيق والتعاون الـدوليين ليكون فعالا.

وفي داخل الدائرة المغلقة لزملاء بوش من أصحاب الاطلاع دار نقاش مثير حول أفضل وقت لاعلان حـشد القوات في الخليج . ورأى أكثرهم أن يعلن عن ذلك بالتلفزيون مساء الثلاثاء " قبل ان تنشر الـصحافة أخبـار العملية " . أما بوش الذي لا يشعر بالارتياح عندما يظهر على شاشة التلفزيون فقـد تمـسك باعتقـاده الـذي يشوبه الغموض وهو أن الاعلان يجب أن " يجري في اللحظة المناسبة سياسيا وعسكريا " .

* * *

في تلك الاثناء أكد صدام حسين عبر التلفزيون أن احتلال الكويت " أنهى التجزئة الاستعمارية " التـي كانـت تفصل الأكثرية افقيرة عن الأقلية الغنية .

* * *

عاد عرفات وأبو إياد من فيينا ليلة الثامن من أغسطس واستقبلهما الملك فهد في الصباح ، وحـضر المقابلـة الأمير عبد ا ولي العهد . وكانت طلائع القوات الاميركية قد بدأت في الوصول .

وكان عرفات قد أصبح على مر السنين خبيرا في فن البقاء . فبعد أن تولى دور الوسـيط الـذي تخلـى عنـه الملك حسين بسبب خيبة أمله ، اعتقد انه يستطيع تعزيز مكانة المنظمة لا بين رؤساء الدول العربية فقـط بـل في الغرب . وكان قد رفض أن يدين غزو الكويت واعتبر ذلك ورقة مرور رابحة تمكنه مـن البقـاء علـى اتصال بصدام حسين لكن موقفه لم يكن مصدر قوة له . فالواقع أنه أضعف مركزه .

وكان حافظ الأسد يحتقره ، ومبارك لا يثق فيه ، ودول الخليج تشجب موقفه . والسعودية وحدها التـي كانـت مموله الرئيسي وقفت موقفا معتدلا من المنظمة .

وقبل وصول عرفات وأبو إياد إلى الرياض كانا قد فكرا في الانعكاسات المالية المحتملة للأزمة على المنظمة . وكان بعض مستشاري المنظمة الموثوق بهم قد نطقوا بكلمة " إفلاس " فإذا فقد الفلسطينيون البـالغ عـددهم ٤٠٠ ، ٠٠٠ أعمالهم في الكويت وإذا تراجعت الدول عن تعهداتها المالية فان المنظمـة سـتجد نفـسها بـلا موارد تذكر .

وكان عرفات قد طلب وضع خطة تأخذ بعين الاعتبار تخفيض ٣٥ % من الميزانية السنوية التي تبلـغ بليـون دولار . وجاء إلى جدة لا للمفاوضة فقط بل ولطلب المال .

وفاجأ الملك المتزن عادة ضيفه – عرفات وأبو إياد – بهجومه العنيف على آل الصباح الـذين لجـأوا إلـى بلاده . قال غاضبا : " لدي انتقادات كثيرة لهم . إنهم لم يسددوا ديونهم . إنهم يتحملون القـسط الاكبـر مـن المسؤولية عن نشوء الأزمة " .

ثم بحث الملك مع الزعيمين الفلسطينيين خطة انسحاب من الكويت يمكن تقـديمها لـصدام حـسين ، وتـسمح للعراقيين بالانسحاب إلى المنطقة المتنازع عليها حيث آبار النفط . وتمكنهم من البقاء في الجزيـرتين اللتـين توفران لهم منفذا على الخليج . فسأله أحد الفلسطينيين : " هل جلالـتكم علـى اسـتعداد للاجتمـاع بـالزعيم العراقي ؟ " فنظر الملك إلى ولي العهد الأمير عبد ا وأجاب :

" نعم إذا التزم بهذه الشروط " . ووافق الملك كذلك على تقديم مال للعراق . وكان طوال المقابلة يتحدث عـن صدام حسين بطريقة سلمية جدا .

وتحولت وجهة الحديث على نحو لم يسرّ الفلسطينيين عندما أثيـرت مـسألة تمويـل المنظمـة . إذ اسـتولى الغضب على الأمير عبد ا الذي كان أقل مجاملة من الملك وقال :

" يبدو أنكم ايها الفلسطينيون لا تعرفون شيئا عما يفعله الكويتيون من أجلكم . إنكم لم تقدموا لهـم شـيئا فـي مقابل ثقتهم بكم ومساعدتهم لكم . "

وأخذت حدة النقاش تتصاعد فأمر الملك الجميع بالهدوء .

* * *

في الرابعة صباحا خرج بوش من جناحه بالبيت الأبيض وتوجه إلى قاعة المؤتمرات حيـث قـام مـع برنـت سكوكروفت بالإشراف على مغادرة القوات الأميركية . وفي السادسة صباحا عاد إلى المكتـب البيـضاوي .

ورأى في طريقه صحفيا ملحقا بالبيت الأبيض فطلب منه أن يستمع باستمرار للراديو . وفـي التاسـعة التقـى بالصحفيين في مكتبه وأعلن عن العملية . وعندما انتصف النهار عقد مؤتمرا صحفيا صرح فيه أنـه " جـرى رسم خط على الرمل " .

وفي التاسعة قام بمهمة يكرهها وهي الظهور على شاشة التلفزيون لمخاطبة الأمة . وبدا عليه التجهم والتـوتر وقال : " يأتي وقت في حياة الأمة ندعى فيه لأن نكتشف من نحن وبماذا نؤمن . واليـوم وبوصـفي رئيـسكم أطلب منكم دعمكم للقرار الذي اتخذته والذي يسمح لنا بأن نقف بثبات إلى جانب الحق ، وأن ندين الباطـل " .

وأوضح في خطابه أن مهمة القوات الاميركية دفاعية تماما . وقال ان لها أربعة أهداف : انـسحاب العـراق الفوري غير المشروط من الكويت ؛ وإعادة الحكومة الشرعية إلى الإمارة ؛ والحفـاظ علـى أمـن منطقـة الخليج، وخصوصا لاحتياطي النفط ؛ وحماية الاميركيين .

* * *

لم يكد الرئيس بوش يلقي خطابه حتى أصدر مجلس قيادة الثورة في العـراق بيانـا يعلـن " ضـم الكويـت " ووصف ذلك بأنه " وحدة أبدية " .

وفي السعودية وغير بعيد عن الظهران حيث مقر الأرامكو بدأت طلائع القوات الأميركية بالانتشار . وذكرت مصادر البنتاغون أن ٥٠٠،٠٠٠ جندي سوف يأخذون مواقعهم قبل نهاية الشهر .

وكان العالم العربي يقوم بآخر محاولة يائسة لتسوية الازمة وكان مبارك منذ اليوم الـسابق يتـصل بزعمـاء المنطقة لعقد مؤتمر في القاهرة في العاشر من أغسطس .

* * *

في تلك الاثناء كانت الحكومة في بغداد تقوم بالخطوات الازمة لقطع ما تبقى من علاقات بينها وبـين العـالم الخارجي . ففي التاسع من أغسطس وبعد إعلان ضم الكويت بأربع وعشرين سـاعة قـرر العـراق إغـلاق حدوده وإبقاء جميع الاجانب على أراضيها " لأسباب أمنية " الأمر الذي كان سيحول ثلاثة ملايين شخص إلـى رهائن .

كما أعلن العراق بأنه على جميع السفارات الأجنبية في الكويت ان تغلق أبوابها في غضون أربـع وعـشرين ساعة . لكن الصحافة الأجنبية عوملت معاملة خاصة . فمنح الصحفيون حرية الدخول والخـروج . وأحـسنت بغداد بصورة خاصة معاملة شبكات التلفزيون الأميركية .

وعلق المسؤولون العراقيون على الحصار والاجراءات العسكرية ضدهم بقولهم : " نـستطيع العـيش بـدون بيبسي (كولا) وبدون كومبيوترات ماكنتوش وبدون ويسكي " . لكنهم لم يذكروا أن العراق كـان معـاني مـن نقص في الحبوب وأنهم كانوا يستوردون ثلاثة أرباع ما يستهلكونه من القمـح وكميـات كبيـرة مـن الأرز والسكر واللحم . والواقع أن العراق كان قد قام بتخزين حاجياته بسبب توقعهم حدوث الأزمة .

وفجأة اختفى صدام حسين بصورة غريبة من البلاد التي أعاد تشكيلها . كانت صورته في كـل مكـان : فـي الشوارع وعلى جوانب التماثيل والبنايات العامة . وكان قد أوجد حقائق جديدة ، وأعاد صياغة غيرهـا علـى طريقته . وأقام في بغداد صرحا شبيها بقوس النصر الباريسي أسماه " سواعد النصر " وطولـه نحـو ثلاثـين قدما وعلى شكل سيفين متقاطعين يحملهما ذراعان ضخمان من البرونز . وكان تصميمه يمثل الـشعار الـذي اتخذه صدام والذي يرمز إلى انتصار العراق على إيران – وهو الانتصار الذي لم يحـدث . لكـن الـشعب العراقي لم يحتج على ذلك بسبب يقظة البوليس السري . وكما قال أحد الدبلوماسيين فانه لم تكـن تـصل إلـى البلاد " سوى لقطات من حقائق العالم الخارجي " . إذ كان صدام قد كون البلاد على صورته هـو . فـصارت مثله تجهل ما يجري في الخارج وتنعم بعزلتها .

ومرت أيام في الشطر الأول من أغسطس لم يشاهد أحد خلالها الرئيس العراقـي . وكانـت الـدفاعات ضـد الطيران قد عززت حول القصر الرئاسي . لكنه لم يكن يتواجد هناك إلا نادرا . ولما كـان يخـشى القـصف ومحاولات الاغتيال فقد صار يميل إلى تغيير مكان إقامته كل ست ساعات ويقضي أكثر وقته فـي حـصنه . وكان منذ زمن طويل قد اعتاد أن يتصرف بلا غاية سوى البقاء على قيد الحياة . أمـا الآن فقـد كـان كمـا يعرف تماما يقوم بأخطر لعبة خلال حكمه .

كان قد أحرق كل الجسور . وفي هذه الفترة التي تعرض فيها للإدانة دوليا فـان الـزوار الأجانـب صـاروا يتحاشون الذهاب إلى بغداد . ولم يشذ عن ذلك سوى ياسر عرفات وأبو إياد اللذين كان يسعيان إلى التسوية .

* * *

خرج صدام من مخبئه لمقابلتهما . ولم يبد عليه شيء من القلق أو الدهشة بسبب الحملة الشعواء التـي شُـنت عليه . وكانت الأمور قد ازدادت تعقيدا بعد الاجتماع الأخير بين صدام وعرفات . وكان قد جرى إعلان ضم الكويت وأخذت القوات الأميركية تصل إلى السعودية . وقدر لاجتماعهم هذا أن يدوم ثلاث ساعات .

حاول عرفات وأبو إياد إقناعه بحضور قمة القاهرة في اليوم التالي . فرفض ذلك إذ كان أمير الكويت يعتـزم حضورها . وبالرغم من جميع محاولاتهما فانه لم يغير موقفه . وقال لهما بغضب : " لقـد زالـت الامـارة وممثلوها من الوجود " . وكانت تلك اللحظة الوحيدة التي خرج فيها عن طوره.

فاقترح الزعيمان الفلسطينيان خطة أخرى تقضي بأن يسافر عرفات إلـى القـاهرة ويقنـع زعمـاء الأقطـار الرئيسية الخمسة بزيارة بغداد لإجراء مفاوضات ، على أن تتوقف القمة إلى أن يعودوا . لكنهما كانا يـدركان أن اقتراحهما فيه مجازفة كبيرة ومعقد إلى حد يتعذر معه نجاحه إلا إذا استطاعا اقناع رؤساء تلـك الاقطـار الخمسة حال وصولهم إلى القاهرة . ووافق صدام على الاقتراح .

وعندما انتهى الجانب الدبلوماسي الصرف من الاجتماع استبقاهما صدام ليتحدث إليهما . وتكلم بهدوء وحـزم عن الحريق الضخم الذي كان باستطاعته إشعاله في المنطقة . ولم يعمد إلى التبجح ، بل كان واضـحا ودقيقـا وكأنه خبير في القنابل يعد قنبلة للتفجير ويختار وقت تفجيرها .

ثم تحدث صدام عن احتمال نشوب الحرب بينه وبين الولايات المتحدة فقال : " من الواضح أنه حالما أهاجم سوف أهاجم اسرائيل . فتدخل إسرائيل في النزاع سوف يغير موقف كل شخص في العالم العربي ، وسوف يعتبر العدوان على العراق مؤامرة أميركية صهيونية . وسوف يقوم عدد من الدول التي تدعم الولايات المتحدة الآن وخصوصا مصر وسوريا بتغيير موقفها عندما ترى أن إسرائيل تشارك في الحرب ."

ثم أوضح صدام ذلك فيما بعد بقوله : " إنني أقوم بتعزيز البنية العسكرية التحتية في الكويت . سيكون هناك أربعة خطوط دفاعية إثنان منهما للدفاع عن مدينة الكويت . وسوف تضطر القوات الأجنبية إلى اختراقها إذا أرادت استعادة المدينة . وحتى لو تحقق للولايات المتحدة التفوق في الجو فان قواتي ستلحق خسائر جسيمة بالقوات المهاجمة " .

وكان الجانب الثالث من خطته يتعلق بالسعودية " حيث تشكل فريق من العراقيين والسعوديين مستعد لشن هجمات إرهابية على القوات الأميركية المتمركزة على الأراضي السعودية " .

وختم صدام حديثه بقوله : " إذا نشبت الحرب فسوف يقع القتال في السعودية . وفي السنوات الخمس الماضية تم تهريب عشرات الأسلحة التشيكية والبولندية عبر الحدود من اليمن . وهي الآن بأيدي القبائل المعادية للأسرة السعودية الحاكمة " .

* * *

في أنقرة على بعد بضع مئات من الأميال وجد الرئيس التركي أوزال نفسه في وضع صعب . وكان إلى جانبه جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركية . فشكره بيكر على إغلاقه خط الأنابيب الذي كان ينقل النفط العراقي وأضاف : " على أن هذا ليس الغرض الرئيسي لاجتماعنا ..." وأخذ أورزال يشعر بالقلق وهو يصغي إليه باهتمام . فقال بيكر : " المهم هو التفكير في كيفية استخدام قواعدكم العسكرية وبأية شروط " .

وجاء جواب أوزال مشحونا بالعبارات العامة الغامضة . قال : " لقد كانت لتركيا علاقات وثيقة بالغرب منذ أن أعلنت الجمهورية عام ١٩٢٣ . ولكن كانت لنا أيضا علاقة تاريخية تقليدية مع العالم العربي والإسلامي " . فقال بيكر : هذا صحيح . إن الأزمة الحالية تبرز الأهمية الاسترانجية لبلادكم ودورها في حلف شمالي الأطلسي . ولهذا نريد أن نعرف إذا كنا نستطيع استخدام قواعدكم . " فسأله أوزال : " بأي إطار يا حضرة الوزير ؟ " أجاب بيكر : " لعل أعنفها طبعا هو القيام بهجوم على العراق ".

وعلت شفتي أوزال ابتسامة يشوبها الاحراج وقال : " تلك نقطة حساسة . ان باستطاعة قواتكم استخدام قواعدنا في اطار مناورات حلف شمال الاطلسي لكن الاحتمال الذي تتحدث عنه ..." وهنا قاطعه بيكر وقال : " لا بد من عرض أي خطوة أولا على حكومتكم لنيل موافقتها . " فقال أوزال : " أعتقد أنه باستطاعتنا الاتفاق علي ما يلي وهو أننا سنلبي طلبكم إذا أصبح العمل العسكري ..." فقاطعه بيكر وقال : "ضروريا " وعندئذ هز أوزال رأسه وقال : " لا ، انني أفضل كلمة " لا يمكن تجنبه ."

فوافق بيكر على ذلك . ثم تطرق الحديث إلى احتمال مشاركة تركيا في القوة المتعددة الجنسيات التي كانت قد أخذت مواقعها للدفاع عن السعودية . ولم يبد الحماس على وجه أوزال الذي كان قد انضم إليه وزير خارجيته . فقال : " إنه احتمال ينبغي دراسته . " فقال بيكر :

" على أي حال تلك مسألة ينبغي تسويتها بين تركيا والمملكة العربية السعودية ، لا بين تركيا والولايات المتحدة ".

" على أي حال تلك مسالة ينبغي تسويتها بين تركيا والمملكة العربية السعودية ، لا بين تركيا والولايات المتحدة " .

وبعد ذلك بوقت قصير طرح الزعيمان التركيان مسالة تضحياتهم المالية التي تنطوي عليها العقوبات ضد العراق . وعندما سألهما بيكر عن حجمها قالا بأنها ستبلغ ٦ بلايين دولار . ووعد الوزير الأميركي بتقديم مساعدات أميركية وقال: " إن الحكومة الكويتية في المنفى تعرض المساعدة للتخفيف من الخسائر التي ستلحق بتركيا ."

* * *

وفي عمان كان الملك حسين يتأهب للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الذي كان سينعقد في اليوم التالي .واختار للرحلة طائرة ملكية أردنية من طراز " إرباص " اسمها " بغداد " ورفض اقتراح مساعديه طمس الاسم . وكان يأمل أن يقترح على المؤتمر إنشاء لجنة تحكيم تضم رؤساء الدول العربية وأن يطالب من الدول الخليجية ان تدعم عريضة تطالب بالتخفيف من التواجد العسكري الأميركي في المنطقة .

* * *

كانت القمة في نظر الولايات المتحدة الاميركية حدثا بالغ الاهمية . إذ كانت الادارة الاميركية تامل في أن تصوت غالبية الدول الاعضاء في هيئة الامم المتحدة إلى جانب ارسال افواج من القوة المتعددة الجنسيات .

وفي السابع من أغسطس توقف تشيني وهو في طريق عودته من السعودية في القاهرة حيث طلب من الرئيس حسني مبارك ان يرسل قوات مصرية إلى السعودية . ونفى مبارك فيما بعد حقيقة ما حدث ، وهو انه وافق " على شرط ان توافق الدول العربية الاخرى " ولم تكد طائرة البوينغ التي تقل تشيني تقلع من مطار القاهرة وتحلق فوق المتوسط حتى وصلته رسالة من بوش تقول : " دك ، أود ان تذهب إلى المغرب لمقابلة الملك الحسن " .

وكان طلب بوش هذا غير متوقع إلى حد أنه تعين ارسال خريطة السفر إلى الرباط فورا بالفاكس لملاحي الطائرة . ولم تتمخض مقابلة الملك الحسن عن شيء مجد . إذ رفض الملك ارسال قوات مغربية . وعندما علم مبارك بذلك تراجع هو بدوره عن موافقته .

وأظهرت الانظمة العربية إذ ذاك انها ضعيفة لا تصمد للهزات ، وانها اكثر ميلا إلى التسوية منها إلى اتخـاذ مواقف ثابتة ، وتميزت القمم العربية في الماضي بالنفور من اتخاذ اية قرارات بـشأن المـسائل المطروحـة للبحث . وفي هذه المرة وقفت وظهورها إلى الحائط عاجزة عن إخفاء مراوغتها .

***

واستمرت المواجهة في اليوم التالي . وبينما كان مبارك والأسد الحليفان خلال المؤتمر يتأهبـان للـسفر إلـى الاسكندرية دعيا القذافي لمرافقتهما . وما ان ابتعدوا عن الآخرين حتى اشار مبارك بأصـبعه نحـو القـذافي مهددا وقال والأسد ينظر بلا مبالاة : " كيف توافق على احتلال الكويت ؟ كن حذرا . إذا واصلت الـسير فـي ذلك الاتجاه فسوف احتل بلادك غدا ولن يحرك احد ساكنا " .

***

كان للقرار العربي بتشكيل قوات طوارئ دولية موازية للقوات الاميركية هـدفان متناقـضان وهمـا اضـاء الاميركيين كما اراد البعض ومنع التدخل الغربي في المنطقة . وكان مبارك قد اشار ضمنا خلال القمـة إلـى عدم الثقة النفوذ الاجنبي عندما قال : " خيارنا واضح : عمل عربي للحفاظ على مصالحنا أو تـدخل أجنبـي لا سلطان ولا سيطرة لنا عليه . "

وكان الزعماء العرب الذين اقترعوا لصالح ارسال القوات يخشون رد فعل الرأي العام في بلادهم . إذ كـانوا يدركون انه من واجب الدول الإسلامية معاقبة من يسمح للكفار بالقتال على ارضه لانه يعتبر مرتداً .

الواقع ان الجميع كانوا يعرفون الحقيقة وهي أن المواجهة الوشيكة هي في الاسـاس مبـارزة بـين العـراق والولايات المتحدة ، وان الدول العربية تلعب دوراً ثانويا .

وكان صدام حسين يعرف ذلك تماما . فبينما كانت تجري الاحداث العاصفة في القاهرة أذاع صـدام خطابـا بالتلفزيون قرأه شخص يشبهه ودعا فيه إلى " الجهاد ضد الولايات المتحدة والزعماء العرب الفاسدين " وقـال بأن وصول القوات الأميركية يدنس مكة {المكرمة} مسقط رأس الرسول .

***

في واشنطن فسرت وكالة المخابرات المركزية (السي آي إي) ما أذاعه صدام بأنـه دعـوة للإطاحـة بنظـام الملك فهد . وتحدث مدير الوكالة وليم وبستر في هذا الشأن مع الرئيس بوش الذي كان قد وصل قبيـل ذلـك وبعد الظهر إلى مقره في كينبنكبورت بولاية ماين حيث كان يعتزم قضاء عطلة تمتد بضعة ايام . وكان القلـق يساور وبستر بشأن أمر آخر . ففي ذلك اليوم نفسه تظاهر الآلاف في الشوارع عمان تأييـدا لـصدام وذلـك بتحريض من الإخوان المسلمين . وكان قد تطوع أكثر من ٤٠ . ٠٠٠ أردني للقتال مـع القـوات العراقيـة . وعلى أي حال فمخاطر الانفجار كانت تتزايد باستمرار .

وكان محللو وكالة السي آي إي منكبين بعناية على تحليل نقاط ضعف عدد من الامم المتحالفة . وكان ابرزهـا نقاط ضعف الأردن بالرغم من أن الملك حسين كان ـ كما قال أحد الخبراء ـ " قد غير جلده مليون مرة مـن

أجل البقاء " فلم يسبق أن كان عرشه مهددا إلى ذلك الحد . فالحصار الاقتصادي على العـراق الـذي تعهـد باحترامه سوف يلحق خسائر كبيرة بدخل بلاده لا قبل له بها . وإذا قرر صدام حسين أن يهاجم إسـرائيل فـان الأردن سيكون في الواجهة .

ولم تكن مصر في وضع أفضل . إذ كان مبارك قد صرح بما يلي : " عندما كذب صدام حسين علـى شـعر ٤٠ مليون مصري بأنهم أهنيوا " . فلم يكن باستطاعته أن ينكر أن ٥ ، ١ مليون مصري يعملون فـي العـراق وأن ٠٠٠ ، ١٥٠ غيرهم يعملون في الكويت . فإذا طرد هؤلاء جميعا فان الوضع الحرج للاقتصاد المـصري سيزداد سوءاً .

ولم يظهر الخبراء حماسة كبيرة لمشاركة سوريا التي كان يصفها الأميركيون قبل ذلك بوقت قـصير بأنهـا " دولة إرهابية " . وصرح أحدهم " بأن الأسد سيحاول أن يأخذ منا ما يستطيع أخذه ". وسـتبرهن مـسألة لبنـان على صدق قوله .

***

جرى حديث بوش مع وبستر في صالون فاقع الألوان بسيط الأثاث في بيت بوش بكنبنكبورت . والبيـت مبنـي من الخشب ويقع قرب البحر وملعب غولف . وكان منذ سنوات ركن الراحة والانزواء المفضل لـدى بـوش وأسرته ، وبناه جد بوش الذي كان لاعب بولو معروف .

تناول وبستر في حديثه المملكة السعودية التي لم يسبق لها أن كانت في مثل ذلك الغنى والتعرض للخطر فـي وقت ذاته . كان ارتفاع أسعار النفط سيمكنها من مضاعفة دخلها منه بحيث يصل إلى ٩٥ بليون دولار خـلال السنة التالية . على أن الجانب المقلق هو النقد الذي يتعرض له الملك فهد داخل نطاق الأسرة المالكـة بـسبب الضوء الأخضر الذي أعطاه للأميركيين . إذ كانت خطب بعض الأئمة في المساجد يوم الجمعة بمكة والمدينة قد سجلت على أشرطة وصارت توزع . وكانت تشتمل على " نقد شديد للأسرة الحاكمة " . ففي حرب الكـلام كان العراقيون يركزون على تواجد الأميركيين الذي سيؤدي إلى " حفلات الجنس والخمرة " .

وبعد هذا الحديث بينهما اتصل بوش بالبنتاغون وتحدث مع تشيني وبـاول ، وقـرروا زيـادة عـدد " قـوات الخاصة " التي سترسل إلى الخليج . وكانت تتألف من عدة مئات من وحـدات " سـيل Seal " البحريـة وقـوة التدخل " الدلتا Delta " الملحقة بالقوات البرية ، ومهمتها حماية آبار النفط من الهجمات الارهابية والاسـتعداد الدائم للقيام بعمليات لإنقاذ الرهائن ، ولو ان كلمة رهائن لم تذكر . وتقرر كذلك أن يعهد لعدد من الوحـدات بحراسة كبار أفراد الأسرة السعودية المالكة .

***

على الأرض كان اللفتنانت ـ جنرال تشارلز هورنر يقوم بتنسيق وصول القوات المحمولة جواً . وكـان مـن المنتظر أن تكون مئتا طائرة مقاتلة قد أخذت مواقعها في القواعد السعودية بالاضافة إلى مئة طـائرة مـساندة قبل نهاية الأسبوع . كما كانت هناك خمسون طائرة من طراز ب ـ ٥٢ تنتظر على جزيـرة دييغـو غارسـيا

لكي " تفرش بساطا من القنابل " ـ كما قال أحد الضباط ـ على الأهداف العسكرية العراقية ، ووضـعت ١٤ طائرة ف ـ ١١١ في القواعد بتركيا . وكان مجموع الطائرات التي كان البنتـاغون يتوقـع وصـولها ٦٠٠ وذلك لمواجهة ٥٠٠ طائرة عراقية منها مئة من طائرات الميج ٢٣ واليمراج ف ـ ١ س كانت تعتبر مـصدر تهديد حقيقي .

وكان الجنرال نورمان شوارزكوف يشرف من مقره بالرياض على كل جوانب العملية . وكان لقائـد القـوات الأميركية هذا الذي لقب بـ " دب الصحراء " بالقياس إلى رومل على اتصال مباشر بكولن باول في واشـنطن . وكانا يتحدثان مرة كل يومين . ويقول شوارزكوف : " إن لقواتنا على الأرض قدرات دفاعية وهجومية " .

كان البناغون قد أقام ما يمكن اعتباره جسراً جويا مع السعودية وأخذت تهبط طائرة عملاقة من طـراز سـي ـ ١٤١ في السعودية كل خمس دقائق . وقدرت المواد التي كان يجري ارسالها بأكثر من ٠٠٠ ، ٤٥٠ طـن تشمل إلى جانب الأعتدة العسكرية جبالا من الصناديق التي تحتوي علـى سـلع مختلفـة تـشمل ٠٠٠ ، ١٦٨ جهازا واقيا من الأسلحة الكيماوية و ٠٠٠ ، ١٥٠ قارورة من السوائل الواقية، حرارة الشمس . ولم يكن فـي الجيش من يعلم أن هذا الجهد الهائل سينتهي بوجود ٠٠٠ ، ٢٥٠ جندي فـي صـحارى الـسعودية إلا بـاول وشوارزكوف واقرب الزملاء إليهما . ولم يحدث منذ حرب فيتنام أن نشرت الولايـات المتحـدة مثـل هـذه القوات أو قدمت مثل هذا العرض للقدرات العسكرية.

***

وبينما كانت القوات الأميركية تغادر البلاد إلى السعودية كان بوش يقوم كل صباح يلعب جولـة غولـف فـي الملعب المجاور لمقره في بكنبنكبورت . وكان يوقف اللعب من وقت لآخر ليتحدث بالتلفون مع زملائـه فـي واشنطن أو مع زعيم في جهة من العالم . وكان لاحد مساعديه يقف دائما إلى جانبه يحمـل التلفـون المتحـرك الذي يمكنه من الاتصال باي بقعة في العالم . ومنذ اندلاع الازمة كان بوش قد أخذ ينفض عن نفـسه صـفة التردد التي وُصم بها . وبدا الآن كشريف حازم يأمر الاسرائيليين بالهدوء والتكتم ، ويطلب مـن اليابـانيين أن يلتزموا بالقيام باكثر من الاسهام المالي ، ويوضح للصينيين والسوفييت أن الفرصـة سـانحة لكـي يـصبحوا جزءا من المجتمع الدولي ، ويظفر بتأييد حلفائه الأوروبيين وغالبية الأقطار العربية .

كانت شخصية بوش أكثر تعقيدا مما بدت عليه في بداية الأمر فبالاضافة إلى أنه من الأسـر العريقـة علـى الساحل الشرقي ومن محبي الموسيقى الكلاسيكية، ومن المهذبين في تصرفاتهم ، كان عصاميا وجمـع ثروتـه من العمل بنفط تكساس . لقد كان من " وحوش المال " لا يرحم فـي التعامـل ومـن المتيمـين بالموسـيقى الفولكلورية .

ويجد المرء في " دبلوماسيته التلفونية " ومحادثاته التي لا تنتهي مع زعماء العالم أمثلـة أخـرى علـى هـذه الثنائية {في شخصيته} . إذ كان من ناحية ينتقد الملك حسين بشدة بسبب موقفه الغامض وتأييده المقنـع لبغـداد

. وقام الملك المعجب بصراحة بوش بتذكيره بأنه كان دائما حليفا مخلصا للولايات المتحدة . وعـرض عليـه القدوم إلى الولايات المتحدة للاجتماع به في غضون أيام بعد ان يكون قد ذهب إلى بغداد للاجتماع بصدام .
وكان الملك يأمل ان يقدم صدام بعض التنازلات . فكان جواب بوش القاطع " انني أشك في ذلك".
ومن ناحية أخرى نجد أن بوش ظل ساهرا حتى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ليتحدث إلى ميتـران الـذي كان بباريس . فقد خشي بوش ان يوقظه لان الساعة بباريس كانت عندئذ تشير إلى الثامنة والنصف صباحا .

***

خلال لعبة الانتظار التي كانت تجري في الصحراء اجريت دراسة مفصلة لجوانب القوة والضعف في الجـيش العراقي . وكان في نظر الخبراء الأميركيين كجيش حلف وارسو تقريبا ، لان غالبية اعتدته كـات سـوفييتية ، ولانه درب على غرار الجيش الاحمر . وكان يشن هجماته بدبابات سوفييتية مـن طـراز ت ـ ٧٢ و ت ٦٢، ويمهد لها بنيران المدافع من عيار ١٢٢ ملم و١٥٢ ملم . أما دفاعه الجوي فكانت تقوم به بطاريات محمولـة لصواريخ سام وأجهزة رادار مضادة للطيران من طراز ZSU 23 . ولم يكن هناك وجود يـذكر للأسـطول . وكان عدد من الدبابات العراقية من طراز قديم . ولم تكن قوته الجوية مجهزة في الغالب بالتقنية التي تمكنهـا من القتال بفعالية .
غير أن الحرب البرية التي تستهدف في الاساس استرجاع الكويت كانت تنطـوي علـى المجازفـة بـأرواح الكثيرين . وقام البنتاغون ورؤساء الأركان بناء على طلب بوش بوضع تقدير للخـسائر المحتملـة . وذهبـت هذه التقديرات التي لم تكن قد قدمت بعد إليه إلى ان عدد القتلى سيتراوح بين عشرين وثلاثـين ألـف قتيـل ، والى ان عشرة آلاف منهم سوف يسقطون في الأيام الأولى للقتال ـ وهو ثمن بشري وسياسي ضخم .
وكانت الادارة الاميركية تامل أن يحمل حجم القوات وفعالية الحصار صدام حسين على تغيير لهجتـه . ذلـك أن العراق لم يعد قادرا على تصدير نفطه الذي يشكل المصدر الوحيد لدخله وعلى استيراد شيء بما في ذلـك الخبز .
ولتقدير أثر العقوبات قامت وكالات المخابرات المركزية ووكالات المخابرات الاخرى بتنسيق عمليـات جمـع المعلومات . وكان العنصر الأول هو الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها الأقمار الصناعية والتي تظهر بدقـة جميع الحركات المدنية والعسكرية وتطورات الوضع في الميدان. وكانت مسؤولية هذا تقع على عـاتق وكالـة الأمن القومية . كانت لهذه الوكالة أيضا محطات تنصت سرية جدا فـي تركيـا تـستطيع أن تلـتقط غالبيـة المكالمات التلفونية التي تجري في العراق وأن تنقل تفاصيلها على الفور إلى الولايات المتحـدة حيـث يقـوم المترجمون واللغويون بتقييمها استنادا إلى الكلمات المستخدمة ، ونبرة الصوت ، ومعنويات السكان ، والتـذمر المحتمل ، وأولى علائم الضائقة الاقتصادية . وتم وضع برنامج كمبيوتر في مقر وكالة المخابرات المركزيـة بلانجلي لتغذيته بجميع المعطيات المتوافرة حتى أشياء مثل زيادة أجور التاكسي التي قد تكشف عـن ارتفـاع في تكاليف العيش وأسعار الوقود وربما صعوبة الحصول على قطع غيار .

***

وفي الوقت ذات بدأ تنفيذ عمليات " حرب العصابات النفسانية " التي جرى تنسيقها في إطار لجنة مـن وكـلاء الدوائر الرئيسية مثل روبرت غيتس نائب مدير مجلس الأمن القومي ، الذي سبق له ان كان الرجل الثاني فـي الوكالة المخابرات المركزية . وكان أحد الأهداف التصدي للدعاية العراقية . وقال أحد المشاركين فـي هـذا النشاط : " كلنا نذكر فيتنام حيث خسرنا الحرب سياسيا . "

وفي تلك الأثناء كان صوت أميركا يذيع للعراق أربعا وعشرين ساعة في اليوم بالرغم مـن اعتـراض عقبـة واحدة وهي عدم وجود مذيعين باللهجة العراقية . وكان اختصاصيون من الفريق الرابع للعمليـات النفـسانية المتمركز في " فورت براغ " بكارولينا الشمالية يتأهبون لمغادرة البلاد إلى السعودية للقيام بتخريـب إعلامـي يحطم معنويات القوات العراقية المحتشدة على الجانب الآخر من الحدود مثل حملها على الاعتقاد بـأن آبـار الماء في الصحراء مسمومة .

وجرت ممارسة ضغط نفساني قوي على العراق للتأكيد على تصميم الأميركيين . وكانـت تعـرض صـور الجنود وهم يتدربون على تفتيش البيوت بيتا بيتاً وذلك تمهيدا لاستعادتهم مدينة الكويت .

وكان فريق روبرت غيتس قد أعد قائمة سرية جدا فيها " كل ما يجب وما لا يجب عملـه " وموجهـة لجميـع المسؤولين المدنيين والعسكريين المشاركين مباشرة بالأزمة . وكانت تشتمل على منهج للسلوك ، فتصف مـثلا البيانات العامة التي ينبغي إصدارها وتلك التي ينبغي تجنبها .

واقترف الجنرال دوغان رئيس القوة الجوية خطأ فاحشا . ففي إحدى المقابلات صرح للـصحفيين بـأن هنـاك خطة لقصف بغداد ، وأن إسرائيل سوف تساعد القوة الجوية على اختيار أهدافها . فطرده بوش على الفـور ، وذلك لأن تصريحه سبب الكثير من الإحراج . إذ كان قد تجاهل أحد بنود " ما يجب ومـا لا يجـب عملـه " الذي يقضي بعدم ذكر أي شكل من أشكال التعاون مع إسرائيل.

***

في القدس ساور القلق الاسرائيليين . إذ كانوا قد تلقوا معلومات من دوائر الاستخبارات مفادهـا أنـه سـيقع هجوم جوي على المفاعل النووي في ديمونا بصحراء النقب . واتخذ التهديـد علـى محمـل الجـد ، ونقلـت صواريخ هوك من الحدود الأردنية إلى المفاعل النووي لتقوية الدفاع القائم . وجرى بحث احتمال الجلاء عـن البلدة القريبة .

وفي ١٢ أغسطس اقترح صدام في خطاب بثه الراديو والتلفزيون تسوية شاملة للشرق الأوسط ، جاء فيها أنـه لا يمكن بحث الانسحاب من الكويت بدون مناقشة الوجود السوري في لبنان ، والوجود للقوات الإسرائيلي فـي الأراضي المحتلة . ودعا في الواقع إلى " الانسحاب الفوري غير المشروط للقوات الإسرائيلية " . ورد بـوش على ذلك فورا بالدعوة إلى " الانسحاب الفوري غير المشروط للقوات التي تحتل الكويت . "

على أن الرد الأميركي لم يطمئن شامير رئيس وزراء اسرائيل كثيرا . فقد كـان يـرى أن صـدام " يحـاول إضعاف التحالف ضده " . وفي الصفة الغربية وغزة رحب الفلسطينيون بحماسة بتصريح الـزعيم العراقـي . وخصصت الوزارة الإسرائيلية أكثر اجتماعها الاسبوعي يوم الأحد لبحث أزمة الخليج . وتحدث فيـه مطـولا كل من موشي أرينز وزير الدفاع ، ودان شاميرون رئيس الأركـان ، وأمـون شـاهاك رئـيس المخـابرات العسكرية .

***

وصل الملك حسين إلى بغداد يوم الاثنين الموافق في الثالث عشر مـن أغـسطس . وكـان مـن المقـرر ان يغادرها بعد يومين إلى واشنطن على أمل أن يجتمع ببوش ومعه رسالة من صدام أو مشروع خطـة للـسلام . والظاهر أنه كان لا يزال يعتقد بالحل ولو أن ذلك كان مخالفا لكل منطق . فالولايات المتحدة وغالبيـة الـدول الاعضاء في الجامعة العربية – وذلك منذ قمة القاهرة – كانت تقف ضد الفكرة . وكانت بلاده قـد أخـذت تغرق في المصاعب الاقتصادية ، وفقدت الرياض وواشنطن ثقتهما به . وأقدمت عدة أقطار عربية على طـرد الأردنيين المقيمين فيها . وعلم الملك أن السعودية – الشريك التجاري الأكبر والثالث للأردن – علـى وشـك أن توقف شراء البضائع الأردنية .

واعترف الملك حسين بأن كل يوم يمر يقرب بلاده من الحرب ، وأن الذين يدعون ان الحـل العربـي سـقط نهائيا ينسون انه ظل ممكنا خلال الاسبوع الأول من الأزمة والى أن وقف الأميركيون في وجهه .

وكان الملك يدرك أيضا أن عليه مواجهة عداء الشيوخ والنواب في الكونجرس الأميركي ؛ فأعد رسالة يـشرح فيها موقفه ، وبعث بنسخة منها لكل منهم .

وعندما خرج من اجتماعه بصدام حسين كان متجهما ولم يفه بكلمة واحدة . وكشف الأمير حسن أخـوه عـن أن الاجتماع كان فاشلا .

***

وفي الرابع عشر من أغسطس قطع جورج بوش عطلته لوقت قصير عاد فيه إلى واشـنطن . وكـان قـد تـم انتشار ستين ألف جندي وبحار وطيار في السعودية بالاضافة إلى خمسين ألـف آخـرين كـان مـن المتوقـع وصولهم إليها في الأيام القليلة القادمة . وقدر البنتاغون تكاليف عملية درع الصحراء بعـشرة ملايـين دولار في اليوم .

وفي صباح الخامس عشر من أغسطس التقى بوش بزعماء الكونجرس . وكان القانون يخولـه سـلطة دعـوة ۱۲۰،۰۰۰ من جنود الاحتياط لمدة ۱۸۰ يوما . دون حاجة إلى موافقة الكونجرس . لقد كان يحاول الحفـاظ على اجماع في الداخل شبيه بالاجتماع الذي حققه على الصعيد الدولي . لكن كما قال بعض مستشاريه " كـان الحصول على موافقة الأمم المتحدة أسهل من الحصول على موافقة الكـونجرس " . وقـال أحـدهم : " لقـد

وعدناهم فعلا باستشارتهم في حال اللجوء إلى الحرب . وبمعنى آخر أننا كنا سنتصل بهم بالتلفون بعـد إسـقاط الدفعة الأولى من القنابل " .

***

في ذلك اليوم جرى الاعلان عن مبادرة صدام حسين . ففي كتاب منه إلى الرئيس رفسنجاني عـرض الـسلام على البلاد التي كانت حتى ذلك الوقت عدوه اللدود . وصرح أنه سيتخلى عن مطالبـه فـي منطقـة الحـدود وأعلن انه ابتداء من ١٧ أغسطس سيجري سحب القوات العراقية المرابطة هنـاك وارسـالها إلـى الكويـت وحدود السعودية . وأخيرا وافق صدام على إطلاق سراح ١٩٠٠٠ أسير إيراني .

وهكذا فان الزعيم العراقي محا بسطور قليلة ذكرى مئات الآلاف من القتلى العراقيين وذكرى أشـد صـراع دموي منذ الحرب العالمة الثانية . فبرهن بذلك على مهارته كرجل مناور .

وكان من السهل تفسير الانسحاب العراقي من شط العرب . فبفضل ضم الكويت صار للعراق منفـذ واسـع على الخليج .

والواقع أن كلمة " ضم " ليست الانسب . فما حدث هو دمج للكويت في العراق الكبير. وقد تـساءلت أجهـزة الاستخبارات الغربية كثيرا عن الهوية الصحيحة للكولونيل علي الذي قيل بانه زعـيم جماعـة مـن " الثـوار الشبان " الذين استولوا مؤقتا على السلطة في مدينة الكويت . فتبين أنه لا وجود للكولونيل علـي فـي الجـيش الكويتي . وكشف المزيد من التحري أنه ابن عم صدام حسين وسمه علي حسن الماجد .

وبالاضافة إلى الاربعمائة وثلاثين ألف جندي الذين انتشروا في المنطقة ومعهم ٧٥٠٠ عربـة مـصفحة تـم ارسال سبعة آلاف بوليس سري إلى مدينة الكويت . وكان هدفهم سحق حركات المقاومة الناشـئة . وقـسمت العاصمة إلى مناطق تخللتها نقاط تفتيش كثيرة . وجرى تفتيش البيوت وكان نصيب كـل مـن وجـدت معـه منشورات أو صحف صادرة عن المقاومة الإعدام الفوري . وجرى التدقيق فـي سـجلات البنـوك لمعرفـة المسؤولين والموظفين الذين كانوا يتلقون شيكات من دوائر حكومية . وحولت المدارس ومراكز البوليس إلـى مراكز للاستجواب والتحقيق .

وأعيد رسم الخرائط العراقية التي أصبحت الكويت تشكل فيها المحافظة التاسعة عشرة . وأطلق علـى مدينـة الكويت اسم كاظمة . ووضعت على السيارات لوحات عراقية . وعلقت صور صدام ونـصبت تماثيلـه فـي الشوارع والميادين . وعليه وكما قال زميل للزعيم العراقي : " ضاعت الكويت في خضم التـاريخ واختفـت من الجغرافيا " .

وكان العراقيون قد استولوا على ثروات الكويت . وبينما ظفرت قوات الاحتلال بشيء منهـا فـان الزعمـاء نهبوا على نطاق واسع . فخسر تاجر سيارات واحد ١٤ ، ٠٠٠ سيارة شـيفروليه وأولـدزموبيل جديـدة فـي غضون بضع ساعات ، وأرسلت جميعا إلى بغداد وصار زملاء عدد من الوزراء يتـرددون علـى الإمـارة السابقة لا لغرض سوى تكديس السلع الكمالية .

غير أن الزعيم العراقي لم يستطع وضع يده على ودائع الكويتيين الهائلة لأنها جمدت في الساعات الأولى التي أعقبت الغزو . لكن استطاعت قوافل عراقية خاصة نقل ما يوازي ثلاثة بلايين دولار من العملات الأجنبية وبليون دولار من الذهب الذي سرق من البنك المركزي والعديد من المؤسسات المالية في البلاد .

وفي ١٦ أغسطس هدد صدام حسين باحتجاز الأميركيين والبريطانيين المقيمين في الكويت ، وأمرهم بالتجمع في أحد الفنادق . هدد أيضا باعادة الأميركيين " في النعوش " .

***

في ذلك الصباح وصل الملك حسين إلى كينبنكبورت للاجتماع ببوش . وبدا أن صداقته مع الرئيس الأميركي آخذة في التدهور وذلك لان صورته كحليف لصدام حسين كانت آخذة في الانتشار . وأشارت الصحافة إلى أنه يحمل معه رسالة من الرئيس العراقي . لكن هذا لم يكن صحيحا . فأحد الاشياء التي كان يريد أن يقوم بها هو إطلاع بوش على المحاولات الضخمة التي قام بها خلال الايام القليلة الاولى لحل الازمة .و أوضح للرئيس أن الزعيم العراقي كان على استعداد للانسحاب من الكويت ولكنه أصبح بعد ذلك أكثر تصلبا بسبب انتشار القوات الاميركية وغيرها على الاراضي السعودية . فقال بوش : " نحن هناك لحماية السعودية من العدوان لا أكثر . وسننسحب عندما يطلبون ذلك " . وبالرغم من أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق فان الملك ترك الاجتماع متفائلا بعض الشيء لأن بوش كان في موقف دفاعي فقط ولأن الحل الدبلوماسي كان لا يزال ممكنا .

***

وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة العراقية أن الغربيين الذين تسيطر عليهم سوف ينقلون إلى مواقع استراتيجية مدنية وعسكرية وأنهم سيبقون هناك ما دام التهديد قائما . فطلب مجلس الأمن من السكرتير العام بيريز دي كويار أن يعمل على إطلاق سراح جميع الأجانب. وفي تلك الاثناء كانت ثلاثون فرقة عراقية تغادر الحدود الإيرانية لتنضم إلى القوات العراقية في الكويت البالغ عددها ١٥٠ ، ٠٠٠ جندي .

وفي ١٧ أغسطس غادر جيمس بيكر واشنطن لقضاء عطلة لمدة بضعة أيام في مزرعته بويومينغ . وكان لا يزال على اتصال بادوارد شيفارنادزه بموسكو . وبناء على اقتراح من بوش طلب بيكر من شيفارنادزه تأييد قرار يصدر عن هيئة الامم المتحدة يجيز استخدام القوة لفرض الحصار . وبذلك بدأت لعبة الخداع . فبينما كان السوفييت يجرجرون أقدامهم لانهم لا يزالون يعتقدون بامكان التوصل إلى حل بالتفاوض ، كان الاميركيون في سباق مع الوقت .

وفي ٢٠ أغسطس وصل سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء إلى موسكو واستقبله المسؤولون السوفييت الذي طالبوه بانسحاب غير مشروط من الكويت وإخلاء سبيل جميع الاجانب . فعاد حمادي في اليوم التالي إلى بغداد . واتصل شيفارنادزه على الفور ببيكر وقال : " انتظروا ٤٨ ساعة قبل أن تطرحوا قرارا في الامم المتحدة للتصويت عليه . فقد ينجح نائب رئيس الوزراء باقناع صدام حسين " . فسأله بيكر :

" وهل إذا فشل ستقفون إلى جانبنا في غضون يومين ؟ " فاجابه نظيره السوفييتي :

" سأعلمك بذلك بأقرب وقت ممكن " .

وبعد ظهر اليوم التالي اتصل شيفارنادزه ببيكر وقال بأنه يحتاج إلى المزيد من الوقت . فلما ساله بيكـر كـم من الوقت يحتاج قال : " خمسة أيام - إلى ٢٧ أغسطس . فصمت بيكر برهة وقال : " يبدو هذا طـويلا جـدا. عليّ أن ابحث الامر مع الرئيس " .

واتصل بيكر ببوش . وكان هذا قد عاد من بيته في ماين وسافر إلى بلطيمور لإلقـاء خطـاب أمـام جمعيـة المحاربين القدامى . وفي الخطاب وصف للمرة الاولى الاجانب المحتجزين في الكويـت بـأنهم " رهـائن " . وكانت هذه الكلمة قد اكتسبت منذ أزمة الرهائن في طهران عام ١٩٨٠ دلالات عاطفية وسياسية كبيـرة فـي الولايات المتحدة . وبدا بوش متضايقا بسبب مماطلة السوفييت وطلب من بيكر الحصول على مهلـة أقـصر وعاود بيكر الاتصال بموسكو وقال لشيفارنادزه : " من الصعب علينا قبول طلبكم . فنحن نتعـرض لـضغط كبير وخصوصا من البنتاغون الذي يطلب السماح باستخدام القوة لفرض الحصار بدون انتظـار دعـم الامـم المتحدة .

فتنهد شيفارنادزه وقال : " أعرف {ذلك} . فلدينا المشكلة ذاتها مع قواتنا المسلحة التـي يعتقـد افرادهـا اننـا نقترف خطأ بدعمكم . ويقولون ان لكم هدفا واحدا وهو التواجد العسكري الدائم في الـشرق الاوسـط . لكـن لنعد إلى مسألة الامم المتحدة ، فماذا تقترحون ؟ " أجاب بيكر : " أن يتخذ القرار في ٢٤ أغـسطس " . فقـال شيفارنادزه : " حسنا " . وهنا قال بيكر : " ولكننا سنظفر بتأييدكم . أليس كذلك ؟ "

فجاء جواب شيفارنادزه غامضا . ومع هذا ففي اليوم التـالي - ٢٣ أغـسطس - حـضر القـائم بالاعمـال السوفييتي سيرجي شنفيركوف إلى وزارة الخارجية بوشنطن . وكانت حكومته قد كلفته أن يقوم كدلالـة علـى حسن النية بتسليم الاميركيين النص الكامل لرسالة بعث بها غورباتشوف إلى صدام حسين وطلـب منـه فيهـا الانسحاب من الكويت وإخلاء سبيل جميع الاجانب وأضاف فيها قوله : " لقد أجلنا التصويت في مجلس الامـن قدر ما استطعنا . إننا نطلب منك الرد قبل مساء الجمعة الموافق في ٢٤ أغسطس على أبعد تقدير " .

وحال وصول جواب العراقيين اتصل شيفارنادزه بنظيره الاميركي . فساله بيكر : " ماذا يقولون ؟ " وبـدا أن شيفارنادزه أصيب بالفزع لدى قراءته الجواب العراقي وقال : " إنه لا يستحق حتى الـرد . وعلـى أي حـال فانه لا يرضينا على الاطلاق . يمكنكم الذهاب إلى الامم المتحدة وسوف نؤيدكم".

وبعد بضع دقائق صدرت الاوامر لتوماس بيكرنغ رئيس الوفد الاميركي في الامم المتحـدة لإبقـاء الجلـسة منعقدة حتى يجري اتخاذ القرار . وفي الساعة الرابعة من صباح السبت الموافق فـي ٢٥ أغـسطس صـدر القرار ٦٦٥ الذي يسمح باستخدام القوة في تنفيذ الحصار بثلاثة عشر صوتا مقابل لا شيء . وامتنعـت كوبـا واليمن عن التصويت .

***

وفي ٢٧ أغسطس غادر جيسي جاكسون مطار كندي بنيويورك على متن طائرة تابعـة للخطـوط الأردنيـة . وكان هذا المرشح السابق للرئاسة قد ابتدع أسلوبا سيظل حديث الناس طيلة أشهر : إذ قام برحلة إلـى بغـداد ، واجتمع مع صدام ، واستمع إلى مظالمه ، ثم عاد بعدد من الرهائن . وكان أول مـن فعـل ذلـك المستـشار النمساوي كورت فالدهايم الذي انتهز الفرصة السارة لرفع الحجر الدولي المفروض عليه بسبب ماضيه الـذي يثير الجدل .

واكتسبت رحلة جاكسون المزيد من الأهمية لأنه كان شخصية مرموقة في الولايات المتحدة ولانه صار ينظـر إلى الازمة على أنها مبارزة بين بوش وصدام حسين . ثم إن جاكسون طـار إلـى بغـداد وبرفقتـه فريـق تلفزيوني ؛ وكان هدفه إجراء مقابلة مع صدام حسين . على أن المنحى الـذي اتخذتـه رحلتـه كـشف عـن الطريقة التي كانت بغداد ستستغل فيها مثل هذه الزيارة .

كان في العراق والكويت ثلاثة ملايين من الأجانب أكثرهم من المصريين (١،٥ مليون فـي العـراق و ٠٠٠ ، ١٥٠ في الكويت) ويليهم الفلسطينيون (٠٠٠ ، ٣٠٠ في العـراق و ٠٠٠ ، ١٧٠ فـي الكويـت) ويلـي هؤلاء الهنود والفليبينيون – لكن عمال العالم الثالث هؤلاء كانوا في سوق المساومات أقل أهمية بكثيـر مـن الأميركيين (٢٥٠٠ في الكويت و ٥٠٠ في العراق) ومن البريطـانيين (٤٠٠٠ فـي العـراق و ٥٠٠ فـي الكويت) ومن الجنسيات الأوروبية الأخرى .

وبعد وصول جاكسون ووفده بوقت قصير اجتمع طارق عزيز معهم لمدة ثلاثة ساعات ونـصف شـرح لهـم خالها بعناية موقف بلاده والخلفية التاريخية للأزمة . وذهب حتى إلى حد القول : " لقد أظهر الـرئيس صـدام حسين عدة مرات خلال المفاوضات أنه كان أكثر صبرا واعتدالا مني ... فبعد قمة جـدة { فـي ٣١ يوليـو عشية الغزو } دفعنا عناد الكويت إلى حافة اليأس . إذ لم نكن نستطيع أن ندفع ثمن ما نستورده مـن الغـذاء . كانت هناك حملة حقيقية تستهدف تجويعنا . وحتى الملك فهد لم يقلقه أن يسمع بجوعنـا . فاسـتنتجنا أن هنـاك مؤامرة تستهدف تدمير العراق . ولم يكن بإمكان الكويت أن تحيك المؤامرة بدون دعم مـن دولـة عظمـى . وتبين لنا أن هدف المؤامرة هو التسبب في انهيار اقتصادي يتبعه انهيار سياسي وتغيير النظام " .

وعندما انهى طارق عزيز شرحه ساله صحفي من مرافقي جاكسون : " كيف تأمل العراق في التعاطف معهـا بينما لا يزال الاميركيون يذكرون كيف رأوا المدنيين الاكراد يختنقون بالغاز عام ١٩٨٨ وكيف شنق صـحفي بريطاني خلال هذا العام ؟ " .

وفوجئ طارق عزيز بذلك . فصمت لحظة ثم قال بصوت منخفض : " أعترف أنها مشكلة " .

في ذلك المساء ظفر جاكسون بمقابلة خاصة مع صدام حسين . وخلال الحـديث تنـاولا استـشهاد المـسيح . فاعتبر صدام نفسه كالمسيح ضحية للتحامل والاتهامات الباطلة – واعترف بأنه هـو الـذي امـر باحتجـاز الاجانب لكنه اعتبر ذلك " ضمانة للسلام " وقال بأن " الحصار الحالي لمنع الطعام والدواء أسـوأ مـن أخـذ

رهائن " . وكان من الواضح أن الزعيم العراقي كان يشعر بمرارة نحو الولايات المتحـدة . شـعر بالاهانـة بسبب عدم استجابتها لعروضه .

قال صدام لجاكسون بشيء من التواضع : " بعد اجتماعي مع سفيرتكم فـي ٢٥ يوليـو لـم تقـم الـسلطات الأميركية حتى بطلب نسخة رسمية عن وقائع الاجتماع . ان بلادكم تعـاملني بعجرفـة كمـا تعامـل الـدول الاستعمارية مستعمراتها " .

وفي اليوم التالي تمكن جاكسون بعد زيارة قصيرة للكويت من مقابلة صدام مرة أخرى . ولأسباب أمنية طلب المحيطون بصدام أن يقوم بالتصوير مصورو التلفزيون العراقي وبأجهزته . وفي نهاية المقابلة سأله جاكـسون ان كان مستعدا للقيام بمبادرة حسن نية " تخدم أغراض السلام " فيطلق على الفور سراح الرهائن . فـرد عليـه صدام بغضب قائلا:

" لقد شرحت موقفي بالنسبة لذلك الموضوع بوضوح في مقابلات كثيرة مع الصحفيين . ولـيس عنـدي مـا أضيفه " . ثم هب واقفا ولكن بلحظة واحدة تغير موقفه وتغيرت ملامحه ، فتلاشـى الغـضب وحلـت محلـه ابتسامة عريضة ومصافحة حارة مع جاكسون جميلة وتبادل إنـساني عميـق لـلآراء . وتكريمـا لمـشاهدينا الأميركيين يمكنكم ان تصطحبوا معكم النساء والأطفال الذي سأسمح لهم بمغادرة الـبلاد وكـذلك المرضـى الأربعة . ويمكنك السفر إلى الولايات المتحدة على طائرة عراقية " .

***

وبينما كان جاكسون يستعد لمغادرة بغداد عاد ديفد إفري المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلي إلى تل ابيب . وكان قد أرسل على عجل إلى واشنطن لإجراء محادثات سرية مع كبار المسؤولين فـي البنتـاغون . إذ كـان القلق يساور الحكومة الإسرائيلية حول الخطط الاميركية لبيع اسلحة للسعودية وخـصوصا ٢٤ طـائرة ف ـ ١٥ سي إس (F15 CS) و ١٥٠ دبابة و ٢٠٠ صاروخ ستينغر مضاد للـدبابات . وقـدر الاسـرائيليون هـذه الصفقة ب ٥ ، ٢ بليون دولار . وحمل افري معه طلبا للسماح لاسرائيل بالحصول فورا على كمية اكبر مـن الاعتدة العسكرية وخصوصا طائرات ف ـ ١٦ س وصواريخ أب شي وتاو ، وبالحصول كذلك على مجمـل المساعدات المقررة لاسرائيل بقيمة ٨ ، ١ بليون دولار في بداية السنة المالية وبدفعة واحدة { لا بالتقـسيط } . وعاد إفري ومعه وعد بان تقوم الولايات المتحدة ببيع ما قيمته بليون دولار من الاسلحة المتطورة لاسرائيل.

وفي اليوم نفسه تلقت الحكومة الإسرائيلية رسالة من غورباتشوف نقلها رولان دوما وزير الخارجية الفرنـسية الذي كان قد اجتمع معه . وعبرت موسكو في الرسالة عن تخوفها من أن تقوم بغداد بهجوم على اسرائيل .

***

لم تكن ازمة الخليج في نظر غورباتشوف فرصة رائعة لاظهار اعتداله وشعوره بالمـسؤولية للعـالم وذلـك بالعمل جنبا إلى جنب مع واشنطن فحسب ، وانما كانت أيضا صداعا في الرأس وربما شركا منـصوبا . كـان عليه أن يصمد لهجمات عدد من مراكز القوى صاحبة النفوذ وخصوصا داخـل الجـيش ، وبعـض أقـسام

المخابرات (كي جي بي) وفي وزارة الخارجية التي كان لا يزال لها علاقات وثيقة ببغداد . كـانوا جميعـا " يشعرون بالقلق بسبب تواطئه مع الاستراتيجية الاميركية " . وفي الثالث من أغـسطس كـرر التأكيـد علـى اعتقاده بان ما أقدمت عليه الولايات المتحدة " يتفق مع ميثاق الامـم المتحـدة " . ورد المعترضـون عليـه بالاشارة إلى ان واشنطن كانت تقوم بانشاء نظام امني جماعي في الخليج مـن شـأنه أن يـؤدي إلـى تواجـد عسكري أميركي دائم في المنطقة . وكان من المحتمل أن يضعه هذا الاعتراض في موقف صعب .

ومما أغضب غورباتشوف أيضا أن الكرملين لم يكن يعلم شيئا عن خطط العراق . ويوم الغزو اسـتدعى إلـى مكتبه وزير الدفاع المارشال ديمتري يازوف الذي كان من المحافظين المتشددين . ولكن حـديثهما لـم يكـن وديا .

وأظهرت التحريات أن المخابرات العسكرية السوفيتية أبلغت باستعداد العراق للغزو قبل وقوعـه بأسـبوعين . وكان لهذه المخابرات ، من تتصل بهم داخل العراق مثل الخبراء العسكريين والمسؤولين ذوي الصلة الوثيقـة بالزعيم العراقي . وبرر زعماء المخابرات صمتهم بأنهم ظنوا أن المعلومات التي حصلوا عليها مبالغ فيهـا . هذا بالإضافة إلى أنه كان بيد العراقيين ما يساومون عليه : كان لديهم عدد محاط بالـسرية مـن العـسكريين السوفييت الذين كانوا لا يزالون ببغداد . فأوضحت هذه الموسكو أنه قد تتعثر عودتهم إذا افـشت " الاسـرار العسكرية " للولايات المتحدة .

واشتبه أشد المتشككين من المحللين الغربيين في أن غورباتشوف كان يمارس لعبة مزدوجة . فبـدا أنـه مـن ناحية يلعب بالورقة الدبلوماسية فيشارك المجتمع الدولي غضبه؛ ومن ناحيـة أخـرى يواصـل سـراً تقـديم المساعدات العسكرية للنظام العراقي حليفه منذ عشرين عاما . ومهما تكن الحقيقة فانه بات واضـحا أن هـذه الشكوك تضعف مصداقيته .

وفي صباح الخامس من أيلول ظهر في برنامج " فرميا " على شاشة التلفزيون وقدم وصفا كاملا عـن وقـائع ذلك اليوم والزائرين الذين استقبلهم . ولم يذكر اجتماعه مع طارق عزيز الذي كان قد قام برحلة قصيرة إلـى موسكو قابل خلالها غورباتشوف بناء على طلبه . وعندما خرج عزيز من المقابلـة التـي وصـفت بأنهـا " صريحة " - أي " صعبة " حسب اللغة السوفيتية الرسمية الدارجة - صرح وهو يبتسم : " أقول بلا تـردد إن الاتحاد السوفييتي لا يزال صديقا " . وربما قصد بالصراحة الظاهرة لعبارته هذه احـراج خروتـشوف قبـل اجتماع القمة مع بوش في هلسنكي بثلاثة أيام . وكان ادوارد شيفارنادزه قد صـرح فـي اليـوم الـسابق أن المجتمع الدولي لا يمكن ان يقبل الدول المعتدية والانظمة التي تمارس القرصنة .

***

لم يكن الاتحاد السوفييتي البلد الوحيد الذي يشتبه في أنه يقوم بلعبة مزدوجة . ففـي الاسـابيع التاليـة سـوف تتساءل عدة مراجع رسمية عن الموقف الفرنسي الحقيقي . إذ كان هناك من يصفه بانه " موضـع شـك " أو " غامض : . فهل فاوضت فرنسا العراق لإطلاق سراح الرهائن ؟ فقد كان لفرنسا مبعوثون في تونس وعمـان

لهم علاقات مميزة مع الزعماء العرب ودوائر الاستخبارات . ويحتمل ان كان هؤلاء علـى اتـصال مباشـر بالمسؤولين العراقيين . وكان الاسمان اللذان يتردد ذكرهما كلود تشيسون وفيليب روندو المخـتص بالـشؤون العربية في المخابرات الفرنسية . وسبق لوالد روندو أن ساعد قبل سنوات كثيرة على إنشاء مخابرات مماثلـة في سوريا . ترى ما هو الثمن الذي دفعته فرنسا ؟ من المؤكد انه تجاوز مجرد الانسحاب الرمـزي لخمـسة آلاف جندي فرنسي في السعودية مسافة ثلاثين ميلا أو التخلي عن السفارة الفرنسية في الكويت بحجـة نقـص المياه .

لكن بقي لغز آخر أكثر أهمية وهو ما إذا كان لا يزال هناك مواطنون فرنـسيون فـي العـراق . إذ قيـل ان التقنيين المدنيين وربما أيضا العسكريين الذين كانوا يقومون ببغداد قبل الغـزو بـصيانة الاعتـدة العـسكرية الفرنسية كانوا لا يزالون يعملون بعد تحرير الرهائن ، الامر الذي كان انتهاكا لقرارات الامم المتحدة .

وفي الثامن من سبتمبر ، وقبل وصول الرئيس الأميركي ونظيره السوفييتي إلى العاصـمة الفنلنديـة ببـضع ساعات ، وجه صدام حسين بالتلفزيون تحذيرا من التدخل الاجنبي في العالم العربي . وكان لقوله هذا ينطـوي على عداء ودهاء ويشير ضمنا إلى ان موسكو بتأييدها الموقف الاميركي تخـسر نفوذهـا بالتـدريج وتحـول دورها إلى دور ثانوي .

وفي التاسع من سبتمبر توصل بوش وغورباتشوف إلى اتفاق . وبعد أن نجح غورباتشوف في اقنـاع الـرئيس الامير كي بانه لن يقدم دعما عسكريا للعراق حصل على الضوء الاخضر للابقاء على صلاته مع العـراق . وعهد إلى واحد من أقرب زملائه وهو يفجيني بريمـاكوف بمتابعـة المـسالة . وفـي مقابـل ذلـك خـول غورباتشوف بوش مواصلة الاستعدادات العسكرية . وأصدرا بيانا مشتركا أكدا فيه على الرغبة في التوصـل إلى حل سلمي للأزمة . وجاء فيه أيضا انه " إذا فشلت جميع الخطوات الحالية ، فاننا مـستعدون للنظـر فـي اتخاذ اجراءات أخرى طبقا لميثاق الامم المتحدة " .

***

كان العامل الخفي لا يزال صدى تصميم صدام حسين – لكن هناك ما يشير بعض الشيء إلـى حقيقتـه فـي المحادثات السرية بينه وبين زعيمي منظمة التحرير – عرفات وأبو إياد – في آخر أغسطس .

وجده الزعيمان الفلسطينيان " في منتهى الاسترخاء " . قال لهما بهدوء : " الآن وقد اتخذت أزمة الخليج مثـل تلك الابعاد فهل يمكنني أن أقصرها على المطالبة بجزيرتين وبضعة آبار من النفط خصوصا بعد أن انـسحبت من شط العرب؟ ذلك لا يكفي . إذا قلت للشعب العراق بأنني انسحب لانني توصلت إلى تـسوية قـضية فـي اهمية القضية الفلسطينية فسوف يفهمون ذلك . والواقع أنه أسوأ من خسارة الحرب . لم يسبق لـي أن ذكـرت أنني مستعد للانسحاب . لماذا ؟ لأنني أعتقد أن الجنود العراقيين سيفقدون معنوياتهم إذا شعروا بأنني مقتنـع { بضرورة } الانسحاب " .

ثم أضاف صدام : " إذا تقدمت باقتراح للسلام فانه ينبغي ان أكون الطرف الذي يقـدم التنـازلات . لكـن إذا قدمه الآخرون فانني سأحصل على تنازلات ".

وناقش ثلاثتهم احتمال وقوع الحرب . وتناوله صدام باتزان وشجاعة . قـال : " إننـي علـى يقـين مـن أن الاميركيين متفوقون من الناحية التكنولوجية وخصوصا في الجو ، ولكن أعتقـد بـأنهم لا يـستطيعون تحييـد سوى جزء من القوات العراقية ، وأن المعركة الحاسمة ستجري على الأرض".

ووصف صدام بالتفصيل طبيعة ونطاق مختلف انواع الهجمات التي تُشن عليه، وبدا أنه يحـسب حـساب كـل شئ، الخسائر المحتملة، وسبل الانتقام ، واشار عرفات إلى ذلك فيما بعد بقوله "لقد أذهلني بهدوءه وانا اسـتمع إليه" وأخبره عرفات بانه هناك معلومات موثوق بها تشير إلى وجود مؤامرة تستهدف القضاء عليـه . فـانفجر صدام ضاحكا وقال : " هل تحاول أن تخوفني لكي استسلم ؟ ما هذه النكتة ؟ " .

***

اجتمع مبعوث غورباتشوف الخاص بصدام عدة مرات . وفي احداها - وكان ذلك في أكتوبر - بلغت دهـشة بريماكوف وضيقه بتصلب الرئيس حدا تخلى معه عن اللغة الدبلوماسية التي كان حتى تلك اللحظة يـستخدمها وقال :

" سيدي الرئيس إذا أصررت { على موقفك } فان الاميركيين سيشنون الحرب عليك ولـن نتـدخل لمـنعهم " . فقال صدام بلا مبالاة : " أعرف ذلك " . فما كان من بريماكوف إلا أن قال : " لكنك ستخسر " . فنظـر إليـه صدام طويلا ثم قال بهدوء : " ربما " .

الفصل التاسع

العد العكسي للحرب

عندما انتصف اكتوبر كان من الواضح أن الازمة ستطول بعض الوقت ، وان حلها يزداد تعقيدا يوما بعد يـوم ، واصبح الشرق الاوسط مسرحا لاحداث ماساوية .

وركزت الصحف في صفحاتها الاولى كما ركزت الاذاعات والتلفزيونات على المشكلات الجديـدة : مقتـل واحد وعشرين فلسطينيا في القدس في ٨ أكتوبر ، وقيام القوات السورية في ١٣ من الـشهر ذاتـه بالاطاحـة بالزعيم العسكري المسيحي ميشيل عون في لبنان .

وفي الثاني عشر من أغسطس - أي بعد غزو الكويت بعشرة ايام صرح صدام حـسين بأنـه لا يمكـن حـل الازمة الا في اطار النزاعات الاخرى في الشرق الاوسط : الاحتلال الاسـرائيلي لـلـضفة الغربيـة وغـزة وهضبة الجولان وجنوب لبنان . وردت حكومتا الولايات المتحدة واسرائيل على ذلك بانه " دعايـة رخيـصة . "

وبينما كانت الازمة آخذة في الاشتداد اصدرت بعض الدول الغربية تصريحات تربط في الظـاهر بـين هـذه القضايا الشرق أوسطية . فالرئيس الفرنسي ميتران أعلن في خطاب له في الامم المتحدة فـي ٢٤ سـبتمبر ان

صدام حسين صرح بانه سوف ينسحب من الكويت ، وأن أبواب التفاوض مفتوحة . وقال دوغلاس هيرد وزير خارجية بريطانيا ان الاولوية ستكون للقضية الفلسطينية عندما يتم حل أزمة الخليج .

كانت الاحداث الدامية التي وقعت في القدس في الثامن من أكتوبر بمثابة هدية لصدام حسين . إذ ركزت أنظار العالم في القضية الفلسطينية ، ووضعت اسرائيل في موقف بالغ الحساسية . فبادرت اسرائيل إلى القول بان منظمة التحرير الفلسطينية احكمت تدبير ذلك لاحراج اسرائيل ، بل ذهب بعض الناطقين الاسرائيليين إلى حد القول بانه ربما كان العراق وراء جهود المنظمة في هذا السبيل . على انه كانت للفلسطينيين وجهة نظر أخرى . فاتهموا الاسرائيليين بالقيام بالمجزرة في محاولة لمنع المتطرفين الاسرائيليين من " جماعة المؤمنين في الهيكل " من الزحف على المسجد . فكانوا قد نادوا بضرورة هدمه وتحويله إلى كنيست . ومن الواضح أن البوليس الاسرائيلي منع المتطرفين من الاقتراب من المسجد وان الفلسطينيين أخذوا يقذفون الحجارة على آلاف المصلين اليهود امام حائط المبكى . لكن كان من الواضح أيضا أن الجنود الاسرائيليين أطلقوا النار على الفلسطينيين بعد فرار اليهود من الحجارة وابتعادهم عن الخطر.

وهاجمت بعض الجماعات الاسرائيلية حكومتها بسبب الطريقة التي عالجت بها المظاهرة . واتهمت جماعة " بتسيلم " المستقلة التي ترصد الاعمال الاسرائيلية في الاراضي المحتلة القوات الاسرائيلية باطلاق النار دون تمييز على المتظاهرين والمتفرجين ورجال الاسعاف . وورد في تقرير للجماعة يشجب ما حدث ويقع في أربع وثلاثين صفحة قولها : " واستمر إطلاق النار حتى بعد أن اخذ المتظاهرون يتفرقون في كل اتجاه وبعد ان هرب كثرة منهم وحتى بعد ان وصلت سيارات الاسعاف والفرق الطبية ".

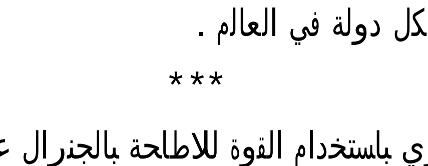
خلق هذا الحدث مشكلة كبيرة للحكومة الاميركية التي كانت لها منذ سنوات طويلة علاقات وثيقة مع اسرائيل . فخلال مناقشات امتدت خمسة ايام في مجلس الامن حاولت التوصل إلى صيغة قرار يحمل أقل ما يمكن من الادانة لاسرائيل . لكن بعد أن حصلت على دعم غالبية الحكومات العربية في ازمة الخليج ، لم تعد في وضع يمكنها من استخدام حق الفيتو ضد القرار . وفي الايام التي تلت احداث القدس كان في مقدور المرء أن يلاحظ ان الهجوم في البلاد العربية على منظمة التحرير بسبب تاييدها لصدام حسين قد تحول مؤقتا إلى هجوم على اسرائيل . وبرز هذا بوضوح في مصر حيث كان مبارك قد اصبح مناصرا قويا لموقف الولايات المتحدة من صدام .

وعندما تبنت الامم المتحدة اخيرا قرارها ، لم يشتمل هذا القرار فقط على انتقاد اسرائيل بسبب الطريقة التي عالجت فيها (مظاهرات) الفلسطينيين ، بل وعلى الطلب من الامم المتحدة ارسال وفد إلى اسرائيل للتحقيق في الاحداث . فردت حكومة شامير على ذلك بغضب وهاجمت الولايات المتحدة بسبب موقفها ، ورفضت رفضا قاطعا فكرة الوفد قائلة بانه باستطاعة أفراده ان يزوروا اسرائيل كسائحين . وقارن جيمس بيكر بين رد الفعل الاسرائيلي تجاه قرار الامم المتحدة برد فعل صدام حسين تجاه تلك الهيئة الدولية ، مما زاد التوتر

بين الولايات المتحدة واسرائيل . وكانت الولايات المتحدة تحرص كل الحرص على أن تتحاشى حدوث ذلك . فمنذ بداية الازمة نصحت الولايات المتحدة اسرائيل ان تعمد إلى الهدوء ، لانها لم تكن تعتبر ازمة الخليج مؤامرة اميركية صهيونية . وكان هذا هو ما فهمه صدام حسين وما يفسر لماذا أعلن صدام في عدد من المناسبات انه إذا قامت الولايات المتحدة والقوات العسكرية الاخرى في السعودية بمهاجمة العراق فانه سيقوم على الفور بمهاجة اسرائيل بالصواريخ . وكان يامل من وراء هذا توريط اسرائيل في الحرب ودق اسفين في تأييد الدول العربية للهجوم على بلاده .

قامت اسرائيل بتشكيل لجنة تحقيق حول حمام الدم بالقدس برئاسة مدير الموساد السابق زفي زامير . وجرى الاستماع لاول شهادة في الجلسة المغلقة يوم الاحد في الرابع عشرة من اكتوبر وبعد مضي اثني عشر يوما أعلن تقرير زامير ان القوات الاسرائيلية بريئة من قتل الفلسطينيين البالغ عددهم واحدا وعشرين .

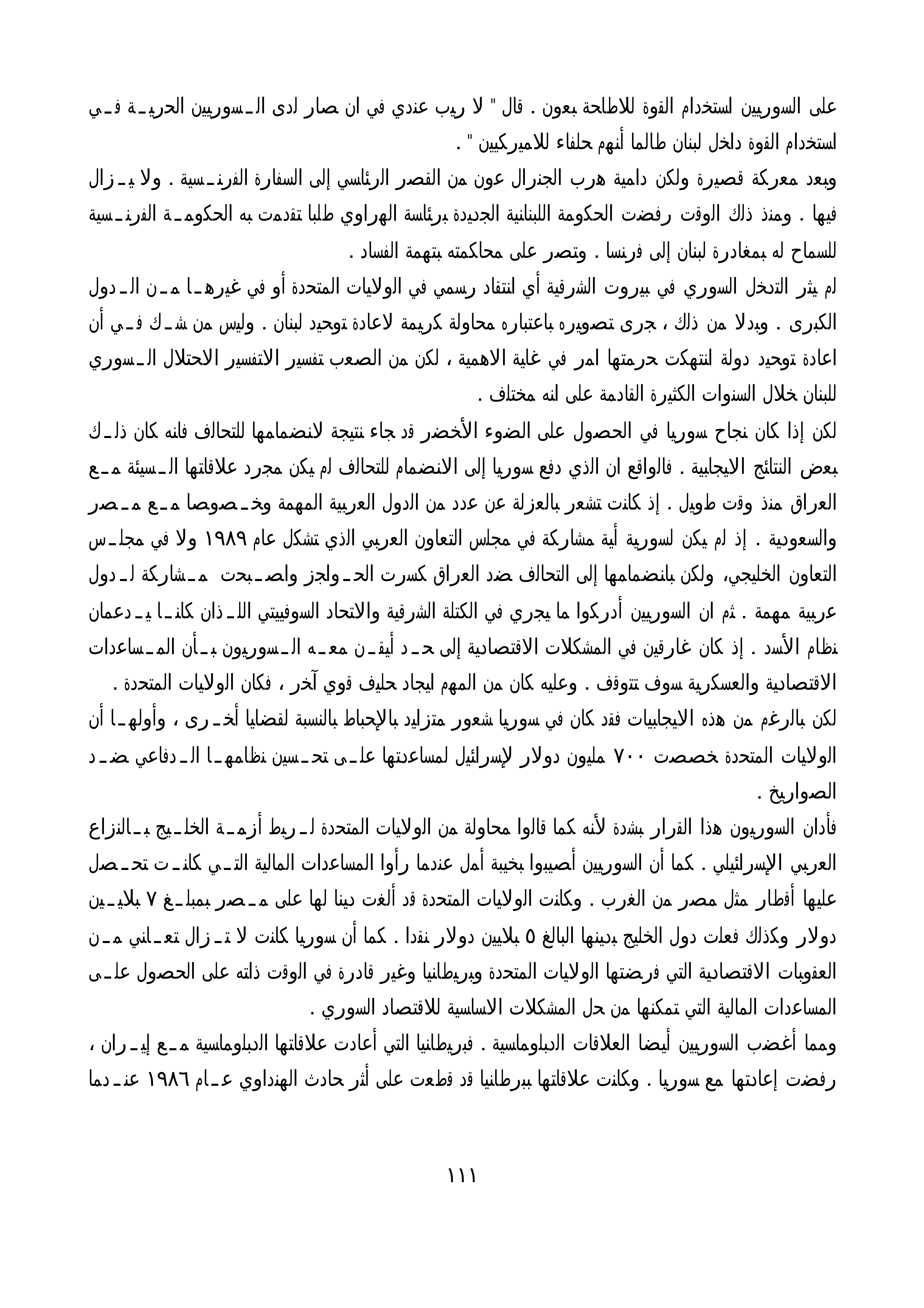
ويحتمل ان يكون الغضب على الولايات المتحدة هو الذي حفز الاسرائيليين إلى اتخاذ قرار آخر كفيل بالحاق المزيد من الضرر بالعلاقات مع الولايات المتحدة . إذ اعلن وزير الاسكان عن وجود خطط لبناء مساكن في القدس الشرقية لليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي . وكان الاميركيون قد قدموا قرضا مضمونا باربعمئة مليون دولار لاسرائيل لايواء المهاجرين السوفييت لكن بشرط ان لا يخصص أي جزء منه لبناء مساكن في الاراضي المحتلة . وقال شارون ان القدس الشرقية ليست منطقة محتلة بل هي جزء من القدس عاصمة اسرائيل ، وهو شيء رفضت قبوله كل دولة في العالم .



جرى أيضا الربط بين القرار السوري باستخدام القوة للاطاحة بالجنرال عون بلبنان وبين أزمة الخليج . فبعد أن ظلت الولايات المتحدة سنوات تدين سوريا بوصفها دولة ارهابية ، فانها اصبحت حليفة لها في ازمة الخليج . وكان من دواعي سرور الرئيس الأسد الذي كان على الدوام يكن الكراهية لصدام ان ينضم إلى قوة عالمية تعتزم طرد صدام من الكويت ، وربما من السلطة أيضا . وكان جيمس بيكر قد عقد اجتماعا مع الرئيس الأسد تعرض لبعض النقد في الولايات المتحدة ، وأثار بوجه خاص سخط أسر ضحايا الرحلة ١٠٣ لطائرة بان أميركان التي انفجرت فوق لوكيربي باسكتلندا . فلم يكن بوسعهم أن يصدقوا انه من الممكن لمسؤول اميركي كبير أن يزور بلادا لعبت دورا في الهجوم الارهابي .

لكن الرئيس الأسد كان قد أصبح عندئذ في وضع لا غبار عليه في نظر الولايات المتحدة . إذ كان قد أرسل قوات سورية إلى السعودية والامارات وأيد بقوة موقف الولايات المتحدة وهيئة الامم من العراق . وكشف مصدر سوري عالي المستوى انه لحاط بقولته القسم المسيحي الذي يسيطر عليه الجنرال عون في بيروت ، تلقى الضوى الاخضر من البيت الابيض للمضي قدما والاطاحة بعون.

وعندما وجد عون نفسه محاصرا بالقوات السورية ناشد الاسرائيليين ان يقوموا بمساعدته . وهذا ما اكده أوري لوبراني منسق العمليات الاسرائيلية في لبنان الذي أكد أن التحالف السوري الاميركي في الخليج سهل



على السوريين استخدام القوة للاطاحة بعون . قال " لا ريب عندي في ان صار لدى الـسوريين الحريـة فـي استخدام القوة داخل لبنان طالما أنهم حلفاء للاميركيين " .

وبعد معركة قصيرة ولكن دامية هرب الجنرال عون من القصر الرئاسي إلى السفارة الفرنـسية . ولا يـزال فيها . ومنذ ذلك الوقت رفضت الحكومة اللبنانية الجديدة برئاسة الهراوي طلبا تقدمت به الحكومـة الفرنـسية للسماح له بمغادرة لبنان إلى فرنسا . وتصر على محاكمته بتهمة الفساد .

لم يثر التدخل السوري في بيروت الشرقية أي انتقاد رسمي في الولايات المتحدة أو في غيرهـا مـن الـدول الكبرى . وبدلا من ذلك ، جرى تصويره باعتباره محاولة كريمة لاعادة توحيد لبنان . وليس من شـك فـي أن اعادة توحيد دولة انتهكت حرمتها امر في غاية الاهمية ، لكن من الصعب تفسير الاتفسير الاحتلال الـسوري للبنان خلال السنوات الكثيرة القادمة على انه مختلف .

لكن إذا كان نجاح سوريا في الحصول على الضوء الأخضر قد جاء نتيجة لانضمامها للتحالف فانه كان ذلـك بعض النتائج الايجابية . فالواقع ان الذي دفع سوريا إلى الانضمام للتحالف لم يكن مجرد علاقاتها الـسيئة مـع العراق منذ وقت طويل . إذ كانت تشعر بالعزلة عن عدد من الدول العربية المهمة وخـصوصا مـع مـصر والسعودية . إذ لم يكن لسورية أية مشاركة في مجلس التعاون العربي الذي تشكل عام ١٩٨٩ ولا في مجلـس التعاون الخليجي، ولكن بانضمامها إلى التحالف ضد العراق كسرت الحـواجز واصـبحت مـشاركة لـدول عربية مهمة . ثم ان السوريين أدركوا ما يجري في الكتلة الشرقية والاتحاد السوفييتي اللـذان كانـا يـدعمان نظام الأسد . إذ كان غارقين في المشكلات الاقتصادية إلى حـد أيقـن معـه الـسوريون بـأن المـساعدات الاقتصادية والعسكرية سوف تتوقف . وعليه كان من المهم ايجاد حليف قوي آخر ، فكان الولايات المتحدة .

لكن بالرغم من هذه الايجابيات فقد كان في سوريا شعور متزايد بالإحباط بالنسبة لقضايا أخـرى ، وأولهـا أن الولايات المتحدة خصصت ٧٠٠ مليون دولار لإسرائيل لمساعدتها علـى تحـسين نظامهـا الـدفاعي ضـد الصواريخ .

فأدان السوريون هذا القرار بشدة لأنه كما قالوا محاولة من الولايات المتحدة لـربط أزمـة الخلـيج بـالنزاع العربي الإسرائيلي . كما أن السوريين أصيبوا بخيبة أمل عندما رأوا المساعدات المالية التـي كانـت تحـصل عليها أقطار مثل مصر من الغرب . وكانت الولايات المتحدة قد ألغت دينا لها على مـصر بمبلـغ ٧ بلايـين دولار وكذلك فعلت دول الخليج بدينها البالغ ٥ بلايين دولار نقدا . كما أن سوريا كانت لا تـزال تعـاني مـن العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة وبريطانيا وغير قادرة في الوقت ذاته على الحصول علـى المساعدات المالية التي تمكنها من حل المشكلات الاساسية للاقتصاد السوري .

ومما أغضب السوريين أيضا العلاقات الدبلوماسية . فبريطانيا التي أعادت علاقاتها الدبلوماسية مـع إيـران ، رفضت إعادتها مع سوريا . وكانت علاقاتها ببرطانيا قد قطعت على أثر حادث الهنداوي عـام ١٩٨٦ عنـدما

وجدت قنبلة على إحدى طائرات العال بمطار هيثرو ، وحملت بريطانيا سوريا المسؤولية عن تلك العملية الإرهابية .

وأصرت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر على هذا الموقف بالرغم من السياسة السورية الجديدة التي تجلت في الدفاع عن التحالف ضد العراق . وبقيت هذه المشكلة دون حل إلى أن خرجت تاتشر عن الوزارة في نوفمبر . فبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة اعادت بريطانيا علاقاتها مع سوريا .

وكان السوريون يواجهون مشكلة أخرى . فبالرغم من أنهم كانوا يكرهون العراق فانه كان سيتحالف معهم في حال نشوب الحرب مع اسرائيل . وهكذا فانهم اعلنوا بوضوح ان قواتهم موجودة في السعودية للدفاع عنها لا لمهاجمة العراق وأنهم لا يسعون إلى حرب مع العراق بل إلى حل سلمي . أجل كانوا يريدون حلا سلميا لا يضعف قوة العراق . لكن هذا الموقف تغير كليا فيما بعد عندما اندلعت الحرب ، فقبلت بهدوء تدمير العراق وأيدت فكرة الإطاحة بصدام حسين .

***

طرأت أحداث أخرى مهمة أثرت في أزمة الخليج . ففي ١٨ نوفمبر – أي بعد الغزو بثلاثة أشهر – اجتمع بباريس لأول مرة منذ الحرب الباردة رؤساء ورؤساء وزارات ٣٤ دولة تضم دولا من أوروبا الشرقية والغربية بالاضافة إلى كندا والولايات المتحدة (ضمن إطار منظمة CSCE) . وفي تلك الأثناء وصلت رسالة مستعجلة من بغداد تعلن أن صدام حسين سيبدأ في عيد الميلاد بإطلاق سراح جميع الرهائن . على ان الرسالة لم تفاجئ أحدا . فمنذ بداية الازمة وصدام حسين يحاول استغلال قضية الرهائن في محاولة منه لإضعاف تأييد الرأي العام الدولي لأي هجوم عسكري على بلاده . ومهما يكن من أمر فان إعلان صدام استقبل باستخفاف من قبل الولايات المتحدة بوصفها مجرد دعاية عراقية أخرى . وفي صباح اليوم التالي ، وبعد أن تناول بوش الفطور مع مارغريت تاتشر ، شجب القرار العراقي بالإفراج عن الرهائن على دفعات ، وقال بأنه إذا أراد صدام حلا سلميا فعليه ان يفعل بالكويت ما فعله بإيران . وهذا يعني " أن عليه أن يتراجع تراجعا كاملا . فلن تطلق رصاصة واحدة غضبا إذا فعل ما يفترض فيه عمله وهو التقيد تقيدا كاملا بقرارت الامم المتحدة " .

عند بدء اجتماع الدول الأربع والثلاثين . كان من الواضح أن أزمة الخليج تتزايد تعقيدا . فطوال شهور كنا نسمع عن مختلف الخيارات لحل الأزمة – المفاوضات السلمية ، وانسحاب طوعي للقوات العراقية من الكويت ، والحل العربي ، والحرب . وبعد أن قام الرئيس الأميركي بنشر ٢٠٠ ، ٠٠٠ من الجنود كخطوة أولية ، أعلن في أوائل نوفمبر أنه سيرسل تعزيزات للوجود العسكري في السعودية تتألف على الأقل من ٢٠٠ ، ٠٠٠ جندي . وفي هذه صار من الواضح لدى متتبعي الأزمة أنه طرأ تغير أساسي على الموقف الأميركي . إذ تحولت الولايات المتحدة إلى دولة مهاجمة ، وبالتالي أخذ احتمال وقوع الحرب يتحول إلى

حقيقة . وذهب عدد من الخبراء إلى أن نشر القوات يعني أن الحرب ستقع بين منتصف وآخر ينـاير أو أوائـل فبراير . واعتقد آخرون نشرها قد يكون خدعة لتغطية هجوم مبكر على الكويت

***

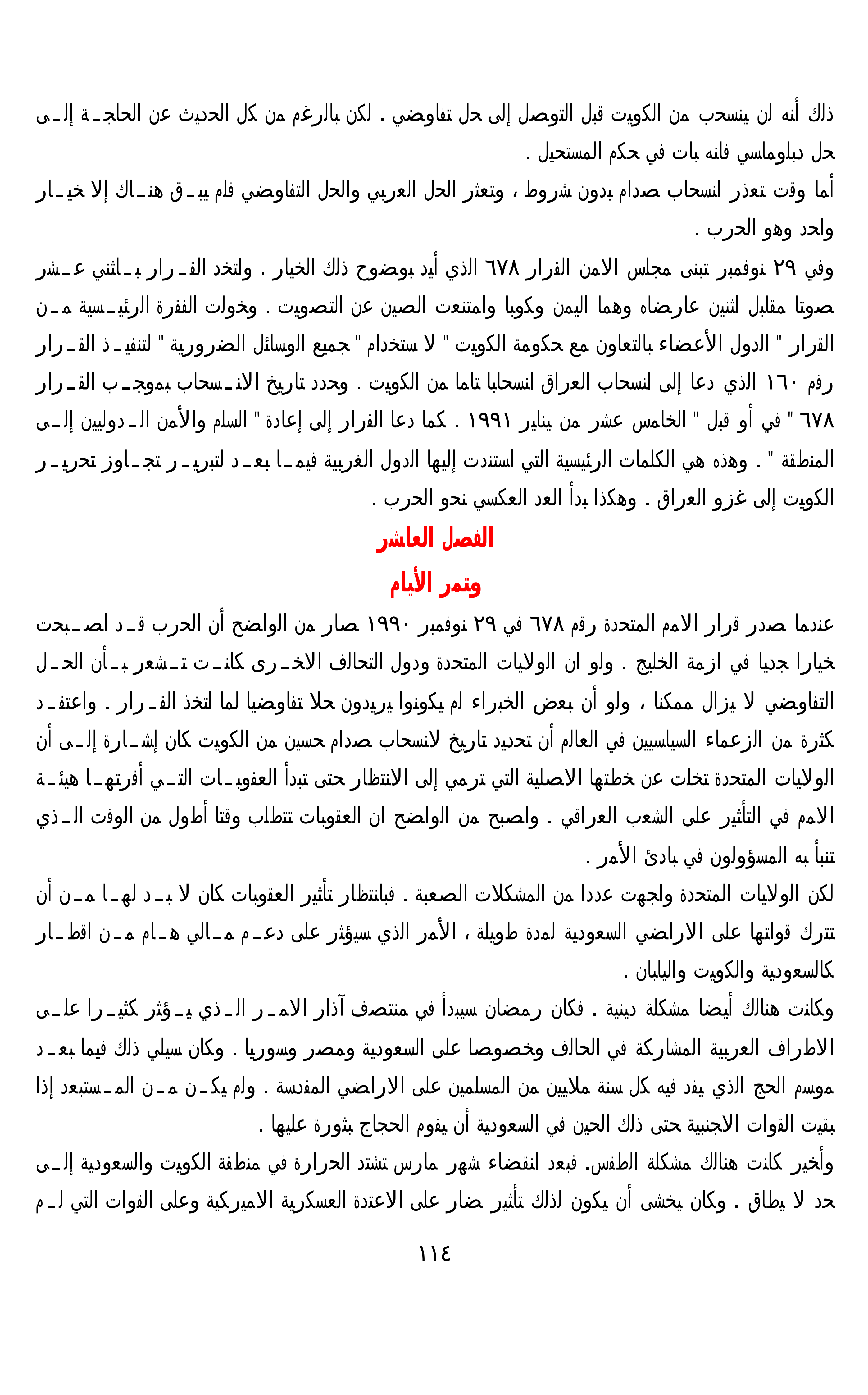
لم يحضر جورج بوش وسكرتير الدولة جيمس بيكر إلى باريس فقط بهدف المشاركة في المؤتمر ، بل أيـضا وأساسا من أجل إقناع فرنسا والاتحاد السوفييتي بالحاجة إلى قرار جديد تصدره الامم المتحدة يجيـز اسـتخدام القوة العسكرية ضد العراق . بعد أن اجتمع بيكر ووزير الخارجية الفرنسية رولان دوما أشاع مساعدو بيكـر بان فرنسا وافقت على دعم هذا القرار . وأشبع الشيء ذاته على أثر عشاء ضـم بـوش وميتـران . فـسارع الأليزيه إلى القول بأن أي اتفاق بهذا الشأن لم يتم ، وبأن فرنسا إذا كانت تقبل " من حيـث المبـدأ " فانهـا لا تدعم أي قرار لم يناقش في مجلس الامن . وحدد ميتران موقفه النهائي في مؤتمر صحفي عقده بعـد انتهـاء اجتماع باريس ، معلنا فيه ان قرارا جديدا سوف يتم تبنيه خلال ثلاثة أسابيع ويجيز استخدام القوة .

وجرى الشي ذاته مع السوفييت . فقد عقد بيكر ثلاثة اجتماعات مع ادوارد شيفارنادزه ؛ واجتمع بـوش كـذلك بغورباتشوف . وعرف أولا أن السوفييت غير متحمسين لصدور قرار عن الامم المتحدة يؤيد استخدام القـوة . وأعلن الناطق الرسمي السوفييتي في عدة مناسبات ، بان موقف بلاده هو " الصبر " .

ولكن قبل مغادرة غورباتشوف لباريس ، ظهر على شاشة التلفزيون الفرنسي وحمـل علـى العـراق وعلـى صدام حسين قال : " الوضع شديد الخطورة . يجب علينا ان نتحرك ، ونظهر حزمنـا وتـصميمنا . ونـشعر بالحاجة إلى قيام مجلس الامن دون تأخير بالاجتماع ومناقشة الوضع واتخاذ قرار" .

وخاب أمل الذين قالوا باحتمال التوصل إلى حل عربي . وفي أوائل نوفمبر دعا الملك الحسن الثاني إلى عقـد قمة عربية لحل أزمة الخليج . ولكن في حين أن العراق سارع إلى تأييد اقتراحه فان الدول العربيـة الرئيـسية مثل مصر وسوريا والسعودية بادرت على الفور إلى رفضه .

وخاب كذلك الأمل في حل دبلوماسي . فالوسيط السوفييتي يفجيني بريماكوف الذي قام بجولة مكوكيـة علـى الاقطار العربية بما فيها العراق بهدف التوصل إلى حل سلمي ، تحدث عن القيام بتنـازلات للعـراق . لكـن الولايات المتحدة لم تكن على استعداد لقبول شيء من هذا . والواقع أن بوش كان قد وضع نفسه فـي موقـف كان من الصعب تغييره ومن المستحيل التفاوض حوله . إذ قال انه لا يمكن إجراء محادثات مـع العـراق إلا بعد انسحاب العراق من الكويت وعودة الأسرة الحاكمة والافراج عن جميع الرهائن مـن الأجانـب . وكـان صدام قد أشار في كثرة من المقابلات بأنه لن يقبل ذلك . وعندما كنت ببغداد في أوائل سبتمبر أبلغتنـي وزارة الخارجية العراقية ان صدام حسين يرغب في مناظرة تلفزيونية مع بوش . ونقلت رغبته إلى البيـت الأبـيض فكان الجواب قاطعا بالنفي . وفي مقابلة لبيتر جنكز المراسل الرئيسي لشبكة " إي بي سي " مع صدام ببغـداد شدد هذا على استعداده للتفاوض مع الولايات المتحدة والسعودية ولكن بدون " شروط مسبقة " وكـان معنـى



ذلك أنه لن ينسحب من الكويت قبل التوصل إلى حل تفاوضي . لكن بالرغم من كل الحديث عن الحاجة إلى حل دبلوماسي فانه بات في حكم المستحيل .

أما وقت تعذر انسحاب صدام بدون شروط ، وتعثر الحل العربي والحل التفاوضي فلم يبق هناك إلا خيار واحد وهو الحرب .

وفي ٢٩ نوفمبر تبنى مجلس الامن القرار ٦٧٨ الذي أيد بوضوح ذلك الخيار . واتخذ القرار باثني عشر صوتا مقابل اثنين عارضاه وهما اليمن وكوبا وامتنعت الصين عن التصويت . وخولت الفقرة الرئيسية من القرار " الدول الأعضاء بالتعاون مع حكومة الكويت " لا ستخدام " جميع الوسائل الضرورية " لتنفيذ القرار رقم ٦٦٠ الذي دعا إلى انسحاب العراق انسحابا تاما من الكويت . وحدد تاريخ الانسحاب بموجب القرار ٦٧٨ " في أو قبل " الخامس عشر من يناير ١٩٩١ . كما دعا القرار إلى إعادة " السلم والأمن الدوليين إلى المنطقة " . وهذه هي الكلمات الرئيسية التي استندت إليها الدول الغربية فيما بعد لتبرير تجاوز تحرير الكويت إلى غزو العراق . وهكذا بدأ العد العكسي نحو الحرب .

الفصل العاشر

وتمر الأيام

عندما صدر قرار الامم المتحدة رقم ٦٧٨ في ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ صار من الواضح أن الحرب قد اصبحت خيارا جديا في ازمة الخليج . ولو ان الولايات المتحدة ودول التحالف الاخرى كانت تشعر بأن الحل التفاوضي لا يزال ممكنا ، ولو أن بعض الخبراء لم يكونوا يريدون حلا تفاوضيا لما اتخذ القرار . واعتقد كثرة من الزعماء السياسيين في العالم أن تحديد تاريخ لانسحاب صدام حسين من الكويت كان إشارة إلى أن الولايات المتحدة تخلت عن خطتها الاصلية التي ترمي إلى الانتظار حتى تبدأ العقوبات التي أقرتها هيئة الامم في التأثير على الشعب العراقي . واصبح من الواضح ان العقوبات تتطلب وقتا أطول من الوقت الذي تنبأ به المسؤولون في بادئ الأمر .

لكن الولايات المتحدة واجهت عددا من المشكلات الصعبة . فبانتظار تأثير العقوبات كان لا بد لها من أن تترك قواتها على الاراضي السعودية لمدة طويلة ، الأمر الذي سيؤثر على دعم مالي هام من اقطار كالسعودية والكويت واليابان .

وكانت هناك أيضا مشكلة دينية . فكان رمضان سيبدأ في منتصف آذار الامر الذي يؤثر كثيرا على الاطراف العربية المشاركة في الحالف وخصوصا على السعودية ومصر وسوريا . وكان سيلي ذلك فيما بعد موسم الحج الذي يفد فيه كل سنة ملايين من المسلمين على الاراضي المقدسة . ولم يكن من المستبعد إذا بقيت القوات الاجنبية حتى ذلك الحين في السعودية أن يقوم الحجاج بثورة عليها .

وأخير كانت هنالك مشكلة الطقس. فبعد انقضاء شهر مارس تشتد الحرارة في منطقة الكويت والسعودية إلى حد لا يطاق . وكان يخشى أن يكون لذلك تأثير ضار على الاعتدة العسكرية الاميركية وعلى القوات التي لم

تعتد حياة الصحراء . وهكذا فان الخبراء في الحكومة الاميركية قرروا انه لا مفر من ايجاد حل قبل منتـصف آذار .

***

في ٣٠ نوفمبر ـ أي بعد صدور قرر الامم المتحدة رقم ٦٧٨ بيوم واحد ـ اعلن بوش بـ ذكاء عـن خطـة سلام لإقناع العالم بان الحرب لم تكن حتمية ـ فاقترح ان يجتمع بوزير خارجية العراقية طـارق عزيـز وان يوفد وزير خارجيته بيكر للاجتماع بصدام حسين . ورحب العالم بالاقتراح بوصفه دلـيلا واضـحا علـى ان الرئيس بوش كان لا يزال يسعى إلى حل دبلوماسي للازمة .

وصلت إلى تونس في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم . وفي صباح اليوم التالي اجتمعت مـع أبـو إيـاد الرجل الثاني في منظمة التحرير . وقد عرفته منذ سنوات طويلة . وكان قد قضى شـطرا مـن حياتـه فـي الكويت حيث كانت لا تزال تعيش أسرته بما فيها زوجته . وكان فـي أوائـل الـسبعينات ، الـرأس المـدبر للعمليات " الارهابية " وهو الذي نظم الهجوم على الرياضيين الإسرائيليين في الالعاب الاولمبية بميونيخ عـام ١٩٧٢ . على انه اقتنع منذ أوائل الثمانينات بان الارهاب ليس أسلوبا لحل القضية الفلـسطينية واتخـذ موقفـا اكثر اعتدالا . ولعب دورا اساسيا في حمل المنظمة على التخلي عن الارهاب ، والاعتراف بوجود اسـرائيل، وفتح حوار مع الولايات المتحدة . لقد كان يد عرفات اليمنى ومن الذين دفعوه إلى الاعتدال .

بدأ أبو إياد يخبرني عما حدث في مقر منظمة التحرير عندما علم المسؤولون فيهـا بـاقتراح بـوش . بـادر عرفات إلى عقد اجتماع بكبار قادتها الموجودين بتونس . وبعد نقاش استمر عدة ساعات كتبوا مـذكرة سـرية لصدام حسين نقلتها إليه السفارة العراقية بتونس . واشتملت المذكرة على ثلاث نقاط رئيسية : الأولـى قبول اقتراح بوش الذي يحتمل ان يكون آخر فرصة للتوصل إلى حل سلمي للازمة . والثانيـة الـتخلص مـن جميع الرهائن الاجانب قبل لاجتماع بين طارق عزيز وبوش ، لان ذلك يسهل امكـان التوصـل إلـى حـل دبلوماسي . والثالثة الاستعداد للانسحاب من الكويت مع عدم نسيان الصفقة السرية مع الملك فهد التي تقـضي باحتفاظه بمناطق الحدود المتنازع عليها منذ وقت طويل بين العراق والكويت .

وأخبرني أبو إياد أن عرفات كان في طريقه إلى عمان للاجتماع مع الملك حسين قبـل الـذهاب إلـى بغـداد لمقابلة صدام حسين . وأضاف أنه سيسافر في اليوم التالي إلى اليمن لمحاولة الحصول علـى تأييـد زعمائهـا للخطة التي تقترحها المنظمة على صدام .

وسالته إذا كان سيجتمع مع الزعيم العراقي في العاصمة العراقية كما كان يفعل دائما ، ففاجاني بجوابه : " لـن أذهب إلى بغداد مرة أخرى . ولن اجتمع بصدام حسين مرة أخرى " . فلما سألته عن سبب اتخاذه هذا القـرار كشف النقاب عن خبر مثير .

في ١٦ نوفمبر اجتمع هو وعرفات مع صدام حسين . وفي ذلك الاجتماع حـدث مـشادة عنيفـة بينـه وبـين الزعيم العراقي . قال له : " إنك لا تساعد القضية الفلسطينية كما تدعي . إنك تـدمرها . إنـك تقـضي علـى

آلاف الفلسطينيين في الكويت . إنك تدمر أسرتي . لقد فقد جميعهم وظائفهم ويتضورون جوعا " . وقـال أبـو إياد أيضا انه انتقد بشدة دعم صدام لنشاط أبو نضال الارهابي . وكان أبو نضال - وهو واحـد مـن أخطـر الارهابيين في العالم - قد انفصل عن المنظمة في أوائل السبعينات ؛ ثم ما لبث أن أنشأ منظمـة خاصـة بـه وهي فتح المجلس الثوري وحكم بالموت على أبو إياد . وكان أبو إيام يعلم انه منذ ان أنشأ ابو نضال منظمتـه تورط في اكثر من محاولة لاغتياله هو وغيره من زعماء منظمة التحرير . فأثارت كلمات ابو إيـاد غـضب صدام حسين الذي طرده من مكتبه . كما أثارت غضب عرفات الذي تمكن مع هذا من إخراجه مـن العـراق سالما .

كانت تلك آخر مرة قابلت فيها أبو إياد . ففي ليل الخامس عشر من يناير - أي قبـل نـشوب حـرب الخليج بيومين - اغتيل في تونس هو وهايل عبد الحميد المعروف بأبي الهول . وكانت المنظمة قـد اقترفـت خطـأ أمنيا ماساويا عندما سمحت للقاتل حمزة أبو زيد الذي تظاهر بالانشقاق عن أبو نضال بان يكون حـارس أبـو الهول . ومع أن التحقيق في الاغتيال لا يزال جاريا ، فان هناك ما يشير إلى أن منظمة أبو نضال هـي التـي دبرت العملية . لكن ليس من الواضح ما إذا كان الاغتيال قرارا مستقلا اتخذته المنظمة أم أنـه قـرار جهـة أخرى .

***

في الرابع من ديسمبر اجتمع عرفات والملك حسين ونائب الرئيس اليمني لمدة أربع ساعات مع صـدام حـسين في بغداد للعمل على تنفيذ توصياتهم . وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة - أي في ٦ ديسمبر - أعلـن صـدام الافراج الفوري عن جميع الرهائن الاجانب . لكن لما كان قد أعلن سابقا أنه سوف يسمح لهم جميعا بمغـادرة البلاد في عيد الميلاد فقد شك البعض في البداية بصدقه . لكن وضح في الايام التالية ان جميـع الرهـائن قـد أطلق سراحهم ، وبذلك حلت عقدة من عقد أزمة الخليج .

***

أما على الجبهة الدبلوماسية فلم يبد أثر للتقدم بالرغم من كثرة النشاط . فأولا وقبل كل شيء لم يظهـر مـا إذا كانت الولايات المتحدة والعراق قد اتفقتا على موعد ذهاب طارق عزيز إلى واشنطن وبيكـر إلـى بغـداد . وتحمل الولايات المتحدة العراق مسؤولية ذلك . فقال الاميركيون انهم اقترحوا خمسة عشر مـن تاريخـا وان صدام لم يقبل ايا منها . وكان صدام قد عرض الاجتماع ببيكر في الثاني عشر مـن ينـاير ولكـن الولايـات المتحدة اعتبرت التاريخ قريبا جدا من ١٥ يناير الذي حدد للانسحاب من الكويت . أما العراقيون فقد رأوا فـي ذلك إشارة إلى ان الولايات المتحدة لا تريد اجراء اية محادثات حقيقية معهم . وقالوا إنه لا تفرض التـواريخ على أي قطر عربي ، بل ينبغي التفاوض عليها . وأضافوا أن الولايات المتحدة لا ترغب في المفاوضة حتـى على تاريخ الاجتماع.

وعلمت من مصدر عراقي أن كل ما كان الأمر يستدعيه لإجراء محادثات بين طارق عزيز وبـوش ، وبـين بيكر وصدام هو أن يرفع بوش سماعة التلفون ويطلب صدام لمناقشة القضية معه. هكذا كان يفكـر صـدام . فمنذ بداية الازمة شعر الزعيم العراقي ان الطريق الوحيد للتوصل إلى حل تفاوضـي للازمـة هـو اجـراء محادثات مباشرة مع شخصين وهما الملك فهد والرئيس بوش.

وعلى أي حال فانه لم يجر التوصل إلى حل بشان اقتراح الرئيس بوش وأخيرا لم يتم الاتفاق إلا علـى اتـصال اميركي عراقي واحد بين بيكر وعزيز في التاسع من يناير. لكن كان لا بد مـن التمهيـد للاجتمـاع بنـشاط دبلوماسي واسع .

***

في ١٢ ديسمبر أطلق الشاذلي بن جديد الرئيس الجزائري مبادرة سلام في اجتماع له مع صدام فـي بغـداد . وكان تدخل الجزائر في العملية في نظر الذين يفهمون المفاوضات الشرق أوسطية ، أمرا على جانـب كبيـر من الاهمية . فمنذ سنوات طويلة كانت الجزائر تلعب دورا ايجابيا في معالجة ازمات المنطقة . ولعـل ابـرز نشاطاتها في هذا الميدان ما قامت به في أواخر ١٩٨٠ وأوائل ١٩٨١ عندما نجحت في وضـع حـد لمأسـاة الرهائن في إيران . وبفضل الجزائر أطلق سراح الرهائن في اليوم الذي جرى فيه تنـصيب رونالـد ريغـن رئيسا للولايات المتحدة وهو ٢٠ يناير ١٩٨١ .

على ان جهود بن جديد لإجراء مفاوضات لم تلبث أن بلغت حائطا مسدودا . فالـسعودية رفـضت اسـتقباله بحجة ان المفاوضات غير ممكنة قبل انسحاب صدام من الكويت . وأبلغت الولايات المتحـدة الجزائـر انـه ينبغي ان لا يقوم بن جديد بزيارة واشنطن . إذ يكفي ان يتصل تلفونيا بالرئيس بوش .

***

في ١٨ ديسمبر ازدادت الامور تعقيدا . فالولايات المتحدة والعراق لم تكونا قد توصلتا إلى اتفاق على تـاريخ الاجتماع بين طارق عزيز وبوش . وكان طارق عزيز قد بعث برسالة إلى الجماعة الأوروبية يقول فيهـا انـه على استعداد للاجتماع بوزراء الخارجية الأوروبيين . لكن ما حدث في ذلك اليوم ان وزراء خارجية الـسوق الأوروبية رفضوا الاجتماع به لأنهم لا يريدون ان يولدوا انطباعا بان هناك انشقاقا فـي الحلـف المنـاهض للعراق .

وقدر لقرار وزراء الخارجية هذا أن تكون له نتائج هامة . ففي الايام التي سبقت ١٥ يناير المحدد للانـسحاب شهد العالم فورة من النشاط الدبلوماسي . فقد غير وزراء خارجية الجماعة الأوروبية رأيهم وقرروا انه مـن المهم لهم أن يجتمعوا بعزيز . لكن عزيز رفض عدة مرات لأنه كان لا يزال غاضبا بسبب قرار ١٨ ديـسمبر في بروكسل .

وبعد ذلك بيومين أي في ٢٠ ديسمبر شهد الاتحاد السوفييتي حدثا دراميا أظهر ان الازمة التي كانـت تواجـه العالم ليست في الشرق الاوسط وحده بل وفي الاتحاد السوفييتي إذ استقال شيفارنادزه بعد أن اتهـم ميخائيـل

غورباتشوف بالسير نحو الدكتاتورية . وجاءت استقالته خسارة لبيكر بوجه خاص ، لانه أنشأ مـع شـيفارنادزه أفضل علاقة نشأت بين وزير خارجية أميركي ونظيره في الاتحاد السوفييتي . كما ان استقالته كانـت مؤشـرا على ان بعض الزعماء المتصلبين في الاتحاد السوفييتي بدأوا يشككون في قرار غورباتشوف بالانضمام إلـى الولايات المتحدة في الحلف المناهض للعراق ، لان العراق كان حليفا للاتحاد السوفييتي منـذ زمـن طويـل واكبر مستورد للاسلحة السوفييتية .

***

ومرت الايام واحدا بعد الآخر إلى ان بدأ عام ١٩٩١ .

كان أول يناير يوم عطلة . لكن الثاني منه شهد موجـة مـن المحـاولات الدبلوماسـية . فـوزير خارجيـة لوكسمبرغ جاك بوه الذي كان قد أصبح في اليوم السابق رئيسا للجماعة الأوروبية دعا إلى اجتمـاع لـوزراء خارجيتها يوم الجمعة في الرابع من يناير . وقال إنه يتوقع أن يوفده وزراء الخاريجـة إلـى بغـداد لإجـراء محادثات مع طارق عزيز .

وكان الملك حسين في طريقه إلى أوروبا لإجراء محادثات في لندن وروما وباريس وبون ولوكسمبرغ . ولـم يكن قد توقف عن السعي إلى إيجاد حل دبلوماسي منذ قام بجهد خارق خلال السنوات الثماني والأربعين التـي أعقبت الازمة . وقال أن الجزائر ويوغوسلافيا اللتين تمثلان دول عدم الانحياز لا تزالان تشاركان في عمليـة السلام .

وبينما كانت تبذل هذه الجهود كان الرئيس بوش يخبر الشعب الأميركي في مقابلة له مع الـصحفي البريطـاني ديفد فروست أن استعادة الكويت هي أكبر تحد أخلاقي منذ الحرب العالمية الثانية . وعندما سئل عما سـيحدث إذا نشب القتال في الخليج قال إنه يأمل أن ينتهي في غضون بضعة أيام.

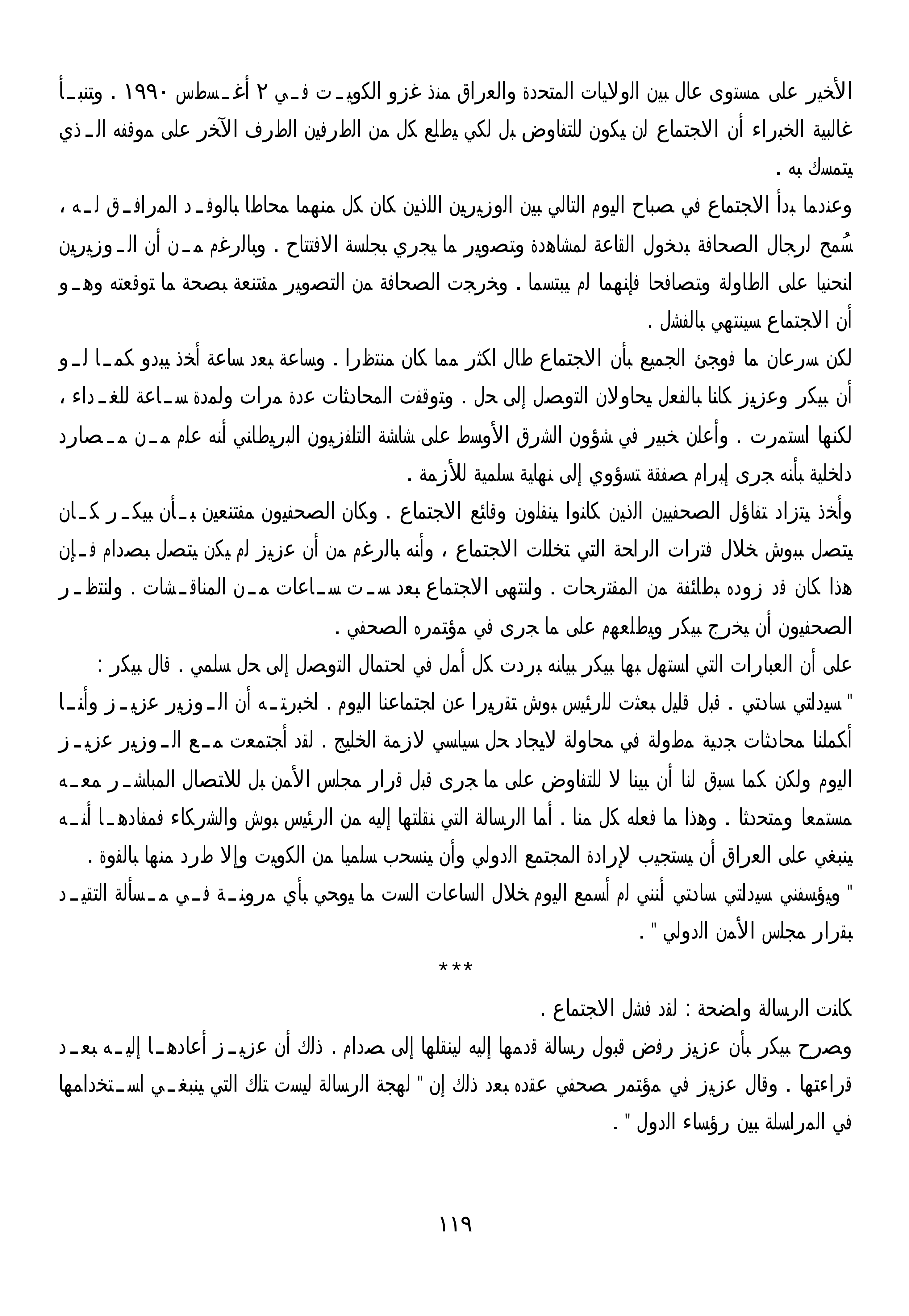
وفي اليوم التالي - ٣ يناير - وبعد أن خاب أمل بوش في الاتفاق على تاريخي الاجتمـاعين فـي واشـنطن وبغداد عرض على العراق فرصة أخيرة لإجراء محادثات بين بيكر وعزيز في السابع والثامن والتاسـع مـن يناير . لكنه قال بأن الاجتماع لن يشتمل على مفاوضات أو تسوية أو إنقـاذ لمـاء الوجـه أو مكافـآت علـى العدوان . ومن المؤكد أن مثل هذا البيان لم يكن من النوع الذي يوحي بان أجتماعهما سيحل الازمة .

وبعد يومين قبل العراقيون الاقتراح وقالوا بأن عزيز سيجتمع مع بيكر في جنيف فـي التاسـع مـن ينـاير . وحيث انه لم يكن قد بقي سوى ستة أيام على التاريخ المحدد للانسحاب وهو ١٥ يناير فإنه كان مـن المنتظـر أن يكون حدث جنيف حاسما .

الفصل الحادي عشر

((لتترك سيارتك في الكاراج هذه الليلة))

وصل جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركية وطارق عزيز وزير الخارجية العراقية إلى جنيف في المـساء . وكان اجتماعهما سيبدأ في صباح اليوم التالي في فندق الانتركونتيننتال . وكانت وسائل المباشـر الأول وربمـا



الأخير على مستوى عال بين الولايات المتحدة والعراق منذ غزو الكويـت فـي ٢ أغـسطس ١٩٩٠ . وتنبـأ غالبية الخبراء أن الاجتماع لن يكون للتفاوض بل لكي يطلع كل من الطرفين الطرف الآخر على موقفه الـذي يتمسك به .

وعندما بدأ الاجتماع في صباح اليوم التالي بين الوزيرين اللذين كان كل منهما محاطا بالوفـد المرافـق لـه ، سُمح لرجال الصحافة بدخول القاعة لمشاهدة وتصوير ما يجري بجلسة الافتتاح . وبالرغم مـن أن الـوزيرين انحنيا على الطاولة وتصافحا فإنهما لم يبتسما . وخرجت الصحافة من التصوير مقتنعة بصحة ما توقعته وهـو أن الاجتماع سينتهي بالفشل .

لكن سرعان ما فوجئ الجميع بأن الاجتماع طال اكثر مما كان منتظرا . وساعة بعد ساعة أخذ يبدو كمـا لـو أن بيكر وعزيز كانا بالفعل يحاولان التوصل إلى حل . وتوقفت المحادثات عدة مرات ولمدة سـاعة للغـداء ، لكنها استمرت . وأعلن خبير في شؤون الشرق الأوسط على شاشة التلفزيون البريطاني أنه علم مـن مـصادر داخلية بأنه جرى إبرام صفقة تسؤوي إلى نهاية سلمية للأزمة .

وأخذ يتزاد تفاؤل الصحفيين الذين كانوا ينقلون وقائع الاجتماع . وكان الصحفيون مقتنعين بـأن بيكـر كـان يتصل ببوش خلال فترات الراحة التي تخللت الاجتماع ، وأنه بالرغم من أن عزيز لم يكن يتصل بصدام فـإن هذا كان قد زوده بطائفة من المقترحات . وانتهى الاجتماع بعد سـت سـاعات مـن المناقـشات . وانتظـر الصحفيون أن يخرج بيكر ويطلعهم على ما جرى في مؤتمره الصحفي .

على أن العبارات التي استهل بها بيكر بيانه بردت كل أمل في احتمال التوصل إلى حل سلمي . قال بيكر :

" سيدلتي سادتي . قبل قليل بعثت للرئيس بوش تقريرا عن اجتماعنا اليوم . اخبرتـه أن الـوزير عزيـز وأنـا أكملنا محادثات جدية مطولة في محاولة لايجاد حل سياسي لازمة الخليج . لقد أجتمعت مـع الـوزير عزيـز اليوم ولكن كما سبق لنا أن بينا لا للتفاوض على ما جرى قبل قرار مجلس الأمن بل للاتصال المباشـر معـه مستمعا ومتحدثا . وهذا ما فعله كل منا . أما الرسالة التي نقلتها إليه من الرئيس بوش والشركاء فمفادهـا أنـه ينبغي على العراق أن يستجيب لإرادة المجتمع الدولي وأن ينسحب سلميا من الكويت وإلا طرد منها بالقوة .

" ويؤسفني سيدلتي سادتي أنني لم أسمع اليوم خلال الساعات الست ما يوحي بأي مرونـة فـي مـسألة التقيـد بقرار مجلس الأمن الدولي " .

***

كانت الرسالة واضحة : لقد فشل الاجتماع .

وصرح بيكر بأن عزيز رفض قبول رسالة قدمها إليه لينقلها إلى صدام . ذلك أن عزيـز أعادهـا إليـه بعـد قراءتها . وقال عزيز في مؤتمر صحفي عقده بعد ذلك إن " لهجة الرسالة ليست تلك التي ينبغـي اسـتخدامها في المراسلة بين رؤساء الدول " .

والآن وقد تعذر الاتصال بين رؤساء الدولتين اتضح لي سبب فشل الاجتماع - فطارق عزيز لم يحمـل معـه إلى جنيف أية مقترحات - لقد جاء لتحقيق هدف واحد وهو إقناع الولايات المتحدة بسحب توقيـت الانـسحاب في ١٥ يناير الذي وافقت عليه هيئة الامم - فلم يكن صدام من النوع الذي يقبل بالمواعيد النهائية المحـددة . لقد كان يعتبرها نوعا من التهديد، كما أنه لم يبعث بعزيز إلى جنيف يظهر استعداد العراق لإجراء محادثـات حول الحل السلمي بل للحديث عن التاريخ النهائي للانسحاب . وهذا ما لم يكن بيكر على استعداد لقبوله .

وكان في جناح عزيز خلال اجتماع هذا مع بيكر وزير خارجية الجزائر السيد أحمد الغزالي ، ومدير الـدائرة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي . وخلال فترة الغداء التي أعقبـت ثـلاث سـاعات مـن المحادثات دخل عزيز إلى جناحه وقال للغزالي والقدومي : " لن نحرز أي تقدم فـي هـذه الحادثـات . فهـم يرفضون مناقشة موضوع التاريخ المحدد للانسحاب { ١٥ يناير } . كما أنهم ليسوا على استعداد لحذفه . ولـن نفاوضهم حتى يفعلوا ذلك " .

***

كان صدام قد علم بان الكونجرس الأميركي صوت في اليوم السابق مؤيدا خطة الـرئيس لا سـتخدام عمـل عسكري لتحرير الكويت . لكن الذي حيرّه هي الأخبار التي وردته من الولايات عن معارضة عدد كبير مـن الشيوخ والنواب الأميركيين ، الأمر الذي أوحى له بانقسام الرأي الأميركي حول الأزمـة . وبـذلك أظهـر عجزه عن فهم العقلية الأميركية : فحالما تنشب الحرب يقف الشعب الأميركي وراء الرئيس بلا معارضـة أو بشيء قليل منها .

***

عندما وصل بيريز دي كويار إلى بغداد في وقت متاخر من مساء ١١ يناير إلى بغـداد علـم بـأن عليـه أن ينتظر ٤٨ ساعة قبل أن يتسنى له الاجتماع بصدام حسين . لكنه أجتمع مع طارق عزيـز . وفـي مـساء ١٣ يناير استقبله صدام .

في أوئل فبراير ١٩٩١ نشرت الحكومة العراقية ما وصفته بأنه تسجيل لوقائع الاجتماع . ولم يشك أحـد فـي صحة ما جاء فيه . كان دقيقا مثل تسجيل وقائع اجتماعات صدام مع غلاسبي ، سفيرة الولايات المتحدة وجـو ولسون القائم بالأعمال . وقد حصلت على هذه التسجيلات خلال زيارتي لبغداد في في سبتمبر ١٩٩٠ . ومـن المهم أن نفهم ماذا حدث في تلك الليلة - قبل الموعد المحدد للانسحاب وهو ١٥ يناير .

استهل دي كويار الاجتماع بقوله لصدام :

" سيدي الرئيس . أود أن أقول بأنني قدمت إلى العراق بدون أن أكلف باي مهمة . فلم يعهد إلـيّ أحـد بـأي شيء من ذلك القبيل . ولم يكلفني مجلس الأمن أو الأمم المتحدة بالقيام بأي شيء . لكن ما شجعني على القيـام بهذه الرحلة ليسوا رؤساء الدول والحكومات وحدهم بل والبابا ومواطنون عاديون طلبـوا منـي أن اسـتخدم مركزي وخصوصا نفوذه الأدبي للعمل على إقرار السلام في المنطقة .

" وقد تفاجأ يا سيادة الرئيس إذ علمت أن بين الذين تمنوا لي النجاح في مهمتي رئيس الولايات المتحـدة الـذي اجتمعت وتحدثت معه أربع مرات يوم السبت الفائت . لكن أود أن أؤكد لك بأنني لا أحمل أية رسـالة وأنني لست رسولا من قبل أحد . فأنا أمثل نفسي فحسب .

" قبل مجيئي إلى العراق بأسبوع اجتمعت مع الرئيس بوش لأبلغه أنني قررت الاجتماع معـك . ذلـك أنني أردت قبل مجيئي أن استمع إليه وأنه أتأكد من رغبته في التوصل إلى حل سـلمي للأزمـة . ولا أسـتطيع أن أقدم أي ضمانة بشأن ما يضمره . لكنه قال لي عندما علم باعتزامي الاجتماع معك إنه يشعر برغبة ملحة فـي التوصل إلى حل سلمي للأزمة .

" لقد قمت بعدد من المبادرات بينها مبادرة مهمة وبناءة وهي قرارك بالافراج عن الاجانب ، فبـذلك أزلـت عقبة في طريق التخفيف من التوتر في المنطقة . على أن مبادرة ١٢ أغسطس { وذلك عندما صـرح صـدام حسين بأنه على استعداد للانسحاب من الكويت كجزء من حل عربي أوسع بما في ذلـك النـزاع الفلـسطيني الإسرائيلي } لم تفهم تماما . لكنها تظهر بشكل أو بآخر في إطار قرارات مجلس الأمن التي أشارت بالتحديـد إلى جامعة الدول العربية ومشاركتها في أي حل . فعلى ذلك الأساس يمكن عمل شيء . وكما سـبق لـي أن أخبرت وزير خارجيتكم فإنكم قد قمتم بعمل شيء . وأرى أنكم عملتم الكثير في سبيل القضية الفلسطينية وهـا أنتم قد وضعتم مصير الشعب الفلسطيني على جدول الأعمال .ونظرا لأني من أصل إسـباني فـإنني أشـعر بأنني قريب من العالم العربي والشعب الفلسطيني " .

وقال دي كويار إنه خلال اجتماعه في جنيف مع وزراء خارجية دول السوق الأوروبية وهو في طريقـه إلـى بغداد قال له الوزراء بأنهم يريدون معالجة القضية الفلسطينية . ثم واصل كلامه لصدام فقال:

وحتى عندما رايت بوش يوم السبت اعترف بالحاجة الملحة معالجة أزمة فلسطين وقال إنـه لـم يـنس البيـان الذي ألقاه في الجمعية العامة في الأول من أكتوبر وإنه قد تسنح الفرص لجميع الدول لايجـاد حـل للمـشكلة التي تفرق بين العرب والإسرائيليين .

على أن دي كويار بعد ذلك نقطة تنطوي على نقد فقال إنه لا يمكن حل أية قضية بما في ذلك قضية فلـسطين إذا لم ينسحب صدام من الكويت . ثم قال :

" أعرف شجاعتكم وكرمكم . فقد تابعت أخبار الحرب العراقية الإيرانية والمبادرات التي قمتم بتقديمها لإنهـاء الحرب . وآمل أن تتقدموا بالروح ذاتها بشيء يضع حدا للنزاع الحالي . ولعمل ذلك علينـا بـالطبع أن نجـد طريقة للتقيد بقرارات الأمم المتحدة وخصوصا رقم ٦٦٠ ورقم ٦٧٥ ... هناك شيء قاله بوش وسجلته علـى قصاصة ورق وهو : " إن الولايات المتحدة ستهاجم العراق أو قواته المسلحة إذا لم يتم الانسحاب من الكويـت ولم تعد الأمور فيها إلى ما كانت عليه في الثاني من أغسطس . إن الولايات المتحدة لا ترغب فـي أن تبقـي قواتها البرية في المنطقة ؛ وسوف تدعم المفاوضات بين الأطراف المعينة وسوف أقبل أي قرار تتخذه " .

وعندما أنهى دي كويار كلامه سأله صدام حسين : " هل تشرب قهوة سوداء {مرة} ؟ إن هذا النوع من القهـوة لا يساعد على النوم خلال الليل " . فأجابه دي كويار :

" إنني أسافر كثيرا . وأنا رجل متقدم في السن ، ولكنني قوي بالنسبة لسني . إن الرأس هو الذي يـتحكم بكـل شيء " .

***

ثم أخذ الزعيم العراقي يبسط آراءه فقال :

" أحببت أن تأتي لأنك تعاملت معنا في الماضي وتعرف طريقة تفكيرنا . وقد كنت أخشى أن تأتي مـن زاويـة مختلفة لأنك آت في ظروف يدعو فيها الأقوياء إلى استخدام السلاح ضدنا بأسرع وقت ممكن . " ولهذا فانـك إذا لم تقدم لهم ما يريدونه فقد يتخذون من زيارتك حجة لشن الحرب . وبينما كنت اصغي إليك تبين لـي أنـك أثرت عدة نقاط إيجابية . وأنا متفق معك على أنه بالنسبة لموضوع معقد علـى هـذا النحـو فانـه لا ينتظـر التوصل إلى الحلول في اجتماع واحد . إنه ينبغي مناقشة هذه الأمور بطريقة شاملة وبعمق " .

***

وقضى الزعيم العراقي ربع الساعة التالي في مناقشة الوضع الذي نشأ خلال الحرب العراقية الإيرانيـة . ثـم انتقل إلى مسألة الكويت فقال :

***

" ما الذي أوصل الأمور منذ الثاني من أغسطس إلى الحد الذي وصلت إليه ؟ إنه التهديد الذي شـعرنا بـه ؟ كانت الكويت قد أصبحت قاعدة في يد الولايات المتحدة للتآمر علينا ... إننا لم نضم الكويت أو نوحـد بينهـا وبين العراق في الحال بالرغم من أن حكام الكويت ـ كما تعلم ـ فروا في اليوم الأول ذاته ... وافقنـا علـى عقد مؤتمر قمة في السعودية تحضره الدول الخمس : العراق ، اليمن ، الأردن ، السعوودية ومصر . أردنـا أن نناقش كل هذه التعقيدات مع العالم العربي لنحلها.

" وماذا حدث ؟ بدلا من أن يعقد مؤتمر القمة قامت السعودية ومصر بإلغائه ، واتفقتا مع الولايـات المتحـدة على نشر قواتها على أرض السعودية . هكذا أضعنا فرصة التوصل إلى حل عربي ، وواصـل الأميركيـون نشر القوات بدون قرار من مجلس الأمن .

" وبالرغم من أن قرار نشر القوات الأميركية في السعودية كان قد اتخذ فاننا تصرفنا على نحـو بنـاء حيـال قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ . صحيح أننا لم نعترف بالقرار إلا أننا تحركنا في إطاره . وهكـذا فاننـا أعلنـا بوضوح أننا سنسحب قواتنا في الرابع من أغسطس . وبالفعل قمنا بسحب بعض قواتنا . وأعتقـد أننـا سـحبنا لواء بكامله ، بالرغم من أن قواتنا المتواجدة هناك عندئذ لم تكن بحجمها الحالي . لكن عندما استمر التـصعيد الأميركي ، واستمرت القوات الأميركية في الوصول بأعداد متزايدة ، أوقفنا سحب قواتنا . وكما قلت ، فاننـا أعلنا الوحدة ، وأبلغنا الشعب ، والجيش في العراق أن الكويت اصبحت جـزءا مـن بلادهـم وأن علـيهم أن

يقاتلوا من أجلها حتى الموت . {وكان صدام يشير إلى إعلانه في الثامن من أغسطس أن العراق قامـت بـضم الكويت . } " .

***

ثم تناول صدام القضية الفلسطينية فانتقد الولايات المتحدة لمعارضتها عقد مؤتمر دولي لبحث المشكلة " وذلـك لكي لا يكون عقده بمثابة انتصار سياسي لصدام حسين ... ما الذي يقولونـه الآن ؟ فلينـسحب العـراق مـن الكويت ثم نعقد مؤتمرا دوليا لمناقشة القضايا . وهذا وعد غير صادق إنه مجرد احتمال " .

وتبين من مجرى الحديث أن الزعيم العراقي لم يكن مستعدا للانسحاب من الكويت إلا في إطار حـل أشـمل . قال : " إن العراقيين لن يفروا من الموت . وسوف يحشر بوش يوما بعد يوم في الزاويـة ؛ وسـوف يـضطر إلى اللجوء إلى السلاح لأن الذي يشغل نفسه في توفير متطلبات استخدام الأسلحة لا يمكـن أن يركـز علـى التفكير في إيجاد بدائل لذلك " .

وكان الجزء الأخير من محادثات الزعيمين في غاية الأهمية ، إذ قال الأمين العام دي كويار بكل وضـوح : " إذا كنت قد فهمتك تماما فان موقفك من الكويت لا يمكن الرجوع عنه . وفي هذه الحالة لا يمكننا العمل بمبـدأ الصفقة " . فقال صدام :

" لم أقل ذلك – لقد قلت ما قلته – إذا وجدت أن الأميركيين يسعون إلى ايجاد مخرج مـن الأزمـة ، وأنهـم يبحثون عن طريقة لا تعود عليهم بالخسارة ولكنها في الوقت ذاته لا تحقق لهم بالضرورة كل مـا يريـدون ، فانه من الممكن وضع مخطط لهذا الغرض ؛ ويمكن للعرب أن يبحثوا عن حل على أساسه " .

فشكر دي كويار الزعيم العراقي على ضيافته والوقت الذي خصصه له . وقال صدام " أتمنى لـك النجـاح " وقال دي كويار : " ينبغي علينا أن نفكر في إخواننا الفلسطينيين " . فاجاب صـدام : " إنهـم يـذبحون يوميـا الأطفال والنساء " .

***

عاد دي كويار إلى نيويورك قبيل ظهر ١٤ يناير بعد أن توقف في باريس لرؤية الـرئيس ميتـران . وخـرج من اجتماعه مع ميتران مكتئبا . قال :

" من المؤسف أنني في نهاية رحلتي لا أجد سببا يدعو إلى التفاؤل . ولا يوجد كذلك سبب يجعلني أكثـر أمـلا . أنا دبلوماسي ولكنني أيضا نزيه ومستقيم ، ولا أستطيع أن أخفي أنني لم احرز تقدما ببغداد " .

لم يكن بقي على الموعد النهائي ١٥ يناير سوى ست وثلاثين ساعة ؛ ويوافق ذلك منتصف الليل فـي واشـنطن . وكان الفرنسيون يتحدثون عن آخر جهود للسلام . وأشار رولان دوما إلى أنه على اسـتعداد للـذهاب إلـى بغداد .

ثم حل ١٥ يناير . وفي الساعات الأولى من صباحه اغتيل أبو أياد في تونس . وكان دوما لا يزال يفكـر فـي السفر ولكنه قال بأنه لن يسافر حتى يتلقى رسالة من العراق تقول بأنه على استعداد للانسحاب مـن الكويـت . وكان عرفات يبذل جهودا يائسة للاتصال بالزعماء العرب في محاولة منه لإحراز أي تقدم نحو السلام .
وحل الموعد في منتصف الليل والعراق لا يزال متشبثا بالكويت . ومن الواضح أن الـزعيم العراقـي كـان ينتظر نشوب الحرب .

***

في صباح ١٦ يناير توجهت مبكرا إلى مكتبي . وكان يخامرني شعور بأن شيئا ما سـيحدث . وفـي الرابعـة بعد الظهر دق جرس التلفون وكان المتحدث مصدري العسكري الأول الذي أثق به كل الثقة . قال : " يفـضل أن تضع سيارتك في الكاراج هذه الليلة " . قال هذا وأقفل الخط . على أن رسالته كانت واضحة . كـان سـيقع الهجوم على العراق في تلك الليلة .
في الحادية عشرة والنصف ليلا بتوقيت لندن بدأت القنابل في السقوط على بغداد . وبذلك بدأت حرب الخليج.

الخاتمة

في الثاني عشرة والنصف من صباح ٢٨ فبراير رن جرس التلفون الذي كان بجوار سـريري وقيـل لـي أن أذهب في الحال إلى مكتبي لأن الرئيس بوش كان سيخاطب الشعب الأميركي في الثانية صباحا . وكانت تلـك هي الليلة الرابعة على التوالي منذ أن بدأت الحرب البرية التي أهب فيها من الفراش وأحلـق ذقنـي وارتـدي ملابسي على عجل وأتجه إلى مكتبي . وعندما دخلت المكتب وجدت بعض الأخبار التي تشير إلى أن الـرئيس الأميركي سيعلن نهاية الحرب . وفي الثانية صباحا أعلن وقف إطلاق النار المؤقت وأن الغارات الجوية علـى العراق توقفت وأن الحرب البرية ستتوقف عند منتصف الليل بتوقيت واشنطن والثامنة صباحا بتوقيت بغـداد . وبهذا تكون الحرب قد استمرت ستة أسابيع وأربع ساعات بينما استمرت الأزمة ستة أشـهر وسـتة وعـشرين يوما .
سأترك للمحللين العسكريين أمر تقييم الحرب . وقد يمضي بعض الوقت قبل أن يتمكنـوا مـن فـك رمـوز الرسائل التي ارسلت إلى الصحافة في واشنطن والسعودية وإسرائيل والعراق ، ومعرفة تفاصـيل مـا حـدث بالفعل . لكن هناك اشياء واضحة . لقد سحقت قدرات العراق العسكرية ، ودمرت بنياتهـا التحتيـة . وعليـه فسوف يمر جيل من الزمن على الأقل لإعادة البناء . وكذلك فان القوات العراقية أنزلت خرابـا خطيـرا فـي الكويت . إذ دمرت أقسام من المدينة واشعلت النار في آبار النفط وعذب بعض المواطنين وقتل غيرهم . لكـن ربما كان الأهم من هذا بكثير هو الطريقة التي هزت بها الحرب العالم العربي وقسمته على نفسه .
إن الأمة العربية سريعة العطب . وقد أحدثت كل أزمة شهدتها المنطقة تغيرات درامية فيها . فخلق إسـرائيل في عام ١٩٤٨ اعتبر هزيمة عربية كبرى . وفي السنوات الخمس التالية سـقط زعمـاء ثـلاث دول ، وهـي مصر وسوريا والعراق . وخلال حرب السويس سمحت العراق التي كانت لا تزال تخـضع للحكـم الملكـي

لبريطانيا باستخدام مطاراتها لمهاجمة مصر بالطائرات المقاتلة . وبعد سنتين أطـيح بالأسـرة الحاكمـة وأدى الانتصار المذهل لإسرائيل في حرب الأيام الستة إلى قيام منظمة التحرير بنـشاط " إرهـابي " واسـع . وأدى الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ إلى قيام حزب ا الذي تدعمه إيران . وبعد ذلك بخمس سـنوات ابتـدأت الانتفاضة في الأراضي المحتلة .

وشهدت السنوات الخمس والأربعون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ٨١ انقلابا في أربع عشرة دولـة عربيـة نجح منها أربعة وعشرون . وكان القطران اللذان شهدا اكثرها هما العراق وسـوريا . إذ شـهد ٣٢ محاولـة نجح منها ١٤ . والأقطار العربية تخضع للحكم الملكـي أو الجمهـوري ، لكـن لا يتمتـع أي منهـا بحكـم ديمقراطي . صحيح أن في بعضها " برلمانات " أو " جمعيات وطنية " أو " مجالس شعبية " ، لكن هـذه ليـست سوى مؤسسات هزيلة أنشئت لإضفاء هالة من الشرعية على النخب الحاكمة . وإن عجز الحكومـات الغربيـة التي تحالفت في حرب الخليج عن الضغط على هذه الأقطار لتبني نظم ديمقراطية سـوف يـؤدي إلـى تفـاقم الأخطار التي نجمت عن الحرب . كما أن عجز الدول الغربية عن حل القضايا العربية الأساسية مثـل النـزاع العربي الإسرائيلي سوف يزيد من تلك الأخطار .

قام الخبراء بإعداد قائمة بأسماء الرابحين وأخرى بأسماء الخاسرين في العالم العربي . وتضم الأولى إيـران ، وتركيا ، ومصر وسوريا والسعودية . وتضم الثانية الأردن واليمن ومنظمة التحريـر الفلـسطينية ويـضيف الخبراء أن الأشخاص الرابحين هم الرئيس التركي أوزال ، والرئيس المصري مبارك ، والـرئيس الـسوري حافظ الأسد . والخاسران في نظرهم هم الملك حسين وياسر عرفـات . والحقيقـة هـي أن الـذين وصـفوا بالرابحين يواجهون معارضة علنية أو سرية في بلادهم ، في حين أن الملك حسين يتمتع بـشعبية كبيـرة ، وأن ياسر عرفات لا يزال المسيطر على المنظمة . وعليه فعلى المرء أن لا يفاجأ خلال السنوات القليلـة القادمـة إذا خسر أحد الرابحين وظل الخاسرون في أوج قوتهم وشعبيتهم .

لقد تحدث الرئيس بوش عن خلق نظام عالمي جديد . لكن هذا ليس بالأمر السهل . فقد فقدت أميركـا الكثيـر من شعبيتها في بعض الأقطار العربية . وكذلك فإن العلاقات الأميركية السوفيتية قد أصبحت سريعة العطـب بعد وقت غير طويل من انتهاء الحرب الباردة .

وأصابت حرب الخليج اندفاع الجماعة الأوروبية نحو مزيد من الوحدة الـسياسة والنقديـة بأضـرار بالغـة . وعلينا أن لا ننسى أن الحرب أدت إلى انتفاضات في كثرة من الأقطار الآسيوية.

من الصعب أن يحاول المرء فيما تصفه الولايات المتحدة بالنصر الدرامي . لكن السلام في غايـة التعقيـد ، وخصوصا في الشرق الأوسط . لقد تمت هزيمة العراق بسرعة . لكن ليس من السهل التوصـل إلـى سـلام طويل الأمد .

الوثائق

الملحق الأول

رسالة

نائب رئيس الوزراء ، وزير الخارجية العراقي

إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية

بتاريخ ١٥ يوليو (تموز) ١٩٩٠

سيادة الأخ الشاذلي القليبي

الأمين العام لجامعة الدول العربية

تحية أخوية ...

في بداية هذه الرسالة لابد من التذكير بالمبادئ التي يؤمن بها العراق والتي طبقها بكل أمانة وحرص في علاقاته العربية .

إن العراق يؤمن بأن العرب في كل أقطارهم أمة واحدة .. ويفترض أن يعم خيرهم الجميع وأن يستفيدوا منه ، وإذا ما أصاب أحدهم ضرر أو أسى فأن هذا الضرر والأسى يلحق بهم جميعا وأن العراق ينظر إلى ثروات الأمة على أساس هذه المبادئ .. وقد تصرف في ثروته منطلقا من هذه المبادئ .

كما يؤمن العراق .. بأنه برغم ما أصاب الأمة العربية في العهد العثماني وبعده تحت ظل الاستعمار الغربي من شتى الوان التقسيم والهوان والاضطهاد ومحاولة فسخ الشخصية القومية ، فان مقومات وحدة الأمة العربية ما تزال حية وقوية .. وأن الوطن العربي برغم انقسامه إلى دول هو وطن واحد وأن أي شبر من هذا الوطن هنا أو هناك في أرض هذا القطر أو ذاك ينبغي المشترك ، كما ينبغي تجنب الوقوع في مهاوي النظرة الضيقة والأنانية في التعامل مع المصالح والحقوق لهذا القطر أو ذاك . إن مصالح الأمة العربية العليا.. والحسابات الاستراتيجية العليا للأمن القومي العربي يجب أن تكون حاضرة دائما كما يجب أن تكون المعيار الأول في التعامل في كل هذه المسائل بين الأقطار العربية .

على أساس هذه المبادئ القومية والأخوية المخلصة والصادقة تعامل العراق مع الكويت رغم ما هو معروف من حقائق الماضي والحاضر بالنسبة للكويت والعراق . والذي دعانا إلى كتابة هذه الرسالة .. اننا مع عميق الأسف بتنا نواجه الآن من جانب حكومة الكويت حالة تخرج عن إطار المفاهيم القومية التي ذكرنا .. بل تتناقض معها وتهددها في الصميم .. وتتناقض مع أبسط مقومات العلاقات بين الأقطار العربية .. إن المسؤولين في حكومة الكويت وبرغم مواقفنا الأخوية الصادقة في التعامل معهم في جميع القضايا ، وبرغم حرصنا على مواصلة الحوار الأخوي معهم في كل ولأوقات قد سعوا وبأسلوب مخطط ومدبر ومتواصل إلى لستمرت ثمان سنوات والتي أكد كل العرب المخلصين قادة ومفكرين ومواطنين ، ومنهم رؤساء دول الخليج

بأن العراق كان يدافع خلالها عن سيادة الأمة العربية كلها وخاصة دول الخليج ومنها بـل وبـصورة خاصـة الكويت . كما سلكت حكومة الكويت هذه السياسة التي تتعمد إضعاف العراق في الوقت الـذي يواجـه فيـه العراق حملة امبريالية صهيونية شرسة بسبب مواقفه القومية في الدفاع عن الحق العربي، تدفعها إلى ذلك مـع الأسف دوافع أنانية ونظرة ضيقة وأهداف لم يعد ممكنا النظر إليها إلا على أنها مريبة وخطيرة . وفـي هـذا الشأن هنالك صفحتان رئيسيتان :

الأولى : من المعروف أنه منذ عهد الاستعمار والتقسيمات التي فرضها على الأمة العربية هنالـك موضـوع معلق بين العراق والكويت بشأن تحديد الحدود .. ولم تفلح الاتصالات التي جرت خلال الستينات والـسبعينات في الوصول الذي حل بين الطرفين لهذا الموضوع حتى قيام الحرب بين العراق وإيران .. وفي أثناء سـنوات الحرب الطويلة بصورة خاصة وفي الوقت الذي كان فيه أبناء العراق النشامى يسفحون دمهـم الغـالي فـي الجبهات دفاعا عن الأرض العربية ومنها أرض الكويت وعن السيادة والكرامة العربية ومنها كرامة الكويـت ، استغلت حكومة الكويت انشغال العراق كما استغلت مبادئه القومية الأصيلة ونهجه النبيل في التعامـل مـع الأشقاء وفي القضايا القومية لكي تنفذ مخططا في تجميد وتيرة الزحف التـدريجي والمبـرمج باتجـاه أرض العراق فصارت تقيم المنشآت العسكرية والمخافر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق وقد سـكتنا على كل ذلك واكتفينا بالتلميح والإشارات علها تكفي في إطار مفاهيم الأخوة التي كنا نعتقد أن الجميع يؤمنـون بها . ولكن تلك الإجراءات استمرت وبأساليب ماكرة وإصرار يؤكد التعمّد والتخطيط .

وبعد تحرير الفاو ، بادرنا - في أثناء مؤتمر قمة الجزائر عام ١٩٨٨ - إلى إبلاغ الجانب الكـويتي برغبتنـا الصادقة في حل هذا الموضوع في إطار علاقات الإخوة والمصلحة القومية العليا ولكننا وجدنا أنفـسنا أمـام حالة تثير الاستغراب الشديد .. فبرغم أن المنطق يفترض أن يفـرح الـسؤولون الكويتيـون لهـذه المبـادرة الأخوية الكريمة من جانبنا وأن يعملوا لانجاز هذا الموضوع بسرعة ، لاحظنا التردد والتبـاطوء المتعمـدين من جانبهم في مواصلة المباحثات والاتصالات وإثارة تعقيدات مصطنعة مع الاستمرار في التجـاوز وإقامـة المنشآت البترولية والعسكرية والمخافر والمزارع على الأراضي العراقية وقد صبرنا على هـذه التـصرفات بدواعي الحكمة والحلم .

وكان استعدادنا لمزيد من العمل كبيراً لولا انتقال الأمور إلى مستوى خطير لم يعد ممكنا السكوت عليه وهـو ما سنتناوله في الصفحة الثانية والأكثر خطورة من الموضوع .

إن العراق يحتفظ بسجل كامل لهذا الموضوع يوضح بالوثائق والحيثيات كل التجـاوزات التـي قامـت بهـا حكومة الكويت .

الثانية : بدأت حكومة الكويت ومنذ عدة أشهر ، وبالتحديد منذ أن رفع العراق صوته عاليا يـدعو بقـوة إلـى استعادة حقوق العرب في فلسطين وينبه إلى مخاطر الوجود الأميركي في الخلـيج ، بـدأت بانتهـاج سياسـة ظالمة القصد منها هو إيذاء الأمة العربية وإيذاء العراق خاصة .

وفي هذا الجانب اشتركت حكومة الإمارات العربية المتحدة مع حكومة الكويت . فقد نفذت حكومتـا الكويـت والإمارات عملية مدبرة لإغراق سوق النفط بمزيد من الانتاج خارج حصتهما المقررة في الأوبك بمبـررات واهية لا تستند إلى أي أساس من المنطق أو العدالة أو الانصاف .. وبذرائع لم يشاركهما فيها أي من الأشـقاء من الدول المنتجة .. وقد أدت هذه السياسة المدبرة إلى تدهور أسعار النفط تدهورا خطيرا .. فبعـد التـدهور الذي حصل قبل سنوات في السعر ، من المعدلات العالية التي كان قـد بلغهـا وهـي ٢٤ ، ٢٩ ، ٢٨ دولارا للبرميل الواحد ، أدت تصرفات حكومتي الكويت والإمارات إلى انهيار سعر الحد الأدنى المتواضع الذي تـم الاتفاق عليه في الأوبك أخيرا وهو ١٨ دولارا للبرميل إلى مـا بـين ١١ ـ ١٢ دولارا للبرميـل . وبعمليـة حسابية بسيطة يمكننا أن نقدر مقدار الخسائر الباهظة التي لحقت بالدول العربية المنتجة للنفط .

أولا : إن معدل انتاج الدول العربية من النفط هو ١٤ مليون برميل في اليوم وأن تدهور الأسعار فـي الفتـرة الواقعة بين ١٩٨١ ـ ١٩٩٠ قد أدى إلى خسارة الدول العربية بحـدود ٥٠٠ مليـار دولار ، كانـت حـصة العراق منها خسارة ٨٩ مليار دولار . ولو أن العرب جميعا لم يخسروا هذه المبالغ الهائلة ووفرنـا نـصفها للتنمية القومية ولمساعدة البلدان العربية الفقيرة لحققنا تقدما هائلا في التنمية القومية وأسعدنا الفقراء من أبنـاء أمتنا .. ولكان وضع الأمة أقوى وأكثر رفاها وتقدما مما هو عليه الآن .

إذا اعتمدنا الحد للأسعار كما قررته الأوبك عام ١٩٨٧ وهو ١٨ دولارا للبرميل ، فان خسارة الدول العربيـة خلال الفترة من ١٩٨٧ ـ ١٩٩٠ بسبب تدهور هذا السعر تبلغ حوالي ٢٥ مليار دولار .

ثانيا : أن نقص كل دولار من سعر النفط يؤدي إلى إلحاق خسارة بالعراق تبلغ مليـار دولار سـنويا . ومـن المعروف ان السعر قد انخفض هذه السنة عدة دولارات عن سـعر ١٨ بـسبب سياسـة حكـومتي الكويـت والإمارات ، مما يعني خسارة العراق لعدّة مليارات من دخلة لهذه السنة في الوقت الذي يعاني فيه العراق من ضائقة مالية بسبب تكاليف الدفاع الشرعي عن أرضه وأمنه ومقدساته وعن أرض العرب وأمنهم ومقدسـاتهم طيلة ملحمة الثمان سنوات . إن هذه الخسائر الجسيمة من جراء تدهور اسعار النفط لم تصب الـدول العربيـة المنتجة للنفط وحدها .. وانما اصابت بنتائجها الدول الشقيقة الأخرى التي كانت تتلقى المعونات مـن اخواتهـا الدول العربية المنتجة للنفط .. فقلّت امكانات الدعم بل توقفت في بعض الحالات كما تدهورت أيضا أوضـاع مؤسسات العمل العربي المشترك وعانت الأزمات وهي الآن في اصعب الظروف ، لهذا الـسبب أو لاتخـاذ ذلك ذريعة لتقليل أو ايقاف المساعدات والدعم لمؤسسات العمل العربي المشترك .

وقد أضافت حكومة الكويت إلى هذه الاساءات المتعمدة إساءة اخرى مستهدفة الإضرار بالعراق بالذات . فقد نصبت منذ عام ١٩٨٠ وخاصة في ظروف الحرب منشآت نفطية على الجزء الجنـوبي مـن حقـل الرميلـة العراقي وصارت تسحب النفط منه . ويتضح من ذلك انها كانت تغرق السوق العالمي بالنفط الذي كان جـزءا منه هو النفط الذي تسرقه من حقل الرميلة العراقي وبهذا تلحق الصرر المتعمـد بـالعراق مـرتين .. مـرة باضعاف اقتصاده وهو احوج ما يكون فيه إلى العوائد ومرة اخرى بسرقة ثروته . وتبلغ قيمـة الـنفط الـذي

سحبته حكومة الكويت من حقل الرميلة فقط بهذه الطريقة المنافية لعلاقات الأخوة وفقا للاسعار المتحققة بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠ ـ (٤٠٠) مليون دولار .

واننا نسجل امام جامعة الدول العربية وامام الدول العربية كلها حق العراق في استعادة المبالغ المسروقة من ثروته وحق العراق في مطالبة المعنيين باصلاح التجاوز والضرر الذي وقع عليه .

لقد سبق ان شرحنا مخاطر سياسة حكومتي الكويت والامارات لأخوتنا في الدول العربية المنتجة ومنهم الكويت والامارات مرات عديدة .. وشكونا .. وحذرنا .. وفي قمة بغداد تحدث السيد الرئيس صدام حسين حول هذه المسألة أمام الملوك والرؤساء والأمراء وبحضور المعنيين بصراحة وبروح أخوية (ونرفق طيا نص حديث سيادته حول الموضوع في مؤتمر قمة بغداد) . وكنا نتصور وخاصة بعد الاجواء الأخوية الايجابية التي تحققت في قمة بغداد ان حكومتي الكويت والامارات سترعويان عن النهج ولكن الحقيقة المؤلمة هي أن كل ما قمنا به من مساع ثنائية ومن اتصالات مع دول شقيقة لتلعب دورا ايجابيا في ثني حكومتي الكويت والامارات عن هذا النهج وبرغم حديث السيد الرئيس صدام حسين في قمة بغداد فقد تعمّدت هاتان الحكومتان مواصلة هذه السياسة واستمرتا فيها بل ان بعض المسؤولين فيهما اطلقوا تصريحات وقحة عندما ألمحنا إلى هذه الحقائق وشكونا منها . لذلك لم يبق هناك أي مجال لاستبعاد الاستنتاج بان ما فعلته حكومتا الكويت والامارات في هذا الشأن انما هو سياسة مدبرة تستهدف اهدافا خفية . ومع ادراكنا بأن هذه السياسة التي أدت إلى انهيار اسعار النفط تضر في المحصلة النهائية باقتصاد هذين البلدين نفسيهما .. فلم يبق امامنا غير ان نستنتج بان من تعمد هذه السياسة بصورة مباشرة ومكشوفة أو من آزرها أو دفع اليها ، انما ينفذ جزءا من المخطط الامبريالي ـ الصهيوني ضد العراق وضد الأمة العربية خاصة في التوقيت الذي جاءت فيه وهو ظروف التهديد الخطير من جانب اسرائيل والامبريالية الذي يتعرض إليه الوطن العربي عامة والعراق خاصة ، إذ كيف يمكن لنا ان نواجه هذا التهديد الخطير ونحافظ على التوازن في القوة الذي حققه العراق بأغلى التكاليف وهو الذي عانى ما عانى من الخسائر في اثناء الحرب مع انهيار مورد العراق الأساسي وموارد الدول العربية المصدرة للنفط وهي العراق ، السعودية ، قطر ، عمان ، اليمن ، مصر ، سورية ، الجزائر وليبيا ؟ !

هذا فضلا عما تؤدي إليه هذه السياسة المريبة من اضعاف قدرة هذه الدول العربية على مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة التي تعاني منها وهي مشكلات ذات طبيعة مصيرية .. فإلى أي مصير تريد حكومتا الكويت والامارات ان تجرا الامة العربية ؟ ! .. في هذا الظرف الصعب الدقيق والخطر ؟! .. وسياسات من وأهداف من تريدان إرضاءهما ؟!.

إنّا .. وبعد أن أوضحنا هذه الامور لكل الاشقّاء وبعد أن طلبنا مباشرة من هاتين الحكومتين الكف عن هذه السياسة الظالمة والمدمرة وشرحنا لهما ما نتعرض إليه من أضرار كبيرة .. قبل قمة بغداد وفي اثناء القمة

.. وبعدها .. وأرسلنا المبعوثين وكتبنا الرسائل .. لذلك فإننا ندين ما فعلته حكومتا الكويت والامارات بالعدوان المباشر على العراق فضلا عن عدوانهما على الامة العربية .

اما بالنسبة لحكومة الكويت فان اعتداءها على العراق هو اعتداء مزدوج فمن ناحية تعتدي عليه وعلى حقوقه بالتجاوز على أراضينا وحقولنا النفطية وسرقة ثورتنا الوطنية .. وإن مثل هذا التصرف هو بمثابة عدوان عسكري .

ومن ناحية اخرى تتعمد حكومة الكويت تحقيق انهيار في الاقتصاد العراقي في هذه المرحلة التي يتعرض فيها إلى التهديد الامبريالي الصهيوني الشرس وهو عدوان لا يقل في تاثيره عن العدوان العسكري .

اننا إذ نعرض هذه الحقائق المؤلمة امام الاشقاء العرب فاننا نامل ان يرفع الاشقاء صوتهم عاليا لوضع حد لهذا العدوان المتعمد المدبر ولكي ينصحوا المنحرفين للعودة إلى السلوك السوي الذي يأخذ بالاعتبار المصلحة القومية المشتركة ومتطلبات الأمن القومي المشترك .

ثالثا : وبمناسبة الحديث عن المصالح القومية العليا وارتباط الثروة العربية بمصير الامة العربية نطرح مقترحا كالتالي .

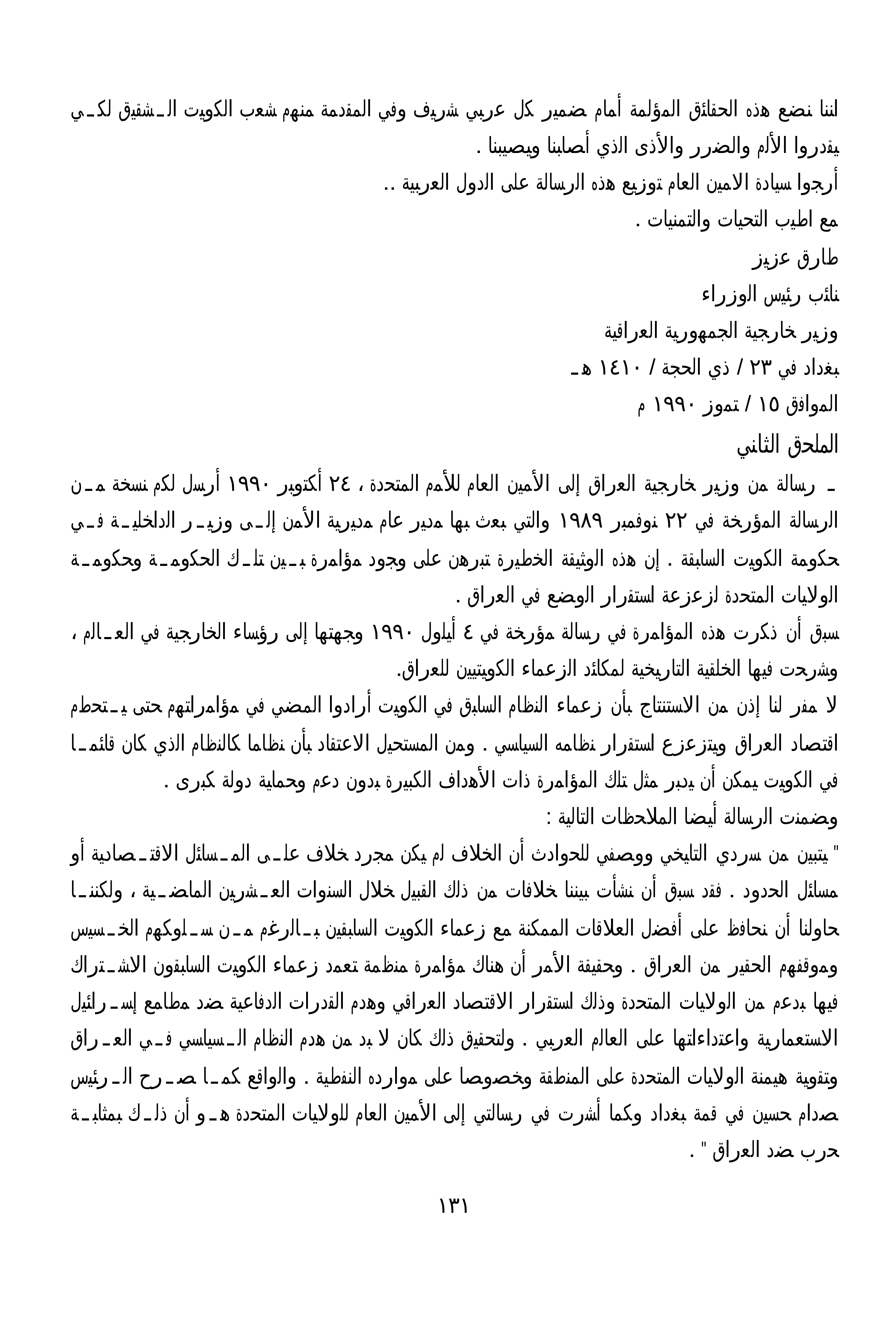
- لو تضامنت كل الدول العربية المنتجة وغير المنتجة تضامنا سياسيا متينا واتفقت على العمل على رفع سعر النفط إلى ما يزيد عن ٢٥ دولارا ثم اقامت صندوقا للمعونة والتنمية العربية على غرار ما تفق عليه في قمة عمان على ان يمول هذا الصندوق بدولار عن كل برميل نفط تبيعه الدول العربية المنتجة باكثر من سعر ٢٥ دولارا فان المبلغ الذي سيتحقق لهذا الصندوق هو ٥ مليارات دولار سنويا في نفس الوقت الذي تتحقق فيه زيادات كبيرة في مداخيل الدول المصدرة للنفط ، لأن التضامن العربي الجماعي الذي يفترضه هذا السعر المنصف يزيد من مدخولاتها المالية ويحميها من المحاولات العدائية التي تستهدف إضعاف القوة العربية من خلال إضعاف مواردها من الثروة البترولية .

ويمكننا ان نتصور كيف ان مبلغا ثابتا كهذا سيعزز الأمن القومي العربي ويوفر امكانات نمو لكل الدول العربية ويمكنها من مواجهة الضائقة الاقتصادية الخانقة التي تعاني منها اغلب دولنا.

ان العراق يطرح هذا المقترح للدراسة الجادة وقد يكون مؤتمر القمة العربي القادم في القاهرة مناسبة لبحث هذا المقترح واقراره .

رابعا : ولمناسبة الحديث عن هذه الحقائق المؤلمة نرى من الضروري ان نوضح اللبس الذي ربما يكون موجودا لدى بعض الاشقاء حول موضوع (المساعدات) التي قدمتها الكويت والامارات للعراق اثناء الحرب .

لقد اجمع العرب المخلصون في كل الوطن العربي على ان الحرب التي اضطر العراق إلى خوضها لم تكن للدفاع عن سيادته فحسب وإنما كانت دفاعا عن البوابة الشرقية .


اننا نضع هذه الحقائق المؤلمة أمام ضمير كل عربي شريف وفي المقدمة منهم شعب الكويت الشقيق لكي يقدروا الألم والضرر والأذى الذي أصابنا ويصيبنا .

أرجوا سيادة الامين العام توزيع هذه الرسالة على الدول العربية ..

مع اطيب التحيات والتمنيات .

طارق عزيز

نائب رئيس الوزراء

وزير خارجية الجمهورية العراقية

بغداد في ٢٣ / ذي الحجة / ١٤١٠ هـ

الموافق ١٥ / تموز ١٩٩٠ م

الملحق الثاني

ـ رسالة من وزير خارجية العراق إلى الأمين العام للأمم المتحدة ، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٠ أرسل لكم نسخة من الرسالة المؤرخة في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩ والتي بعث بها مدير عام مديرية الأمن إلى وزير الداخلية في حكومة الكويت السابقة . إن هذه الوثيقة الخطيرة تبرهن على وجود مؤامرة بين تلك الحكومة وحكومة الولايات المتحدة لزعزعة استقرار الوضع في العراق .

سبق أن ذكرت هذه المؤامرة في رسالة مؤرخة في ٤ أيلول ١٩٩٠ وجهتها إلى رؤساء الخارجية في العالم ، وشرحت فيها الخلفية التاريخية لمكائد الزعماء الكويتيين للعراق.

لا مفر لنا إذن من الاستنتاج بأن زعماء النظام السابق في الكويت أرادوا المضي في مؤامراتهم حتى يتحطم اقتصاد العراق ويتزعزع استقرار نظامه السياسي . ومن المستحيل الاعتقاد بأن نظاما كالنظام الذي كان قائما في الكويت يمكن أن يدبر مثل تلك المؤامرة ذات الأهداف الكبيرة بدون دعم وحماية دولة كبرى .

وضمنت الرسالة أيضا الملاحظات التالية :

" يتبين من سردي التايخي ووصفي للحوادث أن الخلاف لم يكن مجرد خلاف على المسائل الاقتصادية أو مسائل الحدود . فقد سبق أن نشأت بيننا خلافات من ذلك القبيل خلال السنوات العشرين الماضية ، ولكننا حاولنا أن نحافظ على أفضل العلاقات الممكنة مع زعماء الكويت السابقين بالرغم من سلوكهم الخسيس وموقفهم الحقير من العراق . وحقيقة الأمر أن هناك مؤامرة منظمة تعمد زعماء الكويت السابقون الاشتراك فيها بدعم من الولايات المتحدة وذلك استقرار الاقتصاد العراقي وهدم القدرات الدفاعية ضد مطامع إسرائيل الاستعمارية واعتداءاتها على العالم العربي . ولتحقيق ذلك كان لا بد من هدم النظام السياسي في العراق وتقوية هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة وخصوصا على موارده النفطية . والواقع كما صرح الرئيس صدام حسين في قمة بغداد وكما أشرت في رسالتي إلى الأمين العام للولايات المتحدة هو أن ذلك بمثابة حرب ضد العراق " .

إن هذه الرسالة تبين بوضوح ودون لبس أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية ودوائر مخـابرات حكومـة الكويت السابقة تعاونت على التآمر على أمن العراق القومي وسلامة أراضيه واقتصاده القومي .

أكون ممتنا إذا تكرمت بتوزيع هذه الرسالة والنص المرافق بوصفهما من الوثائق الرسمية للأمم المتحدة .

طارق عزيز

وزير خارجية العراق

بغداد ٢٤ أكتوبر ١٩٩٠

الملحق الثالث

سري جداً وخاص

رسالة من العميد فهد أحمد إلى صاحب السمو الشيخ سالم الصباح السالم الصباح (بلا تاريخ)

سمو وزير الداخلية الشيخ سالم الصباح السالم الصباح

بعد لقائنا المشترك وتنفيذا لأوامر سموكم الصادرة بتاريخ ٢٢ (أكتوبر) تشرين الأول ١٩٨٩ ، قمت بـين ١٢ و ١٨ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٨٩ ، بزيارة مقر وكالة الإسـتخبارات فـي الولايـات المتحـدة ، بـصحبة الكولونيل اسحق عبد الهادي شداد ، مدير المباحث في محافظة الأحمدي .

وقد شدد الجانب الأميركي أن تبقى الزيارة سرية جداً ، إلى حين حل مشكلة حـساسية أشـقائنا فـي مجلـس التعاون الخليجي من جهة وفي كل من إيران والعراق من جهة ثانية .

وفي هذه الرسالة أضع بين يدي سموكم ، النقاط الرئيسية التي اتفقنا عليها مع القاضي ولـيم ويـستر ، مـدير وكالة الإستخبارات الأميركية ، وذلك خلال لقائي الخاص معه يوم الثلاثاء في ١٤ (نـوفمبر) تـشرين الثـاني ١٩٨٩ .

١ ـ إن الولايات المتحدة ، مستعدة لتدريب أشخاص ، نختارهم نحن ، لحماية سمو الأمير وسمو الـشيخ سـعد العبد ا السالم الصباح . إن الإعداد والتدريب سوف يكونان في مقر وكالة الإستخبارات الأميركيـة نفـسه ، هذا مع العلم أن العدد النهائي لهؤلاء الأشخاص هو ١٢٣ شخصاً.

وقد اتفقنا أن تناط ببعضهم مهمات خاصة مرتبطة مباشرة بالعائلة الملكية ، هذه المهمات يحددها سمو الأمير ولي العهد .

وحول هذا الموضوع أفادنا الجانب الأميركي ، أنهم غير راضين عن كفاءة وقدرات قوات الحـرس الملكـي اثناء الهجوم الذي تعرض له سمّو الأمير .

٢ ـ وقد اتفقنا مع الجانب الأميركي على أن تتم زيارات متبادلة على كل المـستويات بـين مديريـة الأمـن الوطني ووكالة الإستخبارات المركزية .

وأن يتم تبادل معلومات حول تسلح كل من إيران والعراق ، وحول البنى الإجتماعية والسياسية لكليهما .

٣ ـ وقد طلبنا بإلحاح مساعدة خبراء الوكالة ، لإعادة تكوين بنية مديرية الأمن الوطني ، بعد لقائنـا معهـم ، حيث أصبحت هذه القضية من الأولويات الملحة خصوصا بعد الأوامر التي أصدرها سمّو الأمير .

إننا ننتظر خبراتهم للشروع في وضع استراتيجية جديدة تتناسب مع الوضع الداخلي في البلاد ومـع التغيـرات في منطقة الخليج ، وذلك عن طريق تركيب نظام معلوماتي وآلي في مديرية الأمن الوطني .

٤ ـ وكما طلبنا نحن ، فقد أعلمنا الجانب الأميركي ، أنـه مـستعد لتبـادل المعلومـات ، حـول نـشاطات المجموعات الشيعية المتطرفة داخل البلاد، وفي بعض دول مجلس التعاون الخليجي.

وقد قام السيد وبستر بتهنئتنا على الإحتياطات التي اتخذناها ضد الحركات المدعومة من إيـران ، وأعلمنـا أن الوكالة مستعدة لعمل مشترك معنا ، لا ستبعاد كل عوامل التوتر في منطقة الخليج.

٥ ـ وقد اتفقنا مع الجانب الأميركي ، على أنه من المهم الإستفادة من تدهور الوضع الإقتصادي في العـراق، حتى نجبر حكومة هذا البلد على الموافقة على رسم حدودنا المشتركة . وقد عرضـت وكالـة الإسـتخبارات الأميركية وسائل الضغط التي تراها ملائمة . مع التشديد على أنه يجب أن يقوم بيننا تعاون واسـع فـي هـذا الحقل ، بشرط أن يتم التنسيق على أعلى المستويات.

٦ ـ يرى الجانب الأميركي ، أن تكون علاقاتنا بإيران على الشكل التالي : من جهة يجـب أن نـسعى لتلافـي أي اتصال مباشر معهم . وبخلاف ذلك من جهة ثانية ، يجب أن نمارس علـيهم كـل الـضغط الإقتـصادي الممكن ، بنفس الوقت الذي يجب ان نستمر فيه بدعم تحالفهم مع سوريا .

وقد حدد الاتفاق مع الجانب الأميركي، أنه على الكويت تلافي أي تصريح علنـي ضـد إيـران ، وبالمقابـل تقليص دورها ونشاطها في الإجتماعات العربية المختلفة .

٧ ـ لقد اتفقنا مع الجانب الأميركي، أنه من المهم جداً محاربة المخدرات داخل الكويت ، وذلك بعد أن أخبرنـا خبراء مكتب المخدرات في الوكالة ، أن جزءا كبيرا من الرأسمال الكويتي، يُستعمل لتشجيع تجارة المخـدرات في باكستان وإيران . وأن نموّ هذه التجارة له انعكاسات كارثية على مستقبل الكويت .

لقد وضع الجانب الأميركي بتصرفنا خطا هاتفيا خاصا ، لتشجيع التبادل السريع للأفكـار والمعلومـات التـي تتطلب اتصالات مكتوبة .

إن رقم خط الهاتف الخاص العائد للسيد وليم وبيستر هو التالي : ٥٢٤١ ـ ٦٥٩ (٢٠٢).

إنني انتظر توجيهات سمّوكم . وابعث لسمّوكم بأفضل التحيات .

العميد فهد أحمد الفهد

مدير عام

مديرية الأمن الوطني